جامعة مؤتة
عمادة الدراسات العليا

أدب الحرب عند العماد الأصفهاني

إعداد الطالب

عاهد طه عبد اللطيف عيال سلمان

إشراف

الأستاذ الدكتور سمير الدروبي

رسالة مقدمة إلى عمادة الدراسات العليا
استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة الدكتوراه
في الأدب ـ قسم اللغة العربية وآدابها

جامعة مؤتة، 2011 م

الإهداء

إلى والديّ الكريمين حباً وعرفانا.

إلى زوجتي العزيزة وولديّ إياس ورفيد.

إلى إخوتي وأخواتي.

إلى كلّ من ساندني بحمل أعباء هذا العمل.

عاهد طه عيال سلمان

الشُّكر والتقدير

وممّا يجب على المرء . بعد شكر الله وحمده . أن يشكر أهل الفضل، على ما قدموه لي من عون وإرشاد، أشكر الله أن هيأ لي أستاذاً، كان يلحظني بعين العالم الغيورِ على العلم وأهله، فَلهُ مني كلّ الشكر والثناء، كما أتقدم بالشكر الموصول لأعضاء لجنة المناقشة، على تفضلهم بقبول هذه المناقشة.

عاهد طه عيال سلمان

فهرس المحتويات

المحتوى	الصفحة
الإهداء	أ
الشكر والتقدير	ب
فهرس المحتويات	ج
الملخّص باللغة العربية	هـ
الملخّص باللغة الإنجليزية	و
المقدمة	ز
الفصل الأول: السّيرة	
1.1 نسبه ومولده ووفاته	1
2.1 عصره وبيئته	5
3.1 أعماله ومناصبه	10
4.1 مصنّفاته	21
الفصل الثاني: أدب العماد في مواجهة الغزو الصليبي	
1.2 التمهيد	31
2.2 الدعوة إلى الوحدة الإسلامية والحث على الجهاد	33
3.2 تصوير المعارك والحروب	44
4.2 الجيش الإسلامي	62
5.2 التهاني والبشائر	80
الفصل الثالث: صورة البطل المسلم	
1.3 البطولة وعناصرها	93
2.3 دور البطل في الصراع	105
3.3 الموازنة بين أبطال الجهاد والمتقاعسين عنه	114
4.3 رثاء البطل	121

الفصل الرابع: صورة الصليبيين

1.4 الخطر الصليبي 131

2.4 الجيش الصليبي 140

3.4 تصوير هزائم الصليبيين 151

4.4 الصراع الحضاري 160

الفصل الخامس: الدراسة الفنية

1.5 الشعر

1.1.5 البناء الفني 176

2.1.5 اللغة والأسلوب 181

3.1.5 الصنعة الفنية والبديع 189

4.1.5 التناص 193

5.1.5 الصورة الشعرية 197

2.5 النثر

1.2.5 البناء الفني 203

2.2.5 اللغة والأسلوب 209

3.2.5 الصنعة الفنية والبديع 216

4.2.5 التناص 221

5.2.5 الصورة الأدبية 226

الخاتمة 234

المراجع 237

الملخّص

أدب الحرب عند العماد الأصفهاني

عاهد طه عيال سلمان

جامعة مؤتة2011م

تهدف هذه الدراسة إلى استجلاء الحياة الأدبية والاجتماعية والسياسية لأدب الحرب عند العماد الأصفهاني، والوقوف على دوره في البناء الفكري والحضاري لمعالم هذا العصر، الذي كثرت فيه الحروب والمعارك لدحر الصليبيين من البلاد الإسلامية.

وتنقسم هذه الدراسة إلى خمسة فصول، تناولت في الفصل الأول الحديث عن سيرة العماد الأصفهاني، منذ ولادته سنة(519هـ) وحتى وفاته سنة(597هـ)، وتوقفت عند اسمه ونسبه وكنيته، وتحدثت عن عصره وبيئته، وعن أعماله ومناصبه، وعن مصنفاته.

وفي الفصل الثاني تناولت أدب العماد والدور الذي اضطلع به في مواجهة الغزو الصليبي، من خلال دعوته إلى الوحدة الإسلامية والحث على الجهاد، وتصويره للمعارك والحروب، والإشادة ببطولات الجيش الإسلامي، والتهاني والبشائر في الانتصارات.

وفي الفصل الثالث، تناولت صورة البطل المسلم، وتحدثت عن البطولة وعناصرها، ودور البطل في الصراع، والموازنة بين أبطال الجهاد والمتقاعسين عنه، ورثاء البطل.

وفي الفصل الرابع، تناولت صورة الصليبيين، وتحدثت عن الخطر الصليبي الذي يتهدد الأمة الإسلامية، وعن الجيش الصليبي، وتصوير هزائم الصليبيين، والصراع الحضاري.

وفي الفصل الخامس، درست أدب الحرب عند العماد دراسة فنية، تناولت فيها البناء، واللغة والأسلوب، والصنعة الفنية، والتناص، والصورة، ثم أنهيت الدراسة بخاتمة تضمنت خلاصة ما توصلت إليه.

Abstract

Al-I'mad Al-Asfahani's Literature of War

'Ahed Taha Iyal-Salman

Mu'tah University 2011

This study aims at revealing the literary, social and political manifestations of Al- I'mad Al-Asfahani's literature of war and discussing his role in building the intellectual and cultural aspects of a period largely marked by holy wars against the Crusaders.

The study consists of five chapters. The first chapter talks about the life of Al-I'mad Al-Asfahani starting from his birth in (519H.) to his death in (597H.). The chapter specifically tackles his family and features of his era. It also touches upon his literary environment as well as his achievements and positions.

The second chapter depicts the literature of Al-I'mad Al-Asfahani and his role in encountering the Crusade's invasion through calls for Islamic unity and fighting the invaders. The chapter discusses descriptions of battles against the Crusaders and praises the heroic deeds of the Islamic army. It also studies poems that congratulate victorious leaders in such battles.

The third chapter deals with the image of the Muslim hero and heroism. It describes the role of the Muslim hero in the conflicts through having parallel descriptions between courageous people who fight in battles and those who don't. The chapter includes some heroic elegies.

In the fourth chapter, the image of the Crusaders is further studied. The chapter investigates the Crusade's threat and the Crusade's army. It describes their defeat in several battles and reflects the cultural conflict embodied in these battles.

The fifth chapter is dedicated to a literary study of A-I'mad's literature. The study explores the structure, language, style and contextuality of his poems. The study is ended by a conclusion of results.

المقدمة

تركت الحروب الصليبية آثاراً ظاهرة في أدب القرن السادس الهجري، ظهرت جلية في ما أنتجه أدباء تلك الفترة، التي شهدت تحولات كبيرة على الساحة السياسية، إذ استمر المدّ الصليبي في زحفه على المشرق الإسلامي، واستمرت معه حالة الضعف والتفكك التي كانت تسيطر على البلاد الإسلامية.

وكانت ردة الفعل أن ظهرت قيادات صالحة، أخذت على عاتقها توحيد جهود الأمة، وتسخير طاقاتها ولمِّ شملها، من أجل هدف واحد، مواجهة الغزاة ودحرهم عن البلاد الإسلامية.

ونتيجة لكثرة الحروب والمعارك التي خاضها المسلمون مع أعدائهم، ظهر لون من الأدب يختص بتغطية أحداث الصراع القائم، ويدعو إلى الجهاد وتحرير الأرض والمقدسات، ويحثّ على الوحدة بين الأقطار الإسلامية، ويصور الخطر الصليبي الذي يتهدد الأمة، ويمجد الأبطال ويتغنى بانتصاراتهم.

وكان العماد من بين أدباء ذلك العصر الذين شهدوا أحداث الصراع، وأثرت الحرب الدائرة في أدبهم، فراح يصور المعارك بين الطرفين، ويخوض في تفاصيلها الدقيقة، من وصف للجيوش وأسلحتها وخططها العسكرية، وقد ساعده في ذلك عمله في ديوان الإنشاء، وملازمته لبطلين من أبطالها، نور الدين زنكي وصلاح الدين الأيوبي.

ويعود الفضل في اختياري لهذا الموضوع، إلى أستاذي الدكتور سمير الدروبي، الذي وجّهني إلى دراسة أدب هذا العصر، وتسليط الضوء على حقبة من تاريخ أمتنا المجيدة، فقد شهد هذا العصر صحوة إسلامية، كان لها الأثر الأكبر في تحرير البلاد والعباد، من خطر كان يجثم فوق كاهلها، ودحره إلى الأبد.

وعند الاطلاع على ما كتب بهذا الصدد، وجدت دراسات سابقة تطرقت إلى هذا الموضوع، لكن دون التعمق في أدب الحرب بوصفه ظاهرة عند العماد الأصفهاني، ومن هذه الدراسات، دراسة بعنوان" صورة فن الحرب في أدب الدولتين الزنكيّة والأيوبية في مصر والشام" ، قدمها الباحث نزار وصفي اللبدي، إلى الجامعة الأردنية سنة 1992م، لنيل درجة الدكتوراه، والدراسة الثانية بعنوان" العماد الأصفهاني

الأديب"، قدمها الباحث عبد الرحيم بخيت الشهاب، إلى الجامعة الأردنية سنة 1995م، لنيل درجة الدكتوراه.

وقد انتظمت دراستي في خمسة فصول، تناولت في الفصل الأول الحديث عن سيرة العماد الأصفهاني، وتوقفت عند اسمه ونسبه، وعصره وبيئته، وأعماله ومناصبه، وما تركه من مصنفات.

وتناولت في الفصل الثاني أدب العماد ودوره في مواجهة الغزو الصليبي، من خلال الدعوة إلى الوحدة الإسلامية والحث على الجهاد، وتصوير الحروب والمعارك، وتمجيد الجيش الإسلامي، والتهاني والبشائر.

أما الفصل الثالث، فقد تناولت فيه الحديث عن صورة البطل المسلم، وما يتميز به من صفات وفضائل أهَّلته للبطولة، وعن دوره في الصراع وقيادة الأمة، والموازنة بين أبطال الجهاد والمتقاعسين عنه، ورثاء البطل.

وفي الفصل الرابع، تناولت صورة الصليبيين، وتحدثت عن الخطر الصليبي الذي يتهدد الأمة، وعن الجيش الصليبي ومكوناته، وتصوير هزائم الصليبيين، والصراع الحضاري.

أما الفصل الخامس، فقد خصصته لدراسة أدب الحرب عند العماد الأصفهاني، دراسة فنية تناولت فيها البناء، واللغة والأسلوب، والصنعة الفنية، والتناص، والصورة، ثم أنهيت الدراسة بخاتمة تضمنت خلاصة ما توصلت إليه، وتقييماً للدور الذي نهض به أدب الحرب عند العماد الأصفهاني، في تصويره للصراع الإسلامي ـــ الصليبي.

الفصل الأول
السِّيرة

1.1 نسبه ومولده ووفاته

هو أبو عبد الله[1]عماد الدين محمد بن صفي الدين أبي الفرج محمد بن نفيس الدين أبي الرجاء حامد بن محمد بن عبد الله بن علي بن محمود بن هبة الله ابن أله[2].

---

(1) اشتهر بهذه الكنية عند معظم من ترجم له، لكن ابن ظافر الأزدي كناه في مواضع من كتابه "بدائع البدائه " بأبي حامد، انظر: ابن ظافر الأزدي (ت613هـ)، 1970م، بدائع البدائه، تحقيق أبو الفضل إبراهيم، مكتبة الأنجلو المصرية ــ القاهرة، ص100 ــ 115، وذكر هذه الكنية أيضا أبو شامة المقدسي (ت665هـ)،1997م، الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، تحقيق إبراهيم الزيبق، مؤسسة الرسالة ــ بيروت، ط1، جـ2، ص 16.

(2) أله: وهو اسم أعجمي، معناه بالعربية العقاب، وهو الطائر المعروف، وقد اختُلف في ضبطه، فاقتصر سبط ابن الجوزي على ضبط لامه بالتشديد، ولم يتعرض للهمزة والهاء، سبط ابن الجوزي، يوسف بن قزاوغلي (ت 654 هـ)، 1951م، مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر أباد الدكن ــ الهند، ط1،ج 8، ص504، وضبطه ابن خلكان أَلُهْ ، بفتح الهمزة، وضم الهاء وسكون الهاء،ابن خلكان، أحمد بن محمد(ت 681 هـ)، 1977م، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، دار صادر ــ بيروت ، مج 5، ص 147، ووافقه في هذا الضبط النعيمي، النعيمي، عبد القادر بن محمد (ت978هـ) 1990م، الدارس في تاريخ المدارس، أعد فهارسه إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية ــ بيروت، ط1،ج1، ص310 ـ311، وقال السبكي، هو بضم الهمزة واللام، وسكت عن الهاء، السبكي، عبد الوهاب بن علي (ت 771هـ) 1968م، طبقات الشافعية الكبرى، تحقيق عبد الفتاح الحلو ومحمود الطناحي ، دار إحياء الكتب العربية ـ القاهرة ،ج6، ص178ـــ183، وضبطه من المحدثين محمد بهجة الأثري: بفتح الهمزة وضم اللام وسكون الهاء، 1955م، مقدمة الخريدة للعماد الأصفهاني، قسم العراق ، بتحقيق محمد بهجة الأثري وجميل سعيد، مطبوعات المجمع العلمي العراقي، ج1، ص9، ويبدو أن الأثري اعتمد في ذلك على كتاب فارسي "تبيان نافع ترجمه برهان قاطع "، وعلى نطق الفرس به اليوم، كما ذكر ابن خلكان والنعيمي، وهذا ما نأخذ به لسهولة ضبطه ولما أورد الأثري من نطق الفرس له .

والمشهور بالعماد الأصفهاني الكاتب[1]، والمعروف بابن أخي العزيز[2] .

---

[1] هذه أشمل ترجمة وردت للعماد في كتب التراجم، وقد ذكرت كتب أخرى ترجمة للعماد مع اختلاف في ترتيب الاسم، وإسقاط بعض الأسماء وحذفها، أو اختصار بعضها واستبدال بعضها الآخر، انظر ترجمته في: الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك، (ت764هـ)، 1931م، الوافي بالوفيات، باعتناء : هـ. ريتر، مطبعة الدولة لجمعية المستشرقين الألمانية ــ استانبول، ج1، ص132. الحموي، ياقوت، (ت826هـ)، 1993م، معجم الأدباء، تحقيق إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي ـ بيروت، ط1،ج6، ص2623. ابن العماد الحنبلي، عبد الحي بن أحمد، (ت1089هـ)، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، دار إحياء التراث العربي ـ بيروت، ج3، ص332. السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن(ت911هـ)، 1967م، حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، تحقيق أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية ـ القاهرة، ط1،ج1، ص564 . الذهبي، محمد بن أحمد، (ت748هـ)، 1996م، سير أعلام النبلاء، تحقيق بشار عوّاد معروف ومحيي هلال السرحان، مؤسسة الرسالة ـ بيروت، ط11، ج21، ص345. ابن كثير، عماد الدين أبو الفداء، (ت774هـ)، البداية والنهاية، تحقيق أحمد أبو ملحم ورفاقه، دار الكتب العلمية ــ بيروت، ط3،ج13، ص30. بروكلمان، كارل، ط2، تاريخ الأدب العربي، دار المعارف ـ الاسكندرية، ج6، ص5.

[2] هو أبو نصر أحمد بن حامد بن عبد الله الأصفهاني المعروف بالعزيز، وهو عمّ العماد ، هو شاعر فصيح ، ولي المناصب العالية في الدولة السلجوقية ، وكان ابن أخيه ـ العماد الكاتب ــ يفتخر به كثيراً، وقد ذكره في أكثر تآليفه، ولد بأصفهان سنة (472هـ)، وكان مقتله بقلعة تكريت سنة (525 هـ)، بسعاية من الوزير أبي القاسم ناصر بن علي الدركزيني، انظر: العماد الأصفهاني ،1900م، زبدة النصرة ونخبة العصرة " تاريخ دولة آل سلجوق " اختصار الفتح بن علي البنداري، مطبعة الموسوعات بشارع باب الحلق ــ مصر، ص148-162 ، وانظر: ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، 188/1 ، وانظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء، 345/21 .

وقد نسبه مترجموه إلى أصبهان[1] وتوقفوا عند هذا الحد، إلا أن ابن الفوطي تفرد بنسبته إلى قريش [2]، ونجده يتحدث عن نسبه في جواب ردّ به على رسالة وردت إليه من القاضي الفاضل[3]، يبشره فيها بولد من جارية حامل خلفها بمصر، فقال: " والآن فهو مصري الولد وإن كان عراقي المولد، مضريّ العرق، وإن كان فارسي المحتد"[4] ويبدو من ذلك أن العماد الأصفهاني عربي الأصل، وإن كانت أصوله قد نمت في بلاد فارس، علما بأن نسبة كثير من العلماء في الزمن القديم كانت إلى المدن التي ولدوا بها .

ولد العماد بأصفهان يوم الإثنين، ثاني جمادى الآخرة، سنة تسع عشرة وخمسمائة هجرية[5] ، ونشأ في بيت عرف بالرئاسة والفضل والكتابة، وكان اتصال هذا البيت بالدولة السلجوقية وثيقاً، وقد كان جده أبو الرجاء حامد بن محمد مهتماً بالشعر

---

[1] كتبها صاحب معجم البلدان بالباء وليس بالفاء، أَصبَهان : وهي مدينة عظيمة مشهورة من أعلام المدن وأعيانها، وهي اسم للإقليم بأسره، وكانت مدينتها أولا جيّا ثم صارت اليهودية ، وهي من نواحي الجبل ، في آخر الإقليم الرابع ، وبها نهر عظيم، انظر: الحموي ، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت ، (ت862 هـ)، 1977م، معجم البلدان ، دار صادر ــ بيروت ، ج1 ، ص 206 .

[2] نسبه ابن الفوطي إلى قريش، فقال: " عماد الدين أبو عبد الله محمد بن محمد بن حامد بن أله القرشي الأصبهاني، نزيل الشام، الكاتب المنشيء " انظر: ابن الفوطي ، عبد الرزاق أحمد ، (ت723هـ) ، تلخيص معجم الآداب في معجم الألقاب ، تحقيق مصطفى جواد ، دار المكتبة الوطنية الظاهرية ــ دمشق، ط2،ج4، ص845.

[3] أبو علي عبد الرحيم القاضي الأشرف علي بن الحسن بن الحسن بن أحمد البيساني، (ت596هــ) كاتب مشهور، وله مراسلات مع العماد الأصفهاني، انظر: العماد الأصفهاني،1951م، خريدة القصر وجريدة العصر، قسم شعراء مصر، تحقيق أحمد أمين وشوقي ضيف وإحسان عباس، لجنة التأليف والترجمة والنشر ــ القاهرة، ج1، ص35.

[4] العماد الأصفهاني، محمد بن محمد، 1987م، البرق الشامي، تحقيق مصطفى الحياري، مؤسسة عبد الحميد شومان، ط1،ج3، ص142.

[5] انظر:الحموي ، ياقوت ، معجم الأدباء، 2623/6 ، السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، 179/6.

العربي، ويحفظ شعر البحتري ودواوين العرب، وتسنى له أن يقرض الشعر[1]، أما عمه أبو طالب الملقب ببهاء الدين، فقد وزر لآقسنقر الأحمديلي الذي كان في خدمة السلطان مسعود صاحب خراسان[2]، ثم رتبه السلطان مسعود في منصب الاستيفاء[3].

وكان عمّه أحمد الملقب بالعزيز وبالمستوفي، قد اختصه السلطان محمود ابن محمد بن ملكشاه السلجوقي، بالوزارة والاستيفاء[4]، فدبر قوانين الدولة وأحسن تدبيرها، وسار سيرة حسنة، حتى نال ثقة السلطان، وأحبه الناس وامتدحه الشعراء، وكان شاعراً فصيحاً [5]، يتذوق الشعر ويجزل لمادحيه العطاء[6]، وقد تركت هذه المكانة التي حظي بها العزيز أثراً كبيراً في نفسية العماد وتوجيهه، خاصةً فيما كان يتلقاه من حفاوة عند عارفي فضل عمّه .

أما والد العماد، صفي الدين محمد، فقد كان متصلاً بالسلاطين والوزراء، وقد مكّنه من ذلك ما لأخيه العزيز من حظوة عندهم، لكن نكبة أخيه جعلته يبتعد عن الإدارة والسياسة، وعندما عُرضت عليه الوزارة ، أَبَى أن يتولاها؛ لأنه قد حلف ألّا يخدم بعد العزيز سلطاناً، ولا يتولى ديواناً، فبرّ بيمينه مُدَّة عمره[7]، وينطبق هذا على

---

(1) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، 505/8.

(2) البنداري، تاريخ آل سلجوق، ص105.

(3) الاستيفاء: وظيفة يقال لصاحبها المستوفي، وهو كاتب يكون صاحب مجلس في الديوان، يطالب المستخدمين بما يجب عليه رفعه من الحساب في أوقاته، وينبه متولي الديوان على ما يجب استخراجه من المال، انظر: ابن مماتي، الأسعد (ت606هـ)، 1991م، قوانين الدواوين، تحقيق عزيز عطية، مكتبة مدبولي – القاهرة، ط1،ص301، وانظر: القلقشندي، أحمد ابن علي(ت821هـ)، 1913م، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، مطبعة دار الكتب المصرية، ج5، ص466.

(4) البنداري، تاريخ آل سلجوق، ص 118.

(5) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان،8 / 141.

(6) ذكر العماد عدد من شعراء العراق، ممن مدحوا عمه العزيز، انظر الخريدة، قسم شعراء العراق، 276/1 ، 55/2 – 66 ، 4/ 235،242.

(7) البنداري، تاريخ آل سلجوق ، ص 165 .

عمه محمود، الملقب بضياء الدين، فقد ناله ما ناله من الظلم والاضطهاد، أسوة بإخوته .

وكانت أم العماد بنت أمين الدين علي المستوفي، من رجال الدولة السلجوقية، كتب لشرف الملك أبي سعد محمد بن منصور الخوارزمي، ثم صار كاتباً لخزانة السلطان محمد بن ملكشاه السلجوقي، وقد أدركه العماد ــ عندما كان صغيراً ــ وكان يغرس في نفسه حب معالي الأمور، ويُنْشِئهُ على ما ينبغي لمثله من الكمال [1].

أما إخوته فهُم، عثمان وأبو بكر، وقد تمتع الأخير بمنصبٍ عالٍ، عندما بُعث من دار الخلافة سنة 583هـ، إلى صلاح الدين في الشام، حيث كان أخوه العماد كاتب السلطان[2]، وكانت وفاة العماد يوم الإثنين، مستهل شهر رمضان المعظم، سنة سبع وتسعين وخمسمائة بدمشق، ودُفن في مقابر الصوفية خارج باب النصر[3].

2.1 عصره وبيئته

في مطلع القرن السادس الهجري، كان الصليبيون قد تمكنوا من بسط نفوذهم وسيطرتهم على أجزاء واسعة من بلاد الشام، مستغلين حالة الضعف السياسي التي كان العالم الإسلامي يعيشها آنذاك، إذ كان الصراع السياسي يتمثل في خلافتين متصارعتين: الخلافة العباسية في بغداد، والخلافة الفاطمية في مصر .

أما الخلافة العباسية، فكانت في ذلك الوقت مجرد صورة شكلية دون أن يكون للخليفة العباسي أي ظل من السلطان والنفوذ[4]؛ لأن بلاد فارس وخراسان والعراق

---

(1) البنداري، تاريخ آل سلجوق، ص31 .

(2) العماد الأصفهاني، محمد بن محمد، 1965م، الفتح القسي في الفتح القدسي، تحقيق محمد محمود صبح، الدار القومية للطباعة والنشر ــ القاهرة، ص184.

(3) انظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان،5 /152، ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، 3/ 333. ابن الأثير، علي بن محمد الجزري (ت 630 هـ) ، الكامل في التاريخ، راجعه محمد يوسف الدقاق، دار الكتب العلمية ــ بيروت، ط2، مج 10، ص 276.

(4) عاشور، سعيد عبد الفتاح، 1978م، الحركة الصليبية، مكتبة الأنجلو المصرية ــ القاهرة، ط3، ج1، ص 534 .

كانت تحت حكم السلاجقة الأتراك، المتناحرين على النفوذ والسلطان، ولم تتمكن الخلافة الإسلامية في بغداد من القيام بدورها في الدفاع عن البلاد التي تقع تحت نفوذها، لكنها استفادت من سلطتها المعنوية في الحث على الجهاد، والاستعانة بالسلاجقة في مواجهة الخطر الذي يهدد أركانها .

وفي مصر، لم تكن الخلافة الفاطمية أحسن حالاً من الخلافة العباسية في بغداد، إذ كان الخلفاء الفاطميون يخوضون صراعاً مع الوزراء المستبدين، ما لبث هذا الصراع أن اشتد بين الوزراء أنفسهم، طمعاً في السلطة، وكحال الخلفاء العباسيين، لم يكن للخلفاء الفاطميين من أمر الخلافة إلاّ اسمها .

وقد استغل الصليبيون هذا الانقسام، وهذا الصراع الذي وصل حد التناحر، وراحوا يؤسسون لهم الإمارات، فاحتلوا المدن الإسلامية، الواحدة تلو الأخرى، واتخذوها قواعد للتوسع في بلاد الشام، إلى أن قيّض الله لهذه الأمة أبطالاً شجعاناً، ذبّوا عن حماها، ودافعوا عن حياضها، مثل نور الدين زنكي وصلاح الدين الأيوبي، ويتمثل ذلك في محاولتهم لتوحيد جهود المسلمين، ورصِّ صفوفهم، لمواجهة هذا الخطر الزاحف عليهم، المتمثل بالخطر الصليبي[1] .

وبما أن الحياة السياسية في هذا العص، قد عاشت جوّاً مكفهراً من الاضطراب والتوتر، نتيجة لكثرة الحروب والفتن والنزاعات، فقد ظهر ذلك بشكل جلي على تركيبة المجتمع، وتعرضت هذه التركيبة للتغير، فتشكل خليط من حياة الأجناس البشرية، لكل جنسٍ منها اتجاهاته ومذاهبه وعاداته وتقاليده، يربط بين هذه الأجناس هدف واحدٌ، هو الجهاد ضد الغزاة الصليبيين، ولا أدلَّ على ذلك، من كون القائد المجاهد صلاح الدين الأيوبي كردي الأصل، والقائد المجاهد نور الدين زنكي تركماني الأصل[2].

وفيما يختص بالحياة الفكرية والثقافية في العصر، فقد عُرف بتشجيع العلماء وتكريمهم، وكثرة المدارس ودور العلم، فضلاً عن المكتبات العامة والخاصة، وحب

---

(1) انظر :الرقب، شفيق محمد،1993م، الشعر العربي في بلاد الشام في القرن السادس الهجري، دار صفاء للطباعة والنشر والتوزيع ــ عمان، ص10ــ 22.

(2) انظر: بدوي، أحمد أحمد، 1979م، الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، الفجالة ــ القاهرة، ط2 ،ص 20 ــ 22.

الحكام للعلم وإقبالهم عليه، فعُقدت المجالس الأدبية والعلمية، وشاعت الرحلات في طلب العلم، وزادت حركة التأليف بشكل ملحوظ في مختلف العلوم والمعارف، ولعل الصراع الحضاري بين الإسلام وحضارة الغرب المسيحي، من أقوى الدوافع وأهمها في ازدهار العلوم وتطور الصناعات، ونشاط الحركة التجارية، ناهيك عن الأحداث الجسام التي مرَّ بها ذلك العصر، والدور الذي لعبه القادة العظام ، مما شكل مادة خصبة للأعمال الأدبية[1] .

في هذا العصر الذي كان يضطرب بالأحداث عاش العماد الأصفهاني، ففي أصفهان كانت نشأته الأولى، حيث أمضى فيها فترة الطفولة المبكرة، وبدأ بتلقي دروسه التعليمية، وأخذ يدرس القرآن الكريم، والحديث الشريف، وفي عام 532هـ، ذهب العماد مع أبيه وأخيه الصغير أبي بكر إلى قاشان[2]، وسلمهما أبوهما إلى صديق له، وسار هو مع السلطان داود، ويصف ذلك فيقول :" وأقمنا بها سنة نتردد إلى المكتب، ونشتغل بالقرآن والكتب الأدبية "[3].

وبعد هذه السنة التي أمضاها في قاشان للعلم والمعرفة، عاد يرافقه أخوه أبو بكر إلى أصفهان، وبدأ بتعلم العربية على ابن الأخوة الشّيباني البغدادي[4]، نزيل أصفهان.

ونتيجة لاضطراب الأحوال في أصفهان وكثرة تقلباتها، فقد قرّر والد العماد الرحيل، وقد وصف العماد جانباً من هذه الاضطرابات، يقول :" وأنا أذكر في صغري هذا الحادث الكبير[5] وحديثه، وتأثيره في القلوب وتأريثه ، وكان ذلك بعقب سنوات

---

(1) انظر: سلّام، محمد زغلول،1967م، الأدب في العصر الأيوبي، دار المعارف ــ القاهرة، ص75ــ91.

(2) قاشان : مدينة قرب أصفهان تذكر مع قُم، ياقوت الحموي ، معجم البلدان ،4/ 296.

(3) البنداري، تاريخ آل سلجوق، ص166.

(4) أبو الفضل عبد الرحيم بن أحمد بن محمد بن محمد بن إبراهيم بن الأخوة الشيباني، انظر: العماد الأصفهاني، خريدة القصر، قسم العراق، 3/ 138.

(5) يشير إلى مقتل الخليفة العباسي الراشد بالله (529 ــ 532)، على يد قوم من فدائية الباطنية، سنة 532هـ، انظر: البنداري ، تاريخ آل سلجوق، ص164.

أسنات، وشتوات شتات، ومجاعات للجماعات مغرقة، ونوائب نوابى للنوائب مُحَرِّقة، وهلك الناس جوعاً، وخرج من أهل أصفهان من لم ينوِ إليها رجوعاً"[1].

وطلباً للأمن والسلامة، فقد حطّ والد العماد الرحال في بغداد، وقد وصف العماد هذا الرحيل بقوله :" ولما نقلني والدي من أصفهان إلى بغداد، حين نبا بعد النكبة بنا الوطن، وضاق العطن، ولم نجد الأمن والسلامة واليمن إلا في ظل الدار العزيزة المقتفوية[2]، فسكنا مدينة السلام، واتخذناها دار المقام، وذلك في سنة أربع وثلاثين وخمسمائة، وقد بلغت سني خمس عشرة سنة "[3].

وفي بغداد، بدأ العماد طريقه في تحصيل العلم والأدب، فالتحق بالمدرسة الثقتية[4]، وظل يتردد إليها ثلاث سنوات، انتقل بعدها إلى المدرسة النظامية[5]، التي كانت مركز العلوم القرآنية وتفسيرها، والأحاديث النبوية وروايتها، والأدب وفروعه .

وخلال إقامته في بغداد، تعلّم على أكابر الشيوخ أغلب أنواع العلوم والمعارف والفنون؛ فدرس القرآن وتفسيره، والفقه وأصوله، والحديث وصِحاحه، وأتقن فنون الأدب المختلفة، وبرع في الإنشاء ونظم الشعر، وسمع من العلماء وأجازوا له، ومن شيوخه في بغداد: الشيخ أبو منصور سعيد بن محمد بن الرزاز[6]، وابن الحسن علي بن هبة

---

[1] البنداري، تاريخ آل سلجوق، ص165.

[2] نسبة إلى الخليفة العباسي المقتفي لأمر الله (530 ـ 555هـ)، انظر: الخريدة، قسم العراق،134/1 .

[3] العماد الأصفهاني، خريدة القصر، قسم العراق، 2/ 53 ــ 54 .

[4] نسبة إلى ثقة الدولة، المعروف بابن الإبري، بناها للشافعية في بغداد على الشط تحت دار الخلافة، انظر: الخريدة، قسم العراق ،134/1.

[5] نسبة إلى منشئها الوزير نظام الملك، وزير السلطان ملكشاه السلجوقي (457هـ)، انظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان،128/2 .

[6] أبو منصور سعيد بن محمد بن منصور المعروف بابن الرزاز (539 هـ)، وكان شيخ الشافعية في بغداد، وولي التدريس في النظامية، انظر: السبكي، طبقات الشافعية، 340/1 ، 179/6 ، الخريدة ــ قسم العراق،24/1، ابن الأثير، الكامل، 334/9.

الله بن عبد السلام[1]، وأبــو منصور محمد بن عبد الملك بن خيرون[2]، وأبــو المكارم المبارك بن علي السمذي[3]، وأبــو بكر أحمد بن علي الأشقر[4]، وأبــو عبد الله الفراوي[5]، وابن الخشّاب[6].

وكان العماد طالباً نشيطاً، مكباً على العلم، متنقلاً بين حلقات المناظرات ومجالس الوعظ، ولم يكتف بما حصله من هذه العلوم بل مال إلى الرياضيات واشتغل بحل إقليدس، كما يذكر في الخريدة [7].

وفي عام 542هـ، توجه العماد إلى مدينة الموصل، وفيها وزيره جمال الدين محمد بن علي بن أبي منصور[8]، ووصف العماد مجلس الوزير ومدحه بقصيدة، ذكر إنها من بدايات نظمه في الشعر[9]، يقول:

---

[1] أبو الحسن علي بن هبة الله بن عبد السلام، الكاتب البغدادي(539هـ)، انظر: ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، 122/4، السبكي، طبقات الشافعية، 6/ 179.

[2] أبو منصور محمد بن عبد الملك بن الحسن بن خيرون، المحدّث، (539هـ)، انظر: ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، 125/4، ابن الأثير، الكامل،334/9.

[3] أبو المكارم المبارك بن علي بن عبد العزيز السمذيّ البغدادي(540هـ)، انظر: ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي، (ت597هـ)، 1992م، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، دراسة وتحقيق محمد عبد القادر عطا ومصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية ــ بيروت، ط1،ج18، ص47، الذهبي، سير أعلام النبلاء، 345/21.

[4] أبو بكر أحمد بن علي عبد الواحد الدلال، كان صحيح السماع(542هـ)، انظر: ابن الجوزي، المنتظم،57/18 ، ابن خلكان، وفيات الأعيان، 147/5.

[5] أبو عبد الله محمود بن أبي مسعود بن أبي العباس النيسابوري الفراوي (530هـ)، كان فقيهاً مناظراً محدثاً، انظر: ابن الجوزي، المنتظم، 318/17، ابن الأثير، الكامل، 295/9.

[6] أبو محمد عبد الله بن أحمد بن أحمد الخشّاب بن عبد الله، النحوي البغدادي (568هـ)، انظر: ابن الأثير، الكامل، 38/10، سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، 504/8، الخريدة، قسم العراق، 7/3 ـ 18.

[7] الخريدة، قسم العراق، 161/1 .

[8] أبو جعفر محمد بن علي بن أبي منصور الملقب جمال الدين (559هـ)، وزير صاحب الموصل زنكي بن آقسنقر، انظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان، 5/ 143 ــ 147.

[9] البنداري، تاريخ آل سلجوق، ص 193-194 .

أظنُّهم وقـد عَزَمُــوا ارتحـــالاً   ثَنوا عَنّا جَمـالاً لا جِمـــالا
سَرَوا والصُّبح مُبْيَضُّ الحواشي   فلما حالَ عَهْدُ الوَصل حالا
أَخِلّائي وهل فـــي النَّاس خِـلٌّ   به أُخْلي من الأحزان بـــالا[1]

وفي هذه الزيارة، اتصل ببعض الفقهاء وأخذ عنهم[2]، ثم عاد بعد ذلك إلى بغداد .

وبعد أن أمضى قرابة تسع سنين في بغداد، عاد العماد إلى أصفهان وقد حصَّل من العلم والمعرفة قسطاً كبيراً، وكان ذلك في سنة 543هـ[3]، وتفقه فيها على أبي المعالي الوركاني[4]، ومحمد بن عبد اللطيف الخجندي[5]، الذي رافقه في رحلة لأداء فريضة الحج سنة 549هـ[6]، مروراً بهمذان، وبعد أدائه فريضة الحج مع شيخه الخجندي، يعود إلى أصفهان ماراً ببغداد، وبعَسكر مُكرَم[7]، وبعد ذلك ارتحل إلى بغداد يرافقه والده[8].

3.1 أعماله ومناصبه

اشتغل العماد بالكتابة[9]، بعد عودته إلى بغداد، وبدأ يتقرب إلى الخليفة المقتفي لأمر الله، فمدحه بقصيدة في سنة552هـ، أولها:

---

(1) العماد الأصفهاني، محمد بن محمد، 1983م، الديوان، جمع وتحقيق ناظم رشيد، كلية الآداب ــ جامعة الموصل، ص332.

(2) البنداري، تاريخ آل سلجوق، ص193 .

(3) البنداري، المرجع نفسه، ص201 .

(4) أبو المعالي الحسن بن محمد الحسن بن أحمد الوركاني (559هـ) كان إماماً فاضلاً مناظراً عارفاً بالأدب، انظر: ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، 187/4.

(5) أبو بكر محمد بن عبد اللطيف بن ثابت الخجندي المهلبي (552هـ)، كان مدرس النظامية في أصفهان، انظر: ابن الجوزي، المنتظم، 122/18 .

(6) البنداري، تاريخ آل سلجوق، ص222 .

(7) عسكر مكرم: بضم الميم، وسكون الكاف، وفتح الراء، بلد مشهور من نواحي خوزستان منسوب إلى مكرم بن معزاء الحارث، ياقوت الحموي، معجم البلدان 123/4.

(8) البنداري، تاريخ آل سلجوق، ص224 .

(9) السبكي، طبقات الشافعية، 6/ 179.

أضحَتْ ثغورُ النّصر تبسمُ بالظَّفَر   وغدتْ خيولُ النَّصر واضحةَ الغُرزْ[1]

وخلال إقامته في بغداد، اتصل العماد بالوزير عون الدين يحيى بن هبيرة[2]، وزير الخليفة العباسي المقتفي، فولاّه نيابة البصرة ثم واسط، ويذكر العماد ذلك فيقول: "واستخدمني الوزير عون الدين تلك السنة في النيابة عنه بواسط، فنقلني من المدرسة إلى العمل، وعطلني عن الاشتغال بالعلم وظنّ أنه حلاني بشغله عن العطل"[3].

وفي سنة 554هـ، زار الخليفة المقتفي واسطاً، وكان العماد فيها نائباً عن ابن هبيرة، وفي هذه الزيارة قدّم ابن هبيرة العماد للخليفة وقال فيه:"هذا صاحبي وقد وصّيته، وأصحبته وأوليته، وبهج بخدمتي ونجح، وبذخ بنيابتي ورجح، فوصّى الإمام وزيره بي، وأعجبه سمتي وأسلوبي"[4].

بعد واسط، ناب العماد عن ابن هبيرة في البصرة، ولم يلهه المنصب وتبعاته عن لقاء الشيوخ والشعراء، فجمع مادة كتبه من خلال اتصاله بشعراء واسط والبصرة وبغداد، واستمر في خدمة ابن هبيرة حتى سنة 560هـ، وهي سنة وفاة ابن هبيرة، فيقول في ذلك:" وذلك أن الوزير عون الدين يحيى بن محمد بن هبيرة، مال لفضله إلى فضلي، واقتطعني إليه وولّاني نيابته بالبصرة تارات وبواسط كرات، وعُرفت به، فلما توفي سنة ستين أقمت بغداد بعده"[5].

ولما توفي الوزير عون الدين بن هبيرة، قام الخليفة المستنجد (555–566هـ) باعتقال أبناء الوزير وأعوانه ـ ومن ضمنهم العماد ـ وإيداعهم السجن، وتحول نعيمه

---

(1) العماد الأصفهاني، الديوان، ص151.

(2) الوزير يحيى بن محمد بن هبيرة بن سعيد أبو المظفر(560هـ)، وزّر للمقتفي، وكان عالماً ذا رأي سديد، انظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان، 330/6.

(3) البنداري، تاريخ آل سلجوق، ص233.

(4) البنداري، المرجع نفسه، ص266.

(5) البنداري، الفتح بن علي (623هـ)، 1979م، سنا البرق الشامي، تحقيق فتحية النبراوي، مكتبة الخانجي، ص18.

إلى بؤسٍ وشقاء، ويصف العماد هذه الحادثة فيقول:" ولما توفي الوزير ابن هبيرة اعتُقلت في الديوان ببغداد، بسبب منابتي عنه واسط والبصرة "[1].

ومن سجنه أخذ يبعث القصائد مادحاً مستعطفاً، فأرسل إلى الخليفة المستنجد قصيدة يمدحه ويستعطفه بها، ومنها:

أُعيذُكم أن تغفلوا عَن أُموره   وأن تَتركوهُ نُهبةً لِمُغيرِهِ [2]

لكن الخليفة لم يستمع إلى رجائه واستعطافه، فأتبعها العماد بقصيدة ثانية يلتمس فيها العفو، ومنها:

يا أفضلَ الخُلفاءِ دعوةَ قانــعٍ   برضاكَ ما كشفَ القناع قنوعُهُ

أيكونُ مثلي في زمانكَ ضائعاً   هيهاتَ يا مولايَ لستَ تضيعُهُ [3]

وبعد هذه المحاولات والتوسلات، لا يستجيب الخليفة، فيبقى العماد في سجنه مهموماً مغموماً، ويتوجه في طلب العفو والصفح هذه المرة، إلى عماد الدين ابن رئيس الرؤساء[4]، الذي كان حينها أستاذ الدار[5]، فيمدحه في قصيدة، منها:

قُلْ للإمامِ علامَ حبس وليّكـم   أولوا جميلكمُ جميل ولائهِ

أو ليس إذْ حبسَ الغمامُ وليَّــه   خلّى أبوكَ سبيلَهُ بدعائــهِ[6]

وتنجح الشفاعة في هذه المرة، ويخرج العماد من السجن، ويخلّى سبيله.

---

(1) الخريدة، قسم العراق، 98/1.

(2) العماد الأصفهاني، الديوان، ص 217.

(3) العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، ص 296.

(4) أبو نصر علي بن الوزير عضد الدين أبي الفرج محمد بن عبد الله بن المظفر رئيس الرؤساء، انظر: الخريدة، قسم العراق،166/1.

(5) أستاذ الدار أو الأستادار، وهو لقب من كان إليه أمر البيوت السلطانية كلها من المطابخ وبيوت الشراب والحاشية والخدم، وله أيضاً الحديث المطلق والتصرف التام في استدعاء ما يحتاج إليه كل من في بيت من بيوت السلطان من النفقات والكسي وما يجري مجراها، انظر: دوزي، رينهارت، 1980م، تكملة المعاجم العربية، نقله إلى العربية محمد سليم النعيمي، دار الرشيد للنشر ــ العراق، ج1، ص126، وعرّفه القلقشندي بأنه الذي يتولى شؤون مسكن السلطان أو الأمير، وصرفه وتنفيذ أوامره، انظر: القلقشندي، صبح الأعشى، 11/ 168.

(6) العماد الأصفهاني، الديوان، ص71 .

قضى العماد السنتين التاليتين ببغداد، بعيداً عن السياسة، منقطعاً إلى الفقهاء والوعّاظ، يناظرهم ويباحثهم، ومن بين هؤلاء الفقهاء، فقيه من أهل الشام، وصف له محاسنها، وطيب رياضها، ويصف ذلك بقوله:" وأنا إلى الفقهاء منقطع، وبالمناظرة وبالمباحثة معهم منتفع، ومنهم فقيه من أهل دمشق، يصف طيب رياضها، وبهجة جواهرها وأعراضها، وصحة هوائها وقلة أمراضها، فراقتني معرفته، وشاقتني صفته، فقلت أجعلها سنة فرجة، وأسافر لإسفار صبحي بسرى دلجه، وأقصد إيناس قلبي وتنفيس كربي"[1].

وفي شعبان من سنة 562هـ، وصل العماد إلى دمشق[2]، وأنزله القاضي كمال الدين الشهرزوري[3] بالمدرسة النورية[4]، وأخذ العماد يتردد إلى مجالس القاضي الشهرزوري، ويشارك في الاستدلال والاعتراض في الأصول والفروع على الأئمة الفحول[5].

وكان العماد له معرفة بنجم الدين أيوب، والد صلاح الدين الأيوبي، لسابق معرفة جمعت بين نجم الدين وعمه العزيز، وعندما عرف نجم الدين بوصول العماد بادر إلى منزله لتبجيله[6]، ومدحه العماد بقصيدة، مطلعها:

يومُ النّوى ليس من عُمري بمحسوب	ولا الفراقُ إلى عَيشي بمَنسُوب
ما اخترتُ بُعدَكَ لكنَّ الزمانَ أتى	كَرْهاً بما ليس يا محبوب محبوبي
أرجو إيابي إليكم ظافراً عَجِلاً	فقد ظفرتُ بنجم الدِّين أيُّوبِ[7]

---

(1) البنداري، سنا البرق الشامي، ص18.

(2) أبو شامة المقدسي، الروضتين ، ج2، ص17.

(3) كمال الدين الشهرزوري: هو القاضي كمال الدين محمد بن عبد الله بن القاسم الشهرزوري وكنيته أبو الفضل، (ت572هـ)، قاضي دمشق والشام في أيام نور الدين زنكي، وكان إليه أمر المدارس والمساجد والأوقاف والحسبة، انظر: سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، 340/8.

(4) نسبة إلى نور الدين زنكي، بناها عند باب الفرج، انظر:النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس، 309/1.

(5) البنداري، سنا البرق الشامي، ص18.

(6) البنداري، المرجع نفسه، ص18.

(7) العماد الأصفهاني، الديوان، ص83 .

فشكره نجم الدين أيوب، وأحسن إليه وأكرمه وقدّمهُ على الأعيان وميزه، وعرّف به ابنه صلاح الدين[1].

وفي أواخر سنة 562هـ، قدّم القاضي كمال الدين الشهرزوري العماد إلى السلطان نور الدين ونوَّه بشأنه، وعرّفه به، وذكر له تقدمه في العلم والكتابة[2]، ويؤكد ذلك العماد نفسه حين يقول:" عرفني إليه القاضي كمال الدين الشهرزوري، ورغّبه في استثباتي، وقرر لديه من حساب آمالي، ما لم يكن في حسابي، وقال: لا بأس بأن تكتب إليه أبياتاً ونحن نرجو لك في دولته ثباتاً، وفي روضته نباتاً، فأنشأت هذه القصيدة، وعُرضت من جانب القاضي"[3]، وهي التي أولها:

لو حُفِظَتْ يومَ النَّوى عهودُها ما مُطلت بوَصلكُم وعُودُها
ماذا جَنتْ قلوبُنا حَتى غَدا في النَّار من شَوقِكُم خُلودها
لم أنسَها إذ نَثَرت دموعَها في خدِّها ما نَظَمت عُقودُها[4]

فرتبه الملك العادل نور الدين في ديوانه مُنشئا أوائل سنة 563هـ[5]، وذلك بعد استعفاء أبي اليسر شاكر بن عبد الله[6]، كاتب نور الدين .

تردد العماد في القبول بادئ الأمر، لأنه خاف التقصير في أمر لم يكن له اشتغال به من قبل، ويصف العماد هذا التردد بقوله:" وأنا أمضي كل يوم إلى الديوان مبكراً، وبما أقدم عليه في خدمته لا دربة لي بها مفكراً، على أن أهل ديوانه ينظرونني شزراً، ويعدّون كثير ما عندي من فضل نزراً، وكنت أظن أن صناعة الكتابة، لا سيما الإنشاء صعبٌ..."[7].

---

(1) ياقوت الحموي، معجم الأدباء، 2624/6.

(2) ياقوت الحموي، المرجع نفسه، 2624/6.

(3) البنداري، سنا البرق الشامي، ص22.

(4) العماد الأصفهاني، الديوان، ص 143ـ144.

(5) البنداري، سنا البرق الشامي، ص22.

(6) أبو اليسر شاكر بن عبد الله بن محمد التنوخي (ت 581هـ)، كاتب السر للملك نور الدين زنكي، انظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء، 145/21.

(7) البنداري، سنا البرق الشامي، ص22.

وبعد هذا الإحجام والتردد، باشر العماد الكتابة، وأجاد فيها حتى زاحم القاضي الفاضل بمنكب ضخم(1)، بل ويتجرأ عليها ويبدع فيها ويخترع أسلوباً جديداً، ليبرز اسمه بين أسماء البارزين في هذه الصناعة، ويصف العماد ذلك بقوله:" حتى قرأت كتب الأمصار والمراسلات الواصلة من سائر الأقطار، فوجدتها في غاية من الركّة، ويا ليتها كانت بعبارات معسولة، فتجرأت على الكتابة، وغيّرت تلك الأوضاع الوضيعة، واخترعت أسلوباً ما عرفوه، وألفت مصنوعاً ما ألفوه، ووفّيت بالبلاغتين، ونفيت الغش عن الصياغتين"(2).

توطدت العلاقة بين العماد ونور الدين، فلازمه ولم يفارقه، وكتب مراسلاته بالعربية والفارسية، وعلت منزلته عند نور الدين، مما جعل نور الدين يعتمد عليه في بعض المهمات، ففي سنة 565هـ، أرسله نور الدين لطلب النجدة(3)من صاحب خِلاط(4)، ومتوليها حينئذ ظهير الدين سُكمان المعروف بشاه أرمن(5).

وفي سنة 566هـ، كلّفه نور الدين بحمل رسالة عنه إلى الخليفة العباسي المستنجد بالله، لينال موافقته على دخول الموصل(6)، كما أنه أسند إليه في سنة 567هـ التدريس في المدرسة النورية، وعينه ناظراً لها(7)، وقد سمّيت هذه المدرسة بالعمادية نسبة إليه، لأنه درّس فيها مدة طويلة، وكان بارعاً في درسه، يتزاحم الفضلاء فيه لفوائده وفرائده(8).

---

(1) ياقوت الحموي، معجم الأدباء، 2624/6..

(2) البنداري، سنا البرق الشامي، ص22.

(3) العماد الأصفهاني، محمد بن محمد، 1987م، البرق الشامي، تحقيق فالح حسين، مؤسسة عبد الحميد شومان ــ عمان، ط1،ج5، ص79 .

(4) خِلاط: بكسر أوله، بلدة عامرة مشهورة، ذات خيرات واسعة وثمار يانعة، وهي قصبة أرمينية الوسطى، انظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، 380/2.

(5) أبو شامة المقدسي، الروضتين، 2/ 148.

(6) أبو شامة المقدسي، المرجع نفسه، 2/ 169.

(7) البنداري، سنا البرق الشامي، ص63.

(8) النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس، 312/1.

كان العماد مخلصاً في عمله، ووفيّاً لسلطانه، مما جعل نور الدين زنكي يفوض إليه الإشراف على ديوانه، إضافة إلى كتابة الإنشاء، وكان ذلك في سنة 568هـ[1]، ويصف العماد ذلك بقوله:" فجمعت بين المنصبين، وقسّمت زماني على النصيبين، فمرّةً للكتب والمناشير، وتارةً للإثبات في الدساتير، ولم أثق بنائب، وباشرت العمل بنفسي"[2].

وفي السنة نفسها ولّاه نور الدين الاستيفاء؛ لثقته الكبيرة به، فجمع بين الإنشاء والإشراف والاستيفاء[3].

لازم العماد نور الدين في حضره وسفره، وشهد معاركه، وتغنى بانتصاراته، ناظماً القصائد المعبرة عن هذه الفتوحات، وكتب باسمه الرسائل لمختلف الأمصار، وهكذا قضى العماد قرابة ثماني سنوات في العمل المتواصل، والجهاد الدائم، وحظي بثقة نور الدين واحترامه له، إلى أن توفي نور الدين في سنة569هـ[4].

بعد وفاة نور الدين، جلس ابنه الملك الصالح إسماعيل في المُلك، وكان صغيراً، وتحكم رجال دولته في كل شيء[5]، فنال العماد منهم الأذى، ويصف هو ذلك بقوله:" ولما توفي نور الدين رحمه الله، اختلّ أمري، واعتلّ سرّي، وفاض دمعي، وغاض بحري، وغلب حسادي وبلغ مرادهم أضدادي، وكان الملك صغيراً، فصار العدل ابن العجمي[6] وزيراً، وتصرف المخالفون في الخزانة والدولة كما أرادوا، وولُّوا وصرفوا، ونقصوا وزادوا، واقتصروا بي على الكتابة، محروم الدعوة من الإجابة"[7].

---

(1) أبو شامة المقدسي، الروضتين، 2/ 236.

(2) البنداري، سنا البرق الشامي، ص64.

(3) البنداري، المرجع نفسه، ص69.

(4) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، 55/10.

(5) ابن الأثير، المرجع نفسه، 58/10.

(6) أبو صالح العجمي، وزير الملك الصالح إسماعيل (ت 573هـ)، انظر: سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، 350/8.

(7) البنداري، سنا البرق الشامي، ص36.

وبعد ذلك، انتقل الملك الصالح إسماعيل من دمشق إلى حلب، وسار العماد مع ركبه، وأقام العماد مدة في دار محيي الدين الشهرزوري[1]، ولكنه أحس بالخطر يحيط به، فرحل إلى الموصل وأقام بها[2]، لكنه وقع فريسة للمرض، وأقام ينتظر الشفاء[3]، وفيما هو بالموصل، وصلها نجّاب[4] ذكر أنه فارق صلاح الدين على مقربة من دمشق، ويصف العماد ذلك فيقول:" فوصل نجّاب وذكر أنه فارق صلاح الدين بالكسوة[5]، فهاجني الطرب لقصده لسابق معرفته، وقديم ودّه، وخرجت من الموصل رابع جمادى الأولى ....، ودخلت إلى دمشق في ثامنِ جمادى الآخرة، وصلاح الدين نازل على حلب، فنزلت في مدرستي، وعدت إلى منزلتي، وألفيتها وفيها مدرس يتولاها، وقالوا إن العماد حلّاها، فدخلت إليها، وأخرجته وأبعدته عن النهج الذي نهجه"[6].

ظل العماد في دمشق حتى اعتدل مزاجه، وشُفي من مرضه، وحينما عاد السلطان إلى حمص، قصده فيها، وقد تسلّم قلعتها في شعبان سنة 570هـ[7]، وهنأه العماد بقصيدة، منها قوله:

فتــحٌ تسنَّــى في الصِّيـام كأنـَّـنـا ... شكراً لما مَنح الإلهُ صيامُ

من ذا رأى في الصوم عيدَ سعادةٍ ... حلّت لنا، والفطر فيه حرامُ

دُم للعُــلا حتــى يـــدوم نظامُهـا ... واسلم يَعزُّ بنصرك الإسلامُ[8]

---

(1) محيي الدين أبو حامد محمد بن كمال الدين أبو الفضل محمد بن عبد الله بن القاسم الشهرزوري، (ت 586هـ)، كان قاضياً، وقبلها ولي قضاء حلب وجميع الأعمال، كان رئيساً جواداً ذا مروءة عظيمة، انظر: ابن الأثير، الكامل في التاريخ، 201/10.

(2) البنداري، سنا البرق الشامي، ص74.

(3) البنداري، المرجع نفسه، ص75.

(4) نجّاب: هو ساعي البريد الذي يمتطي الجمل، دوزي، تكملة المعاجم العربية، 10/ 170.

(5) الكسوة: قرية، هي أول منزل تنزله القوافل إذا خرجت من دمشق إلى مصر، ياقوت الحموي، معجم البلدان، 4/ 461.

(6) البنداري، سنا البرق الشامي، ص84 ـ 85.

(7) البنداري، المرجع نفسه، ص85.

(8) العماد الأصفهاني، الديوان، ص 377 ـ 378 .

كان العماد يطمح إلى تولي ديوان الإنشاء، ولكن وجود رجل كالقاضي الفاضل على رأس ديوان الإنشاء، كان عائقاً أمامه، ولوجود رجال نبّهوا السلطان إلى هذا الأمر، وهم من وصفهم العماد بالحُساد، ويقول في ذلك:" قد قرر حُسّادي عند السلطان، وقالوا: شغله الكتابة، وهي منصب الأجل الفاضل، وهو يستتيب فيه من يراه من الأفاضل"[1].

ولأن القاضي الفاضل كان مقرباً من صلاح الدين الأيوبي، وصاحب رأي سديد لا يُستغنى عنه، فقد تردد السلطان في هذا الأمر، وأدرك العماد بفطنته ذلك، وكان لا بد له من وسيلة تزيل تردد السلطان، وليس أفضل من القاضي الفاضل نفسه لهذا الأمر، فلجأ العماد إلى وسيط تربطه علاقة صداقة بالقاضي الفاضل، وهذا الوسيط الصديق هو الأمير نجم الدين بن مصال[2]، ويصف العماد ذلك بقوله:" وكنت قد آنست مدة مقامي في المعسكر بالأمير نجم الدين بن مصال، وهو ذو فضل وإفضال....، فلزمت التردد إليه، وجعلته الوسيط بيني وبين الأجل الفاضل....، ووقفت خاطري على تقاضيه نظماً ونثراً"[3]، ومن ذلك ما كتبه إليه:

لعلَّ نجمَ الدِّين ذا الفضلِ — يُذكِّرُ الفاضلَ في شُغلي
إنَّ أجلَّ النَّاس قدراً فتىً — بفضلهِ يَتعبُ من أجــلي
ومثلُهُ من يَعتني بالعُلا — ويَستديمُ الحمدَ من مثلي[4]

نجحت جهود الأمير نجم الدين بن مصال في وساطته مع القاضي الفاضل، فعّرفه بالعماد، الذي مدحه بقصيدة، حين لقيه بحمص في سنة 570هـ[5]، ومنها:

---

(1) البنداري، سنا البرق الشامي، ص 89.

(2) روى أبو شامة في الروضتين عن العماد الأصفهاني، أنه كان مقدماً عند السلطان صلاح الدين الأيوبي، وكان أبوه قد وزر للخليفة الفاطمي العاضد، وكان من أهل السنة والجماعة، والتقى والورع، والعفاف والطاعة، انظر: الروضتين، 2/ 386 ــ 387، وذكر العماد وفاته (574هـ) في البرق الشامي، انظر: العماد الأصفهاني، البرق الشامي، 127/3.

(3) البنداري، سنا البرق الشامي، ص90، وانظر: الروضتين، 387/2.

(4) العماد الأصفهاني، الديوان، ص 361 ـ 362.

(5) أبو شامة، الروضتين، 387/2.

عاينتُ طودَ سكينةٍ ورأيــتُ شمــ ـسَ فضيلةٍ ووردتُ بحرَ فواضلِ
ولقيتُ سحبانَ البلاغــةِ ساحباً ببيانـــهِ ثوبَ الفخــار لوائـــلِ
بحرٌ من الفضل الغزير خِضَمُّهُ طامي العُباب ومَا لَهُ من ساحــل[1]

ودخل القاضي الفاضل إلى السلطان، وطلب منه تولية العماد منصب الإنشاء، ويصف العماد ذلك بقوله:" فدخل الأجل الفاضل إلى السلطان، وعرّفه أنه فيّ راغب، وأنه في ترتيبي حاجب، فقال له: أنت كاتبي، ومُدبِّر ملكي وصاحبي، ولو رتَّبت كاتباً، لظُن أن في الحال نقصاً، فقال: أنا لا يمكنني الملازمة الدائمة في كل سفرة، وغداً تكاتبك ملوك الأعاجم، ولا تستغني في ذلك عن عقد الملطّفات وحلّ التراجم، وأنا ما أحضر في كل آوان، والدولة مفتقرة إلى كافل بها غير متوان، والعماد يفي في الوفاء....، ولك أختاره وقد عُرف في النّوبة النورية مقداره، فوافق قوله مراد السلطان، وعرف أن الأجل الفاضل أجلَّ فضلي، وحلّى عَطلي، وأخذ خط السلطان، بما قرره لي من شغلي"[2].

وهكذا، فإن العماد قد خلّد اسمه في التاريخ، بعد أن استكتبه صلاح الدين ووثق به وقربه إليه، وصار العماد يزاحم الوزراء وأعيان الدولة، وقد لزم العماد صلاح الدين فترةً امتدت حوالي عشرين عاماً، يرحل برحيله، وينزل بنزوله، وينشده شعره في المناسبات والأحوال كافة، حضر معه الغزوات والمعارك التي خاضها، فعظّم بطولاته ومجّدها، وصوّر المعارك تصويراً دقيقاً، وأنشأ الرسائل باسمه إلى الولايات والأمصار، ورافقه في تنقلاته ورحلاته بين المدن والأقطار، وشهد فتوحاته وكتب البشارات في ذلك، وتدل مؤلفاته على ذلك أيما دليل.

وكان السلطان يثق بقدرة العماد على صياغة ما يدور في ذهنه؛ لأن العماد كان مطّلعاً على سره، عارفاً بخفايا نفسه ، ويصف العماد ذلك بقوله:" وكان يأمرني بكتابة كتب الملوك، وأصحاب الأطراف عن كتبهم في حالتيْ سلمهم وحربهم، وهي تشتمل على أسباب متنوعة، وآراب متفرعة، بحسب الحوادث المتجددة، والبواعث المتمهدة، فإذا قلت له: بماذا أكتب، وما الذي أخطب، فيقول أنت أعرف، وبحسب ما

---

[1] العماد الأصفهاني، الديوان، ص 341 ـ 344.

[2] البنداري، سنا البرق الشامي، ص90.

تعلم من حالنا تتصرف، فأكتب من عندي بالإجابة، وتوافق منه الإصابة"[1]، وبموت صلاح الدين الأيوبي، فقد العماد صديقاً وملاذاً وحامياً.

ويصف العماد حاله إثر وفاة السلطان صلاح الدين، بقوله:" وبقيت تلك الأيام لا أفرق بين الدجى والضحى، ولا أجد قلبي من سَقم الهَم وسُكره صحّ ولا صَحا، وحالت حالي، وزال إدلالي وزاد بلبالي، وبطل حقي، واتسع خرقي، وتنازل جاهي وتنازق أشباهي، وأعضلَت أدواء الدواهي، وبقيت المعارف متنكرة، والمطالع مكفهرة، والعيون شاخصة، والظلال قالصة، والأيدي يابسة، والوجوه عابسة ...."[2].

ووصف ابن السبكي حال العماد بعد وفاة صلاح الدين، فقال:" ولم يزل عند السلطان صلاح الدين في أعز جانب وأنعم نعمة، والدنيا تخدمه، والأرزاق يتصرف فيها لسانه وقلمه، إلى أن توفي صلاح الدين، وبارت سوق العلم والدين بوفاته، فاستوطن دمشق، ولزم مدرسته العمادية"[3].

وهو وصف دقيق للحالة التي آل لها مآله بوفاة زعيم الإسلام، وراعي الإيمان، وصديق العماد وسنده، كما أنه يبين المرتبة التي كان يتبوأها في عهد السلطان صلاح الدين الأيوبي.

بعد وفاة صلاح الدين انقسمت الدولة إلى دويلات يحكمها أبناؤه وإخوته، وبقي العماد في دمشق يخدم الملك الأفضل، ينشئُ الكتب ويحررها[4]، ثم أخذ الأفضل بإشارة من ضياء الدين بن الأثير، يبعد عنه أصحاب أبيه ويقرب غيرهم[5]، وبسبب الخلافات الدائرة بين أبناء صلاح الدين، أحس العماد بأن دوره أصبح ثانوياً، فقرر الرحيل إلى

---

(1) العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص 659.

(2) العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، ص 627.

(3) ابن السبكي، طبقات الشافعية، 97/4.

(4) العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص 650، وانظر: الروضتين، 408/4.

(5) أبو شامة المقدسي، الروضتين،419/4، وكان الملك الأفضل قد استوزر ابن الأثير.

مصر، ودخلها سنة 592هـ، وفيها التقى بالقاضي الفاضل[1]، ثم ما لبث أن عاد إلى الشام واعتزل العمل العام.

ويبدو أن العماد في هذه الفترة، انقطع إلى الدرس والتأليف، ويتضح ذلك من رسالة بعثها له القاضي الفاضل من مصر سنة 595هـ، يشكو فيها حياة العزلة في مصر، ويشيد بمقدرة العماد على الانكباب على الدرس والتأليف، وأنها نعمة يتعين شكرها[2]، وفي سنة 596هـ رحل العماد إلى مصر، مع الملك الكامل ابن الملك العادل[3]، ثم عاد بعدها إلى دمشق، وبقي فيها حتى وفاته.

4.1 مصنفاته

عني العماد بالكتابة والتأليف منذ نشأته الأولى إلى يوم وفاته، فأمضى عمره يجمع ويؤلف، وينظم ويصنف، بالرغم من شغله الكثير بالكتابة الديوانية والأعمال السلطانية، فقد تعلق بالكتابة وهو يطلب العلم، وينتقل بين مجالسه، ويصف تعلقه بهذه المجالس، فيقول:" والعبادي[4]يفتن الناس بما يبديه من سحره ويبدعه، وحضرت مدة مقامي ببغداد جميع مجالسه، أكتبها من لفظه"[5]، وهذا دليل واضح على اهتمامه البالغ بكتابة التعليقات والملاحظات أثناء حضوره لمجالس العلم، ويؤكد على حبه وشغفه بالكتابة والتدوين، ورواية أمالي شيوخه .

---

(1) ابن واصل، جمال الدين محمد بن سالم (ت 697هـ)، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تحقيق جمال الدين الشيال، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، الجمهورية العربية المتحدة، ج3، ص57.

(2) أبو شامة المقدسي، الروضتين، 445/4.

(3) أبو شامة المقدسي، المرجع نفسه، 459/4.

(4) قطب الدين أبو منصور المظفر بن أردشير العبادي (ت547هـ)، كان محدثاً، وواعظاً بالنظامية، وكانت له فصاحة وحسن عبارة، ابن الجوزي، المنتظم، 87/18.

(5) البنداري، تاريخ آل سلجوق، ص197.

دوّن العماد في مصنفاته ثقافة عصره، وتاريخه السياسي والاجتماعي، وأدب القرن السادس الهجري، وبات ما كتبه وجمعه مرجع الباحثين في ثقافة هذا العصر، وللعماد عدة مؤلفات، هي:

البرق الشامي: جمع فيه العماد التاريخ والأدب والترجمة الشخصية، إلى جانب الرسائل النثرية، ألفه العماد تخليداً لذكرى صلاح الدين الأيوبي، وعرفاناً بجميله عليه في استخدامه بديوان الإنشاء[1]، وذكر فيه أخباره وأحواله مع السلطان، ويقول في ذلك: " وأنا أقدم في هذا الكتاب ذكر نبذ من أحوالي مع السلطان، ثم أبتدئ بذكر معرفتي به وخدمتي له، وأصف مبادئ دولته إلى أن وصل إلى الشام، وحضرت خدمته، وأصف سيرة كل سنة وآتي بشرح حسناته بكل حسنة"[2].

وقد صرّح العماد عن سبب تسميته لهذا الكتاب، فقال:" وابتكرت صياغته معنى ولفظاً، وسميته البرق الشامي؛ لأني وصلت في شعبان سنة اثنتين وستين وخمسمائة، في دولة الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي، سقى الله عهده عهاد الرحمة، فصادفت الدولة في أيامه والأيام الصلاحية إلى السابع والعشرين من صفر، سنة تسع وثمانين متناسبة المحاسن، وحسبتها بطيبها مستمرة، على حسنها مستقرة، ثم التفت فإذا هي كبرق ومض، وطرف غمض، وما أسرع ما انقضت وانقرضت تلك الليالي والأيام والشهور والأعوام "[3].

وذكر المترجمون القدماء، أن البرق الشامي، يقع في سبعة مجلدات[4]، غير أن معظم أجزائه فقدت، ولم يبقَ منها إلا الجزآن الثالث والخامس[5]، وقد اختصر الفتح

---

(1) البنداري، سنا البرق الشامي، ص13.

(2) البنداري، المرجع نفسه، ص14.

(3) البنداري، المرجع نفسه ، ص14.

(4) انظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان،150/5، النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس، 311/1، الصفدي، الوافي بالوفيات، 140/1.

(5) طبع المجلد الثالث في عمان سنة 1987م، تحقيق مصطفى الحياري، وطبع المجلد الخامس في عمان في نفس السنة، بتحقيق فالح صالح حسين، وكان رمضان ششن قد حقق الجزء الخامس في اسطنبول سنة 1979م.

بن علي البنداري الكتاب في مجلدين، وسمّاه " سنا البرق الشامي "[1]، وكان البنداري قد اختصره للسلطان الملك المعظم أبي الفتح عيسى ابن الملك العادل أبي بكر محمد ابن أيوب[2].

خريدة القصر وجريدة العصر: هو كتاب يترجم فيه للشعراء والأدباء الذين عاشوا في أواخر القرن الخامس الهجري، والقرن السادس الهجري، ويصور فيه العماد الحياة الأدبية، من خلال ذكر الشعراء والأدباء وتتبع أخبارهم وذكر أشعارهم، وحدد العماد في مقدمته للقسم العراقي، دافعه إلى تأليف خريدته، وهو تخليد ذكرى الشعراء الذين مدحوا عمّه العزيز، يقول:" والذي بعثني أولاً على جمع هذا الكتاب، أنني وجدت المعاصرين لعمي الصدر الشهيد عزيز الدين أبي نصر أحمد بن حامد، من الشعراء ما فيهم إلاّ من أمَّ قصده، وطلب رفده، ووفد عليه بمدحه، واسترفده من منحه، وفاز عنده بنُجحِه، وأدرك في ليل الأمل من الفوز ضوء صُبحه، وحمل إليه بضائع فضله فحصل من إفضاله بربحه، وكُلهم مُمتدحُه، ومُستميحُه ومُستمنحُه، فأحببت أن أحيي ذكرهم، وأقابل بمجازاة شكري شكرهم"[3].

وهنالك دافع آخر، أوجب على العماد تأليف الخريدة، وهو كساد سوق الأدب، وقلة عناية أصحابه بحفظه وتدوينه، فرأى أن يخلّد مآثر أهل العصر ويحفظ شعرهم ونثرهم، ويصف ذلك بقوله:" وأنا أحب أن أجمع محاسن من محا سناهم الدهر المسيء، وأُظهر مزاين من غفل عن التحلي بمزاياهم الزمان البذيء..."[4].

وكان العماد قد اطلع على كتابي (يتيمة الدهر) و(دمية القصر)، فتأثر بهما، وأراد أن يتابعهما فيما صنفاه[5]، فصنف هذا الكتاب وسمّاه " خريدة القصر وجريدة العصر"، ويصف ذلك بقوله:" فصنفت هذا الكتاب وألفته، ورقمت هذا الوشي وَفَوَّفته،

---

(1) طبع المجلد الأول في دار الكتاب الجديد ـ بيروت، سنة 1971م، بتحقيق رمضان ششن، ثم في القاهرة سنة 1979م، بتحقيق فتحية النبراوي، أما المجلد الثاني لم يصلنا بعد.

(2) البنداري، سنا البرق الشامي، ص12.

(3) العماد الأصفهاني، خريدة القصر، القسم العراقي، 7/1 ــ 8.

(4) العماد الأصفهاني، المرجع نفسه،4/1 ــ 5.

(5) العماد الأصفهاني، المرجع نفسه،5/1.

وسميته(خريدة القصر وجريدة العصر)، لأنها حسناء ذات حُلي وحُلل، غانية تغبطها على الحسن أقمار الكِلل، فهذا الكتاب كالروض الأنف يجمع أنواع الزهر، وكالبحر تضمن على نواصع الدُرر، وكالدهر يأتي بعجائب العبر"[1].

وكان العماد قد ذكر أقسام خريدته في كتابه" البرق الشامي"، وحجمه، والمدة الزمنية التي يغطيها، فيقول في ذلك:" فأما ما ذكر في الكتاب الفاضلي من الجريدة وكشفها، والخريدة ورشفها، فإنه يشير إلى ما صنفته في مصر على مثال "يتيمة الدهر من شعراء أهل العصر"، وسميته كتاب "خريدة القصر وجريدة العصر"، إلى آخر سنة اثنتين وسبعين، وأوردت فيه من بعد سنة خمسماية، وهو في عشر مجلدات ضخمة، مشتملة على كل حكم وحكمة، على أربعة أقسام على نسق متناسب ونظام"[2].

وأقسام الخريدة، كما ذكرها العماد نفسه، هي:

القسم الأول: بغداد وما يجري معها من العراق[3].

القسم الثاني: فضلاء عراق العجم وخرلسان وغزنة وأذربيجان وأرّانية وما وراء النهر[4] .

القسم الثالث: شعراء الشام والجزيرة والموصل وديار بكر، وختم هذا القسم بشعراء الحجاز واليمن وصنعاء وزبيد وعدن[5].

القسم الرابع: ينقسم إلى قسمين: أحدهما مصر وأعمالها، وصعيدها وأسوانها[6]،

---

(1) العماد الأصفهاني، خريدة القصر، القسم العراقي ،1/ 5 ــ 6.

(2) العماد الأصفهاني، البرق الشامي، 62/3.

(3) حققه محمد بهجة الأثري، ونشره المجمع العلمي العراقي في بغداد، فصدر الجزآن الأول والثاني عامي 1955، 1964م، وصدر الجزء الرابع في قسمين عام 1973م، وصدر الجزء الثالث في عام 1980م.

(4) حققه عدنان محمد آل طعمة، وأخرجه في ثلاثة أجزاء، وصدر عن دار مرآة التراث ـ طهران، عام 1999م.

(5) حققه شكري فيصل، ونشره مجمع اللغة العربية في دمشق، وصدر في أربعة أجزاء، في الأعوام1955م، 1956م، 1964م، 1968م.

(6) حققه ونشره أحمد أمين وشوقي ضيف وإحسان عباس، وصدر عن مطبعة دار الكتب والوثائق القومية في القاهرة، صدر في جزئين عام 1951م، وقد أُخلَّ هذا القسم بشعراء عسقلان، لأن المحقق استثناه من القسم المصري، وحقق هذا القسم محمود عبد الرحيم وعبد الحليم حسين=

والثاني البلاد المغربية وأندلسها، وقريبها وبعيدها، ومهديُّها وقيروانها[1].

وللخريدة مختصران، الأول منهما مفقود، وقد ذكره محقق القسم العراقي نقلاً عن ابن خلكان[2]، والثاني بعنوان " عود الشباب " لعلي بن محمد الرضائي الرومي (ت1039هـ)، وهو موجود وله نسخ كثيرة في المكتبات[3].

ذيل الخريدة وسيل الجريدة: هو كتاب استدركه العماد الأصفهاني على خريدته، ضم عشرات التراجم التي أخلت بها الخريدة، ويذكر العماد هذا الكتاب وسبب تأليفه، فيقول:" فشرعت في تأليف كتاب آخرَ أسميته "ذيل الخريدة وسيل الجريدة"، ثم شغلتني المهام السلطانية عن استيعاب ذكر المتجددين، واستيفاء حديث المحدثين، وقد اجتمع فيه كثير، وأسأل الله التوفيق لإتمامه فإنه قدير "[4].

إلاّ أن هذا الذيل فُقد، ولم يبق منه سوى نقول في كتب التاريخ والتراجم، ومختار لمؤلف مجهول، وضعه لنفسه من مختار لأبي عبد الله محمد بن الحافظ عبد العظيم المنذري[5]، ويحتوي هذا المختار على ثمان وسبعين ترجمة أخلت بها مطبوعة

= الهروط، ونشر هذا القسم في المجلة الأردنية في اللغة العربية وآدابها جامعة مؤتة ــ الأردن، مج5، العدد4، 2009م، ص 123 ــ 156.

(1) نشر هذا القسم مرتين: الأولى بتحقيق عمر الدسوقي وعلي عبد العظيم، وصدر في جزئين عن دار نهضة مصر للطبع والنشر في القاهرة، عام 1964م، 1969م، والأخرى بتحقيق محمد المرزوقي ومحمد العروسي المطوي والجيلاني بن الحاج يحيى وآذر تاش أذر نوش، وصدر في ثلاثة أجزاء عن الدار التونسية للنشر، في الأعوام 1966م، 1971م، 1972م.

(2) العماد الأصفهاني، خريدة القصر، القسم العراقي، 95/1.

(3) كارل بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، 6/ 8 ــ 9.

(4) العماد الأصفهاني، البرق الشامي، 62/3.

(5) هو رشيد الدين أبو بكر محمد بن عبد العظيم بن عبد القوي المنذري، (ت644هـ)، انظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء، 218/23.

الخريدة[1]، وقد ذكر ابن خلكان كتاب ذيل الخريدة ووقف عليه، عند ترجمته للعماد الأصفهاني[2].

الفتح القسي في الفتح القدسي: وهو كتاب أرَّخ فيه ما قام به السلطان صلاح الدين الأيوبي من فتوحات وحروب، وهو سجلٌّ حربيٌّ من أول سنة 583هـ، إلى أواسط سنة 589هـ، وهي السنة التي توفي فيها صلاح الدين الأيوبي، واختار العماد الأسلوب الأدبي للكتاب، ليكون روضاً يعيش فيه الأديب، كما يجد المؤرخ فيه ضالته، ويذكر ذلك بقوله:" هذا كتاب أسهمت فيه بين الأدباء الذين يتطلعون إلى الغُرر المتجلية، وبين المستخبرين الذين يستشرفون إلى السّير المتحلية، يأخذ الفريقان منه على قدر القرائح والعقول، ويكون حظ المستخبر أن يسمع والأديب أن يقول، فإن فيه من الألفاظ ما صار معدناً من المعادن الجواهر التي نولّدها، ومن غرائب الوقائع ما صار به لساناً من ألسنة العجائب التي نوردها"[3].

ويتحدث العماد في مقدمة الكتاب عن سبب اختياره سنة 583هـ، لتكون بداية الكتابة والتأريخ بها، فيقول:" وإنما بدأنا بالتاريخ به لاستقبال سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة، لأن التواريخ معتادها إما أن تكون مستفتحة من بدء نشأة البشر الأولى، وإما مستفتحة بمعقب من الدول الأخرى....، وأنا أرّخت بهجرة ثانية تشهد للهجرة الأولى....، وهذه الهجرة هي هجرة الإسلام إلى بيت المقدس، وقائمها السلطان صلاح الدين أبو المظفر يوسف بن أيوب، وعلى عامها يُحسن أن يبنى التاريخ ويُنسّق"[4].

وعن تسميته بهذا الاسم، يذكر العماد ذلك، فيقول:" وسميته الفتح القدسي تنبيهاً على جلالة قدره، وتنويهاً بدلالة فخره، وعرضته على القاضي الأجل الفاضل، وهو الذي في سوق فضله تعرض بضائع الفضائل، فقال لي: سمِّه الفتح القسي في الفتح

---

(1) مؤلف مجهول، 2010م، المختار من ذيل الخريدة وسيل الجريدة للعماد الأصفهاني، تحقيق محمد عايش، دار الكتب العلمية ـ بيروت، ط1، ص 4.

(2) ابن خلكان، وفيات الأعيان، 150/5.

(3) العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص 43.

(4) العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، ص 43 ــ 49.

القدسي، فقد فتح الله عليك فيه بفصاحة قس[1] وبلاغته، وصاغت صيغة بيانك فيه ما يعجز ذوو القدرة في البيان عن صياغته، ولما كان هذا الفتح[2] في سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة بدأت بها، وأنشأت رياضي بسحبها"[3]، وقد وصلنا هذا الكتاب وطبع عدة مرات[4].

نصرة الفترة وعصرة الفطرة[5]: وهو تأريخ للدولة السلجوقية ووزرائها وأكابر دولتها، وجعل العماد أساسه كتاب الوزير أنوشروان بن خالد" فتور زمان الصدور وصدور زمان الفتور".

وبعد ترجمته لهذا الكتاب، ألحق في أوله تاريخ السلاجقة قبل ملكشاه، وزاد في آخره ما جرى في عهده من سلاجقة خراسان والعراق إلى سيره إلى دمشق من العراق، وتوقف بعدها، وأنهى كتابه معتذراً بسبب ابتعاده عن العراق وسفره إلى الشام، ويقول في ذلك:" وقد كنت أؤثر أن أنهي هذا الكتاب إلى آخره بشرح حادثة كل عام، والانتهاء فيه إلى كل مرام، لكنه بغيبتي إلى الشام، وتباعدي عن معرفة صروف تلك الأيام، اقتصرت على ما عرفته من المجمل، واستغنيت بها عن ذكر المفصّل، ولأن السلطنة في تلك الأيام وهنت وهانت، وبانت أسباب اختلالها وظهرت أسرار وهائها وهانت، وما تمكن وزير من سيرة سارة، ومبرة بارّة، حتى أنوّه بذكره وأُنبّه، وفيما أنشأته من محاسن

---

(1) هو قس بن ساعدة بن عمرو بن عدي بن مالك من بني إياد، أحد حكماء العرب في الجاهلية، وأول عربي خطب متكئاً على سيف أو عصا، كتب" من فلان إلى فلان"، وقال في كلامه " أما بعد "، انظر: الزركلي، خير الدين، 1980م، الأعلام، دار العلم للملايين ــ بيروت، ط5 ،ج5، ص196.

(2) إشارة إلى فتح بيت المقدس في سنة 583هـ، عقب معركة حطين .

(3) العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص 57 ــ 58.

(4) ومنها طبعة سنة 1965م، بتحقيق محمد محمود صبح، وصدرت عن الدار القومية للطباعة والنشر، اعتماداً على إحدى النسخ المطبوعة في القاهرة بمطبعة الموسوعات في سنة 1321هـ، انظر مقدمة المحقق للفتح القسي في الفتح القدسي، ص36.

(5) اختلف المترجمون في اسمه، فذكره ابن خلكان والنعيمي بهذا الاسم " نصرة الفترة وعصرة الفطرة"، ابن خلكان، وفيات الأعيان، 150/5، النعيمي، الدارس، 311/1، وذكره الصفدي "نصرة الفترة وعصرة القطرة"، الصفدي، الوافي بالوفيات، 140/1.

الأيام الناصرية كفاية، ولكل موفق إلى هداه هداية"[1]، ومخطوطات هذا الكتاب موجودة[2]، ومنه مختصر موسوم بِـ " زبدة النصرة ونخبة العصرة " للفتح البنداري[3].

ديوان شعر[4]: نظم العماد الشعر في بداية شبابه، فنظم المدائح في الخلفاء والسلاطين وسطّر المراسلات الشعرية بينه وبين أدباء عصره، وتغنى شعراً بالانتصارات والفتوحات، وهكذا أصبح له حصيلة شعرية ضخمة، ولذلك اختلف المترجمون في مجلداته[5]، ويُعدّ ديوان شعر العماد ضمن الكتب المفقودة.

ديوان دوبيت[6]: نظمه العماد لنور الدين زنكي في معنى الجهاد[7]، وله دوبيتات على الحروف أغلبها[8]، وهذا الديوان مفقودٌ أيضاً.

ديوان الرسائل: وهو ضمن كتبه المفقودة، وذكره معظم من ترجم له، وقال ياقوت الحموي:" وله ديوان رسائل في مجلدات"[9]، وقد حفظ لنا العماد الكثير من رسائله في كتابيه " البرق الشامي " و " الفتح القسي "، كما حفظ لنا أبو شامة الكثير

---

(1) البنداري، تاريخ آل سلجوق، ص 279.

(2) انظر: كارل بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، 7/6: الخريدة، قسم العراق، 73/1 ــ 74.

(3) طبع هذا الكتاب بمطبعة الموسوعات بشارع باب الحلق بمصر، 1900م، تحت عنوان " تاريخ دولة آل سلجوق ".

(4) جمع الدكتور ناظم رشيد ديواناً له، وصدر عن جامعة الموصل، 1983م.

(5) ذكر ياقوت الحموي أنه في مجلدين، ياقوت الحموي، معجم الأدباء، 2627/6، وقال ابن خلكان: أنه في أربع مجلدات، ابن خلكان، وفيات الأعيان، 5/ 150، وكذلك قال النعيمي، النعيمي، الدارس، 311/1.

(6) الدوبيت: لفظة فارسية معناها البيتان، مركب من دو الفارسية أي اثنان، ومن الكلمة العربية بيت، ويجمع على دوبيتات، ويكون الدوبيت من أربعة أشطر، كل شطرين يشكلان بيتاً شعرياً، انظر: الشيبي، كامل،1972م، ديوان الدوبيت في الشعر العربي، منشورات الجامعة الليبيةــ ليبيا، ص17،99 .

(7) أبو شامة المقدسي، الروضتين، 241/2.

(8) ذكر ناظم رشيد جامع ديوان العماد أن له دوبيتات في الغزل، انظر: ديوان العماد، ناظم رشيد، ص 459 ــ 474.

(9) ياقوت الحموي، معجم الأدباء، 6/ 2627.

منها في كتابه " الروضتين "، وذُكر بعضها في " الوافي بالوفيات " و " مفرج الكروب" و" صبح الأعشى ".

عتبى الزمان في عقبى الحدثان: وهي رسالة أنشأها العماد، ذكر فيها الحوادث التي تلت وفاة السلطان صلاح الدين الأيوبي إلى آخر سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة للهجرة[1]، وقد تحدث العماد فيها عن انقسام دولة السلطان واختلاف أبنائه من بعده، وهي مفقودة حتى الآن، وقد أورد أبو شامة بعض فقراتها وأجزائها في كتابه الروضتين[2].

خطفة البارق وعطفة الشارق: وهي رسالة ذكر فيها العماد أشياء من حوادث سنة 593هـ إلى أن توفي في سنة 597هـ[3]، وهي مفقودة كذلك، وقد ذكر أبو شامة بعضاً منها في كتابه الروضتين[4]، كما اقتبس ابن واصل بعضاً من فقراتها في كتابه مفرج الكروب[5].

نحلة الرحلة وحِلية العطلة: وهي رسالة ذكر فيها العماد اختلال الأحوال وتغير الأمور بعد موت السلطان صلاح الدين الأيوبي، وانقسام أبناء السلطان وصراعهم مع عمّهم، وعزم العماد الرحيل إلى مصر، ونقل رسالة من الأفضل إلى أخيه العزيز، فمضى إليه وعنده عمه العادل[6]، وهي مفقودة أيضاً، ولم تصلنا إلى الآن، باستثناء ما ذكره منها أبو شامة في الروضتين، وابن واصل في مفرج الكروب[7].

---

[1] أبو شامة المقدسي، الروضتين، 241/2، وانظر: ياقوت الحموي، معجم الأدباء 6/ 2627.

[2] انظر: الروضتين، 367/4، 406، 419، 432، 433، 485.

[3] أبو شامة المقدسي، المرجع نفسه، 4/ 439، وذكرها الصفدي ، الوافي بالوفيات،140/1.

[4] أبو شامة المقدسي، المرجع نفسه، 4/ 439 ــ 441.

[5] ابن واصل، مفرج الكروب، 3/ 74.

[6] أبو شامة المقدسي، الروضتين، 432/4، وذكر ياقوت الحموي في معجمه :" وكتاب سماه نحلة الرحلة، ذكر فيه اختلال الأحوال وتغير الأمور بعد موت السلطان صلاح الدين، واختلاف أولاده "، ياقوت الحموي، معجم الأدباء، 6/ 2627.

[7] أبو شامة المقدسي، الروضتين، 432/4 ــ 433، مفرج الكروب، 3/ 12 ،13، 38.

ترجمة كتاب " فتور زمان الصدور، وصدور زمان الفتور": وهو كتاب ألفه أنوشروان بن خالد باللغة الفارسية، يتحدث فيه عن تاريخ دولة سلجوق من أول عهد ملكشاه، إلى آخر عهد طغرل بن محمد بن ملكشاه، ونقله العماد إلى العربية، وهذبه وزاد عليه، ومادة هذا الكتاب موجودة في كتاب "نصرة الفترة وعصرة الفطرة" الذي تحدثنا عنه سابقاً.

ترجمة كتاب" كيمياء السعادة"[1]: وهو كتاب ألّفه أبو حامد الغزالي المتوفى سنة 505هـ[2]، نقله العماد من الفارسية إلى العربية بأمر من القاضي الفاضل أثناء زيارته لمصر في سنة 567هـ، ويقول في ذلك:" وفي هذه السنة عرّبت كتاب كيمياء السعادة، تصنيف الإمام أبي حامد الغزالي في مجلدين، وفزت من تعريبه وعلم ما فيه بسعادتين، وذلك بأمر فاضلي لزمني امتثاله، وشملني في إتمامه إقباله"[3]، وهو كتاب في الموعظة والأخلاق[4].

---

(1) طبع الكتاب ضمن مجموعة رسائل، طبعها صبري الكردي في القاهرة سنة 1341هـ، انظر: بدوي، عبد الرحمن، 1972م، مؤلفات الغزالي، وكالة المطبوعات ــ الكويت، ط2، ص275.

(2) أبو شامة المقدسي، الروضتين، 71/3.

(3) البنداري، سنا البرق الشامي، ص183.

(4) خليفة، حاجي،1947م، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، المكتبة الجعفرية ــ طهران،ج2، ص 1533 .

الفصل الثاني

أدب العماد في مواجهة الغزو الصليبيّ

1.2 التمهيد

تعرضَ المشرق الإسلامي لهجمة شرسة مع نهاية القرن الخامس الهجري، حين هبت أوروبا وتدفقت آلافها المؤلفة تجتاح بلاد المسلمين، وتؤسس الممالك بغية التوسع من خلالها في ديار الإسلام، وساعدهم في ذلك حالة الضعف والانقسام السياسي الذي كانت تعيشه البلاد آنذاك.

وكانت ردة الفعل، أن ظهرت مقاومة إسلامية للغزو الصليبي، وتشكلت نواتها على يد مودود صاحب الموصل، تبعه القائد عماد الدين زنكي، الذي قادة حركة المقاومة ضد هؤلاء الغزاة، ودخل معهم في معارك طاحنة، استطاع من خلالها استعادة بعض الحصون، واستمر عماد الدين في جهاده ضد الصليبيين حتى اغتياله سنة 541هـ، وبموته افتقد العالم الإسلامي في ذلك الحين شخصية من أهم الشخصيات التي تزعمت حركة بعث الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين[1].

وحمل راية الجهاد من بعده ابنه نور الدين زنكي، الذي استطاع إلحاق الهزائم بهؤلاء المحتلين، واسترداد الكثير من القلاع والحصون والمدن المسلوبة، كما أنه وحد جهود المسلمين، وشكل جبهة إسلامية تقارع المحتلين، وتحاول دحرهم وطردهم من البلاد العربية.

استمر نور الدين زنكي في مسيرة الجهاد وتحرير البلاد حتى وفاته، واستلم الراية من بعده صلاح الدين الأيوبي، الذي استمر على نهج سلفه، فقوّى دعائم الوحدة الإسلامية بين مصر والشام، وبقية الممالك الإسلامية، وخاض المعارك والحروب لتطهير البلاد الإسلامية من الوجود الصليبي، حتى تمثل له ذلك بتحرير بيت المقدس من براثن الاحتلال الصليبي، ولم يكتف بذلك، بل راح يطارد فلولهم ويدحرهم إلى أن

---

(1) انظر: الغامدي، مسفر بن سالم، 1986م، الجهاد ضد الصليبيين في الشرق الإسلامي، دار المطبوعات الحديثة ــ جدة، ط1، ص239.

توفي، وبعد وفاته استمرت حركة الجهاد الإسلامي، إلى أن تم تطهير البلاد الإسلامية من الوجود الصليبي زمن المماليك.

شهد هذا العصر حروباً متصلة بين المسلمين والصليبيين، وكانت تلك الحروب سبباً في ظهور لون من الأدب، بل ألوان متعددة ترجع إلى أصل واحد، هو أدب الجهاد والدعوة لحماية الإسلام والمسلمين(1)، ويمتاز الأدب الذي أوحت به هذه الحروب الصليبية بالحماسة المتدفقة في أرجائه، وبحرارة العاطفة التي تبعث فيه الحياة والقوة(2)، كونه وسيلة للدعاية لقتال الأعداء، وتحريض الأمة على جهاد أعدائها.

لقد تعددت ألوان هذا الأدب، وكثرت موضوعاته، حتى كادت تستأثر بالغالبية العظمى من اهتمام الكتّاب والشعراء(3)، فراحوا يسجلون في آدابهم المختلفة مراحل هذا الغزو، من حثّ على الجهاد، وطلب النجدة، وتصوير الجيوش الزاحفة، وما تمتلكه من أسلحة، والانتصارات الكبرى وما يليها من بشائر وتهانٍ.

وقد خلقت الحروب الصليبية كثيراً من الأبطال والعظماء، فاتخذهم الأدباء والشعراء مواضيع لمدحهم والثناء عليهم، والإشارة بمناقبهم والتغني بفضائلهم(4)، كما أن هذه الحروب الصليبية، قد أظهرت الحاجة إلى التأليف والكتابة، فيما يختص بأحوال الحرب وغيرها من الموضوعات(5)، ولا ننسى الكتابة الفنية، التي اتخذت الأسلوب الأدبي لتصوير أحداث الصراع الدائر بين المسلمين والصليبيين، ككتاب الفتح القسي في الفتح القدسي للعماد الأصفهاني، الذي أرّخ فيه لفتح صلاح الدين الأيوبي لبيت المقدس.

---

(1) محمد زغلول سلام، الأدب في العصر الأيوبي، ص 170.

(2) أحمد بدوي، الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية، ص 407.

(3) الساريسي، عمر عبد الرحمن، 1985م، نصوص من أدب الحروب الصليبية، دار المنارة ــ جدة، ط1، ص 152.

(4) كيلاني، سيد محمد، 1949م، الحروب الصليبية وأثرها في الأدب العربي في بلاد الشام ومصر، دار الكتاب العربي ــ مصر، ص4.

(5) انظر: محمد زغلول سلام، الأدب في العصر الأيوبي، ص 171 ــ 172 .

واندفع أدباء هذا العصر لتصوير أحداث الصراع بين المسلمين والصليبيين، وظهرت أصداء ذلك الصراع بشكل جلي في أدب هذا العصر، ويُعد العماد الأصفهاني من أدباء ذلك العصر، الذين أثارت الحرب الدائرة بين المسلمين والصليبيين قريحتهم، فتوقفوا عندها ووصفوها، وكان العماد من أدباء العصر المميزين، كونه لازم اثنين من أبطال الحرب، هما: نور الدين زنكي وصلاح الدين الأيوبي، فقد خدم في بلاطيهما، ودبَّج القصائد فيهما، وكتب لهما الرسائل، وشهد معهما المعارك.

وتتسع دائرة وصف الحرب عند العماد الأصفهاني، فنجده يصور أحداث الصراع الدائر شاهِدَ عيان، يرسم المعارك، ويصور مجرياتها، ويخوض في تفاصيلها الدقيقة، ويذكر ما آلت إليه نتائجها، كما أنه يمجّد الأبطال ويشيد بانتصاراتهم ويتغنى بها، ويشيد بالروح الجهادية عندهم، ويدعو إلى الوحدة الإسلامية والحث على الجهاد لطرد الغزاة من البلاد، واسترداد المقدسات.

وإذا ما أنعمنا النظر في أدب العماد الأصفهاني شعره ونثره، نلمس أنه يصف عناصر الصراع، فهو يصور الجيش من لحظة تحركه، حتى وصوله إلى أرض المعركة، ويرسم صورا تفصيلية لمجريات المعركة، وما أسفرت عنه، ويصور الجنود والقادة والأسلحة والمعدات الحربية، وخطط القتال، والنواحي النفسية للجنود، وما إلى غير ذلك من عناصر الحرب، كما أنه يفصّل في رسم صور للغزاة المحتلين، وتأثير ذلك على الصراع الحضاري، الذي امتد زهاء قرنين من الزمان، انتهى باقتلاعهم من البلاد الإسلامية.

ولعل وصف الحروب الصليبية وتصويرها، من أكثر الأغراض دوراناً في أدب العماد الأصفهاني، مما ينبئُ عن الدور الذي اضطلع به أدب العماد في مواجهة الغزو الصليبي.

2.2 الدعوة إلى الوحدة الإسلامية والحث على الجهاد

سبَّب سقوط مدينة بيت المقدس سنة 492هـ، في أيدي الصليبيين صدمة لدى المسلمين، لما لهذه المدينة من مكانة في نفوس المسلمين، وأدركوا تخاذل الحكام إزاء العدوان الصليبي، وحقيقة ذلك الغزو الذي هدّد وجودهم ومكانتهم، وأيقظت صدمة

سقوط بيت المقدس غفوة العديد من الأدباء، بعد أن تخلصوا من الهزيمة والشعور بها، وبدأوا يحسّون بما ينبغي عليهم القيام به[1]، وظهرت لديهم الدعوات المطالبة بتحرير بيت المقدس.

ونتيجة لسقوط بيت المقدس، استطاع الصليبيون أن يوطّدوا حكمهم في المشرق العربي الإسلامي، ويقسموا الأرض الإسلامية بينهم إلى إمارات وممالك، ويبنوا القلاع والحصون، وينهبوا ويسلبوا ويقتلوا ويستبيحوا المحرمات، مستغلين السُّبات العميق الذي كان عليه المجتمع الإسلامي[2]، وكانت النتيجة أن عانى المسلمون في نهاية القرن الخامس الهجري وبداية القرن السادس الهجري، من تمزق سياسي طال نواحي حياتهم جميعها، فقد واجه المسلمون في هذا العصر خطرين عظيمين، لا يقل أحدهما عن الآخر، إذ التقى على حربهم الصليبيون القادمون من أوروبا، والمدعومون بكل الإمكانيات المادية والبشرية، ويتمثل الخطر الآخر في حكام الدويلات الإسلامية الممزقة في بلاد الشام والجزيرة.

ومع تزايد هذين الخطرين، ظهرت الدعوة إلى الوحدة الإسلامية، إذ بدأ المسلمون يستشعرون مدى الخطر الماثل أمامهم، وأخذوا يعملون على توحيد صفوفهم، ولم شملهم، لمقاومة الدخلاء وطردهم من ديارهم[3]، وكانت ردة الفعل هي ظهور عماد الدين زنكي وابنه نور الدين، وصلاح الدين الأيوبي، الذين أخلصوا النية في الجهاد، وسعوا إلى بناء قوة إسلامية قادرة على تحقيق مصلحة الأمة؛ لأن وحدة الأمة وتماسكها، تعني نهاية العدو الصليبي.

وشارك الأدباء الأمة وحكامها التطلع إلى هذه الوحدة، وأسهموا بقسط وافر في الدعوة إلى الوحدة ولمّ الشمل لتحطيم عدوهم، وقد شارك العماد الأصفهاني أدباء

---

(1) انظر: عبد المهدي، عبد الجليل حسن، 1989م، بيت المقدس في أدب الحروب الصليبية، دار البشير ــ عمان، ط1، ص 29 ــ 34.

(2) انظر: موسى، تيسير، نظرة عربية على غزوات الإفرنج من بداية الحروب الصليبية وحتى وفاة نور الدين، الدار العربية للكتاب، ص79.

(3) انظر: يوسف، جوزيف نسيم، 1981م، الوحدة وحركة اليقظة العربية إبان العدوان الصليبي، دار النهضة العربية ــ بيروت، ط2، ص24.

عصره في الدعوة إلى الوحدة الإسلامية، ومما يمثل الدعوة إلى الوحدة الإسلامية، قصيدة أنشأها العماد، يهنئ فيها نور الدين بملك مصر، ويتغنى بالوحدة بين مصر والشام، يقول:

بِمُلك مِصـرَ أُهنِّـي مالِـكَ الأُمَـمِ ... فَاسْعَد وأَبشِر بنَصر الله عن أَمَمِ
أُغـزُ الفرنـجَ فهذا وقتُ غَزوهـم ... واحْطِم جموعَهُمُ بالذَّابِل الحَطِـمِ
فَمُلكُ مصر وملكُ الشَّام قد نُظِما ... في عِقد عِزٍّ من الإسلام مُنتَظِـمِ[1]

ولا يخفى أن العماد، عدَّ توحيد الأمة الإسلامية إيذاناً بنصر الإسلام، فاتحاد مصر والشام يعني قرب انتهاء عهد الصليبيين وطردهم.

وفي سنة 563هـ، انتصر نور الدين على الأمير غازي بن حسان صاحب منبج[2]، وكان هذا الأمير عقبة في طريق الجهاد، فتوجه نور الدين إلى قلعة منبج، وانتزعها من صاحبها[3]، فأثنى عليه العماد، واعتبر هذا الفتح مقدمة ودعماً للوحدة الإسلامية، يقول:

بُشرى الممالك فَتحُ قَلعةِ مَنبج ... فَلْيَهنِ هذا النَّصـرُ كلَّ متـوَّجِ
أُعطيتَ هذا الفَتح مفتاحـاً بِهِ ... في المُلك يَفتحُ كلَّ بابٍ مُرتَجِ
وافــى يُبَشِّــرُ بالفُتُـوح وَراءه ... فَانهضْ إليها بالجيوشِ وعَرِّجِ[4]

وعندما تقلد أسد الدين شيركوه الوزارة في مصر، ابتهج العماد، ورأى أن هذه الوحدة خطوة نحو تحقيق النصر على الأعداء، فيهنئ العماد أسد الدين، ويأمل منه أن يكون هذا التوحيد طريقاً لتحرير بيت المقدس، يقول:

فَتَحتَ مصرَ وَأرجو أَنْ تَصيرَ بها ... مُيَسِّراً فَتحَ بيت القُدس عن كَثَبِ
شَكَـا إليكَ بَنُو الإسـلامِ يُتمَهُـمُ ... فَقُمـتَ فيهم مقـامَ الوالـدِ الحَـدِبِ[5]

---

(1) العماد الأصفهاني، الديوان، ص 380 ــ 382.

(2) منبج: مدينة كبيرة واسعة، بينها وبين الفرات ثلاثة فراسخ، وبينها وبين حلب عشرة فراسخ، ياقوت الحموي، معجم البلدان، 5/ 205ــ207 .

(3) أبو شامة المقدسي، الروضتين، 32/2 ــ 33.

(4) العماد الأصفهاني، الديوان، ص102.

(5) العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، ص 80.

ويصور العماد الدنيا وقد دانت لنور الدين، وأصبحت البلاد الإسلامية وحدة واحدة تحت رايته، يقول:

عُقِدتْ بنَصـرِكَ رايَـةُ الإيمـانِ ... وَبَـدتْ لعَصـرِكَ آيـةُ الإحسَانِ
دَانَـت لـك الدُّنيـا فقاصيهـا إذا ... حَقَّقتـه لنفـــاذِ أمـــــرِك دانِ
فَمن العِراق إلى الشَّآم إلى ذرا ... مصـرٍ إلـى قُـوصٍ إلـى أُسـوانِ
لَم تَلْهُ عن باقـي البـلاد وإنمـا ... أَلهاكَ فرضُ الغزو عن هَمَذَانِ[1]

وكان لانتصارات صلاح الدين الأيوبي صدى لدى العماد، فهو يرى سقوط مدينة بيده تتمة للوحدة الإسلامية، ونجد العماد يتغنى بهذه الانتصارات ويرى فيها إتماماً للوحدة الإسلامية، ومن ذلك مدحه لصلاح الدين، والإشادة بنصره في منبج، يقول:

نُزُولُــكَ فـي مَنْبِــجِ ... علــى الظَّفَرِ المُبْهِجِ
ونُجْحُكَ في المُرتجى ... وفَتحُــك للمُرتَـــــجِ
دَليـلٌ علـى كـلِّ مـا ... تُحــاولُ أَو تَرتَجــي
فَعَجِّـل عُبـورَ الفرُا ... ت وأَسْرِ وَسِر وأدلِجِ
وَجَلِّ عـــن المُسلمـ ... يـنَ ليلهـمُ المُدَّجِـي[2]

وعن موقف العماد من الخلافة الفاطمية، فهو يرى أن الوحدة الإسلامية تتحقق بزوالها، فهي عامل هدم للوحدة الإسلامية، لذلك نجده يخطب لبني العباس بعد زوال الخلافة الفاطمية، ويمدح الخليفة العباسي المستضيء، ويمجّد هذه الوحدة الإسلامية، يقول:

قَد خَطبنا للمستضيء بمصر ... نَائبِ المُصطفى إمامِ العصرِ
وَخذَلنا لنُصْرةِ العَضُد العـا ... ضـد والقاصـر الذي بالقَصـرِ
وَأَشَعَنا بها شعارَ بني العَبـ ... ـاس فاسْتَبْشَـرَتْ وجُوه النَّصرِ[3]

---

[1] العماد الأصفهاني، الديوان، ص 410 ــ 417.
[2] العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، ص 103 ــ 104.
[3] العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، ص 198 ــ 199.

ولما توفي آخر الخلفاء الفاطميين، وزالت آثارهم، رأى العماد في ذلك تدعيماً للوحدة الإسلامية، وتقوية لحكم صلاح الدين ولمِّ شمل دولته، وفي ذلك يقول:

تُوفـــي العاضـــدُ الدَّعِـــيُّ فمـــا   يَفتحُ ذو بِدعَةٍ بمصرَ فما

وصـــارَ شَمـلُ الصـَّلاح ملتئمـــاً   بهـا وعِقـدُ السَّـدادِ مُنتَظما

واهتزَّ عِطْفُ الإسلام من جَذَلٍ   وافترَّ ثَغرُ الإيمانِ وابتَسَما[1]

كما أن صدى هذا السعي للوحدة الإسلامية يتردد في أدب العماد المنثور، فكان العماد يرى في وحدة المسلمين ما يثير الهلع والفزع في نفوس الصليبيين، ويقول العماد في حوادث سنة 583هـ، وهي السنة التي وقعت فيها معركة حطين:" ولما سمع الفرنج باجتماع كلمة الإسلام عليهم، وسير العساكر إليهم، علموا أنه قد جاءهم مالا عهد لهم بمثله، وأنَّ الإيمان كلَّه قد برز إلى الشرك كله "[2].

وفي سنة 581هـ، عقد السلطان صلاح الدين الأيوبي صلحاً مع أهل الموصل، دخلوا بموجبه في طاعته، ووصف العماد هذا الصلح، بأنه صلح بركة وخير، يقول في ذلك:" وجرى أمر المَوَاصلة على السداد، وتجهزوا في النصرة الناصرية إلى الجهاد، وأول بركات الاتفاق، فتح بيت المقدس وسائر البلاد، وتجددت الفتوح، وأنجدت الملائكة والروح"[3].

وقد اتخذ العماد من الدين والعقيدة قاعدة وأساساً رمزاً للوحدة الإسلامية؛ لذلك كان العماد يستثير النفوس لنصرة الإسلام، من خلال تصوير الفرنجة، وما يُقدم لهم من دعم، مما يعزز حملاتهم المتلاحقة على البلاد الإسلامية، ومن ذلك قوله:" فانظروا إلى الفرنج أي مورد وردوا، وأي حشد حشدوا، وأية ضالة نشدوا...، والمسلمون بخلاف ذلك قد وهنوا وفشلوا، وغفلوا وكسلوا، ولزموا الحيرة، وعدموا الغيرة، ...، وهذا أوان رفض التواني، واستدناء أولي الحمية من الأقاصي والأداني"[4]، وتحققت الوحدة الإسلامية، وتحقق معها أعظم الانتصارات والفتوحات، وتكللت الوحدة بفتح بيت

---

(1) العماد الأصفهاني، الديوان، ص 376 ــ 377.

(2) أبو شامة المقدسي، الروضتين، 278/3.

(3) أبو شامة المقدسي، المرجع نفسه، 3 /241 .

(4) العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص 316 ــ 317.

المقدس، الذي ما كان ليتحقق لولا الوحدة الإسلامية بين الإمارات الإسلامية في بلاد الشام ومصر.

ومما يرتبط بتحقيق الوحدة الإسلامية طلب النجدة؛ لمواجهة الزحوف القادمة من أوروبا، وهذه الجحافل التي احتلت أجزاءً واسعة من بلاد الشام، فكانت الجيوش التي تواجه الفرنجة، تحتاج إلى مساندة من حكام الولايات، عند قيامها بعمليات عسكرية، أو في حالة التعرض للهجوم.

وقد سطر العماد رسائل استنفار، يطلب فيها النجدة والمساعدة، ويحدثنا في رسالة يخبر فيها عن وصول ملك الألمان، إلى ديار المسلمين، ويطلب فيها العون لمواجهة الخطر الداهم، وتعبئة المسلمين لمواجهة العدو، ومنها قوله:" قد وصل الخبر بالدَّاهيةِ الدَّهياء، والغمَّة الغمَّاء، والنَكبَة النَّكباء، والشدَّة الدَّهماء....، وصل جارّاً على السماء ذُيول قتامِه، مجرياً في الأرض سُيول لهامه، ثائراً بأطلابه لطِلاب ثاره، سائراً بخيله ورجله كالسَّيل إلى قَراره....، وقد تعيَّن الجهاد على كل مسلم، وما في الوجود مؤمن يكون له هذا الملم غير مؤلم، والاهتمام بدفعه من أفرض المهام وأهم الفروض"[1] .

ومما يميز رسائل الاستنجاد، أنها تركز على وصف الصليبيين، ووصف غيرتهم على دينهم، وسرعة نجدة قومهم، وتضحيتهم من أجل هذا الهدف، لا يعيقهم أي شيء عنه.

كما أن هذا النوع من الرسائل يذكر بضرورة وصول النجدة، وحاجة المسلمين للعون والمساعدة؛ لدفع الخطر عنهم، ومن ذلك قول العماد:" فقد قذف البحر من الفرنج بزبده، والبر أتى أتيّه من كل بلد للكفر بسبده ولبده....، وهذا خطب قد دهم، وعدو قد هجم، وشرٌّ قد نجم، وجمر داهية قد وَقد، وجمع طاغية قد وفد، في جيوش جائشة، وجموع طائشة، وجنود محشورة، وبنود منشورة....، وهذا أوان تحرك ذوي الحمية، ونهوض أهل الهمم الأبية العلية، فإن القوم في كثرة، ولا يقاتلون إلا بالكثرة

---

[1] العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص 397 ـ 398.

....، فأين المؤدون فرض الجهاد المتعين، وأين المهتدون في نهج الرشاد المتبين، وأين المسلمون؟"[1].

ولا يخفى في هذه الرسالة، التي كتبها على لسان السلطان إلى الديوان العزيز في بغداد، أن العماد يصور الخطر المحيط بالأمة، ويستنهض الهمم والعزائم، للعون والمساعدة على دحره، ويذكر بفرض الجهاد، ودوره في توحيد الأمة وصد الخطر الصليبي، وكذلك إثارة المرسل إليه بأهمية مدِّ يد العون والمساعدة، من خلال الحديث عن كثرة الإمدادات التي تصل إلى العدو، وتفصيل الحديث عن هذه الإمدادات، ويوضح الخطر الذي يهدد المسلمين، وبذلك يكون إرسال النجدات هو الحل المناسب لدحر العدو واقتلاعه.

وكون هذا العصر عصر حروب لا يهدأ أُوارها، فقد كثر فيه التحريض على قتال الفرنج، والحث على جهادهم، فعندما سقطت عكا بأيدي الفرنج سنة 587هـ، غدروا بأهلها وحاميتها، وقتلوا أسرى المسلمين خيانة وغدراً، فكتب العماد محرضاً على الجهاد، واستنهاض الهمم، فقال:" وللكرام آجال، والحرب سجال، ولِلّه من المؤمنين رجال، والآن فقد ثارت الحميَّات، وهبَّت النخوات، ووجب على كل مسلم أن ينهض لنصرة الإسلام، ويتدارك ما حدث من الكسر والوهن بالجبر والإحكام، ويعيد ما وهى من عقدة الفتوح إلى النظام، فأين ذوو الأنفة والحَميَّة، والهمم العليَّة والنفوس الأبية؟ أما يغتمُّون لمصرع من استشهد من إخوانهم؟ أما يثورون لثأر إيمانهم، أما تبكي العيون لمن قتل من أماثلهم وأعيانهم؟ فإن مصابهم عظيم، ومقامهم عند ربهم الكريم كريم، وأراد الله بذلك تنبيه الهمم الراقدة، وإثارة العزائم الراكدة"[2].

وتظهر في هذه الرسالة الدوافع والأسباب التي توجب على المسلمين عدم التخاذل والتهاون في قتال العدو، ويذكِّر العماد المسلمين بقتل الفرنجة لأسرى المسلمين، ويتخذ ذلك سبباً لشحذ الهمم وتقويتها، وإثارة العزائم للأخذ بثأر الإيمان، ومن استشهد في سبيله.

---

[1] العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص 401 ــ 402.

[2] أبو شامة المقدسي، الروضتين، 270/4.

وكما هو الحال في النثر من حث على الجهاد وتحريض عليه، وتحرير الأرض المحتلة، كان حال الشعر كذلك، فقد وقف الشعراء إلى جانب البطلين نور الدين زنكي، وصلاح الدين الأيوبي، وراحوا يمدحونهما ويسجلون وقائعهما، ويتغنون بانتصاراتهما، ويوجهون أنظار هؤلاء الأبطال، إلى الأمنيات التي ترجوها الأمة، وتسعى إلى تحقيقها، وكان العماد أحد الشعراء الملازمين لنور الدين وصلاح الدين، لذا نجده ما ينفك يحثهما على قتال الفرنجة، واسترداد الأرض السليبة، وتحرير بيت المقدس، ومن ذلك ما قاله في تهنئة نور الدين باستيلائه على قلعة منبج، فقد بَشّره بفتح القدس، وحثه على الاستمرار في الجهاد، لتحرير المدن الإسلامية كطرابلس ونابلس، وفي ذلك يقول:

أَبشِر فَبيتُ القدسِ يتلو منبجــاً وَلَمنبجٌ لِســـواه كَالأُنموذَجِ
فَانْهَد إلى البيت المُقدَّس غَازيـاً وعلى طرابلسٍ ونابلسٍ عُجِ[1]

وعندما توحدت مصر والشام في عهد نور الدين، بعث العماد يهنئه بذلك، ويدعوه للاستفادة من هذه الوحدة الإسلامية، ويحثه على غزو الفرنج وقتالهم، وتطهير بيت المقدس من رجسهم، فيقول:

اُغزُ الفرنجَ فهذا وقتُ غزوهـــــــمُ وَاحْطِم جموعهمُ بالذَّابلِ الحَطِـمِ
وَطهِّر القدسَ من رجسِ الفرنج وَثِـبْ على البغَاثِ وثوبَ الأجدَلِ القَطِمِ[2]

وكان العماد من المعجبين بالدور البطولي الذي لعبه صلاح الدين الأيوبي، لذلك نجده يحثُّ صلاح الدين على مجاهدة الأعداء، وتحرير الأرض المحتلة، ولم ينس تذكيره بتحرير بيت المقدس في معظم أشعاره، مادحاً أو مهنئاً، ومن ذلك ما قاله في السلطان مهنئاً بملك مصر سنة 564هـ، حيث تكررت فكرة قتال الفرنج وتشريدهم، واسترداد بيت المقدس منهم، يقول:

فَصبُّوا على الإفرنجِ سَوطَ عذابها بأن تُقسِّموا ما بينها القتلَ والأسرا
ولا تُهملوا البيتَ المقدَّسَ واعزموا على فتحه غازينَ وافترعوا البِكرا[3]

---

(1) العماد الأصفهاني، الديوان، ص 102.

(2) العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، ص 382.

(3) العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، ص 161.

وحين أخذ صلاح الدين بعلبك في سنة 570هـ، مدحه العماد وحثه على فتح القدس، مستغلاً العاطفة الدينية في الدعوة إلى الجهاد والتحرير، يقول:

فَتملَّ فَتحك وَاقصِد الفتحَ الـــذي بحصولهِ لفُتوحِك الإتمــامُ

دُم للعُلا حتى يدومَ نظامُــــــها واسلمْ يعزُ بنصرِكَ الإسلامُ[1]

ويتردد صدى تحرير بيت المقدس لدى العماد، في أكثر من قصيدة، لما يمثله بيت المقدس من مكانة روحانية لدى المسلمين، وكأنه الجوهرة التي يكتمل بها عقد التحرير والانتصارات، ففي سنة 572هـ، مدح العماد السلطان صلاح الدين، وذكَّره بالبلاد المحتلة ووجوب تحريرها، وسفك دماء محتليها، وتخليص البلاد من كفرهم، ويقول في ذلك:

فَسِر وافتح القدسَ واسفكْ بهِ دماءً متى تُجرها يَنظفِ

وخلِّصْ من الكفرِ تلكَ البلاد يخلصكَ الله في الموقفِ[2]

ويرتبط تحرير بيت المقدس، بتحرير المدن الساحلية السليبة، لذلك نجده يحضه على تحرير القدس، واستعادة المدن الساحلية، وتخليصها من خبث هؤلاء الأعاجم ورجسهم، وفي ذلك يقول:

يا مخجلَ البحرِ بالأيادي قد آن أَنْ تَفتحَ السَّواحلْ

فقدِّس القدس من خِبَـاثٍ أرجاسِ كُفرٍ غُـثْمٍ أراذلْ[3]

وعندما تمكن السلطان صلاح الدين الأيوبي من الانتصار على الصليبيين، وتحرير بيت المقدس، وجد العماد في ذلك فرحة وسعادة غامرة، فمدح السلطان وهنَّأه بهذا الفتح المؤزر، وحفزه وحثه على تحرير المدن الباقية، يقول في ذلك:

توكَّلْ على الله الذي لك أصبَحتْ كِلاءتُهُ دِرعاً وعِصمتُه تُرسا

ودمِّر على الباقين واجتَثَّ أصلَهُم فإنَّك قد صَيَّرتَ دينارَهمْ فَلسَا[4]

---

(1) العماد الأصفهاني، الديوان، ص 378.

(2) العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، ص304.

(3) العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، ص326.

(4) العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، ص 233.

ولم يكتف العماد بحث السلاطين المجاهدين على تحرير الأرض المحتلة، فنجده يوجه خطاب الحث والتحريض إلى غيرهم من القادة، وكأن العماد يريد أن يستحثّ كلَّ عربي ومسلم قادر على أن يحمل السيف ويقاتل به، لتحرير الأرض السليبية، ففي سنة 582هـ، مدح تقي الدين عمر ـ ابن أخي السلطان ـ وحثه على الجهاد، آملاً أن يكون فتح بيت المقدس على يديه، فيقول:

ولا يفتح البيتَ المقدَّس غيرُكم   وبيتُكم من كلِّ عابٍ مقدَّسُ[1]

وفي السنة التي فُتح فيها بيت المقدس، خاطب العماد حسام الدين بن لاجين، أحد قادة صلاح الدين، فمدحه وطلب منه أن يذكِّر السلطان بالمدن التي لم تُفتح وتُحرر، وأن يذكِّره بالعدو الصليبي وخطره، ومن ذلك قوله:

قلْ للمليكِ صلاحِ الدِّينِ أكرم مــــن   يمشي على الأرض أو من يركبُ الفرَسا
من بعد فتحكَ بيتَ القدس ليس سوى   صورٍ فإن فُتحتْ فاقصدْ طرابلسَــــا
وأخلِ ساحلَ هذا الشام أجمعَـــــه   من العداةِ ومَن في دينهِ وَكسَــــا
ولا تَدعْ منهمُ نَفْساً ولا نَفَســــا   فإنَّهم يأخذونَ النَّفسَ والنَّفســــا[2]

ومما يجدر ذكره، أن العماد كان قد وضع دوبيتات بطلب من نور الدين زنكي، في معنى الجهاد، وهي أشبه بالأناشيد الحماسية، والأهازيج الشعبية، التي تحث عامة الناس على الجهاد وتشجعهم عليه، وكأنها أناشيد يرددها المقاتلون أثناء المعارك، تشحذ الهمم وتقوي العزائم على مواجهة الأعداء، وتذكِّر دائماً بالجهاد، ومنها قوله:

لا راحة في العيش سوى أن أغزو   سيفي طرباً إلى الطَّلى يهتزُ
في ذلِّ ذوي الكفر يكون العـــزُّ   والقدرة في غير جهاد عجـزُ[3]

ومنها كذلك:

أقسمت سوى الجهاد مالي أرَبُ   والراحة في سواه عندي تعبُ
إلاَّ بالجدِّ لا ينالُ الطـــلبُ   والعيشُ بلا جدِّ جهادٍ لعــبُ[4]

---

(1) العماد الأصفهاني، الديوان، ص 238.

(2) العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، ص228 ـ 229.

(3) العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، ص 223.

(4) العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، ص 76.

ومنها أيضاً:

للغزو نشاطي وإليه طربـــي مالي في العيش غيره من أرَبِ
بالجدِّ وبالجهاد نُجحُ الطَّلـب والرّاحة مُستودعةٌ في التَّعــبِ[1]

ومنها كذلك:

أذللت ذوي الشِّرك بعزِّ العــزمِ والكفرَ بهزِّ صارمي في عزمِ
شيَّدت بُنى المُلك بأمر الجزمِ والنصر رايته قرين الحـــزمِ[2]

ولا يخفى الأثر الذي تتركه هذي الأناشيد في نفسيات المحاربين، من تجديد للنشاط، ودفع النفس إلى الإقبال على الجهاد بفرح وسرور، وهمة تحث على خوض المعارك دون كلل أو ملل.

ويتضح مما تقدم من نصوص شعرية ونثرية، أن الدعوة للوحدة الإسلامية، والحث والتحريض على استرداد المقدسات، كانت طريقاً لشحذ الهمم، واستنهاض العزائم، ودورها لا يقل عن دور المجاهدين في ساحات القتال.

وكان العماد الأصفهاني من أدباء هذا العصر، الذين عاشوا الصراع وعايشوه، فكلما استعيد حصن، انبرى العماد لإثارة الحمية، كي تتم استعادة بقية الثغور المحتلة من أيدي الفرنجة، ولا يتأتى ذلك، إلا من خلال وحدة واحدة متماسكة، قادرة على دحر العدو، ولذلك كان لأدباء ذلك العصر ـ والعماد منهم ـ أكبر الأثر في الدعوة إلى الوحدة، وشحذ الهمم والعزائم؛ ليتحقق الهدف الأسمى، وهو تحرير البلاد الإسلامية، وقد نهض أدب العماد بهذا الدور، وظهر فيه بشكل جلي.

---

(1) العماد الأصفهاني، الديوان، ص 77.

(2) العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، ص 393.

3.2 تصوير المعارك والحروب

تخلل الحروب الصليبية كثير من المعارك التي كان لها صدى في أدب المواجهة مع الصليبيين، فقد واكب الأدب المعارك التي خاضها المسلمون ضد أعدائهم، واضطلع الأدباء بمسؤولية تصوير المعارك والحروب، التي دار رحاها بين المسلمين وأعدائهم، وسجلوا كثيراً من دقائق تلك المعارك وتفاصيلها، وبيَّنوا ما أسفرت عنه تلك المعارك من نتائج، وما آل إليه مصير أعدائهم.

وكان العماد الأصفهاني من الأدباء الذين قدِّر لهم أن يضطلعوا بهذه المسؤولية تجاه أمتهم، فوصف المعارك الحربية التي خاضها المسلمون، ووصف أعداء الأمة وجرأتهم في القتال، وعمل على تعبئة المسلمين تعبئة معنوية، وتغنى بانتصاراتهم على خصومهم، وصور المعارك ووصفها، وتتبع خطواتها ومراحلها، والنتائج التي تمخضت عنها.

شهد العماد الأصفهاني كثيراً من الوقائع الحربية بين المسلمين وأعدائهم، بسبب علاقته ببطلين من أبطالها، نور الدين زنكي وصلاح الدين الأيوبي، ورسم صوراً دقيقة للجيش الإسلامي يخوض المعارك كما شاهدها، ففي سنة 568هـ، انتصر المسلمون بقيادة نور الدين زنكي على الفرنجة، فطلب نور الدين من العماد وصف ما رآه من بطولة وشجاعة[1]، فقال مصوراً أحداث المعركة:

كَم وقعةٍ لـكَ بالفرنـج حَديثُهــا   قدْ سـارَ في الآفـاق والبُلدانِ
ومَلكـتَ رِقَّ ملوكِهِــم وتركتَهُــم   بالذُّلِّ في الأقيـَادِ والأَسجَــانِ
وجَعلـتَ فـي أعنَاقِهـم أغلَالَهُـم   وسَحبتَهُم هونـاً علـى الأذقَــانِ
إذْ في السَّوابغ تُحطَم السُّمرُ القنا   والبيضُ تخضَبُ بالنَّجيع القانِي
وكأنَّ بيـنَ النَّقـعِ لَمـعُ حديدِهـا   نـارٌ تألـَّقُ مـن خـلالِ دُخــانِ
غطَّى العجاجُ بـهِ نجومَ سمائــهِ   لِتنوبَ عنها أنجمُ الخُرصَــانِ[2]

---

[1] أبو شامة المقدسي، الروضتين، 242/2.

[2] العماد الأصفهاني، الديوان، ص 411 ـ 412.

وصف العماد المعركة المحتدمة في الأبيات السابقة، حيث التقى الجيشان وكان القتال على أشده، فتكسرت الرماح من شدته، وتخضبت السيوف بالدماء، ولمعت السيوف كالنار، وغطى عجاج المعركة نجوم السماء، فظهرت الدروع وكأنها النجوم، كما أنه وصف كثرة الأسرى من الأعداء وما حلَّ بهم من الذل والهوان، والندامة والخسران، ولا يخفى أن العماد الأصفهاني قد رسم صورة نابضة لهذه المعركة، من خلال وصفه الدقيق لمجرياتها، فنقل الحدث بوصفه شاهد عيان، رأى الهزيمة الساحقة التي لحقت بالصليبيين.

وتعد معركة حطين التي وقعت سنة 583هـ، من المعارك الخالدة في التاريخ الإسلامي؛ لكونها مقدمة لفتح بيت المقدس، الذي بقي في أيدي الصليبيين ما يقارب تسعين عاما، وقد تغنى العماد الأصفهاني بالنصر المؤزر الذي حققه صلاح الدين الأيوبي على الفرنجة، في تلك الموقعة التي تعدّ من أهم المعارك في تاريخ الإنسانية.

ويتتبع العماد في وصفه للمعركة مسيرة الجيش الإسلامي الجرار، المزود بالأسلحة، والتقاءه بالجيش الصليبي، ويصف حركة خيول المسلمين في ذلك السهل الفسيح، وقد انقضت على الفرنجة، الذين جاءوا بعزيمة عالية للقتال، وبعد جولات من النزال ولّى الفرنجة هاربين وارتجت الأرض لسرعة جريهم، فمات أكثرهم وأصبحت بطون الذئاب قبورا لهم، لأن الأرض رفضت أن تحتويهم لنجاستهم، وخشعت أصوات أبطالهم، فلا تكاد تُسمع، وفي وصف ذلك يقول العماد:

سحبتَ على الأردنِّ رُدناً من القنا ... رُدينيَّةً مُلداً وخَطِّيَّةً مُلسَا
حَطَطْتَ على حطِّين قدرَ ملوكهِم ... ولم تبقِ من أجناسِ كفرهمُ جِنسَا
ونِعمَ مجالُ الخيلِ حطِّينُ لم تكنْ ... معاركُها للجُردِ ضَرساً ولا دَهسَا
غداةَ أسودُ الحربِ مُعتقلُو القنَا ... أساودُ تبغي من نحورِ العِدا نَهسَا
كسرتَهُم إذْ صحَّ عزمُكَ فيهمُ ... ونكَّستَهم إذْ صارَ سهمُهُم نَكسَا
بواقعةٍ رجّت بها الأرضُ جيشَهم ... دماراً كما بُسَّتْ جبالُهُمُ بَسَّا
بطونُ ذئابِ الأرضِ صارتْ قبورَهُمُ ... ولم ترضَ أرضٌ أن تكونَ لهُم رَمْسَا
وقد خشَعتْ أصواتُ أبطالِها فما ... يعي السَّمعُ إلَّا من صليلِ الظُّبى هَمسَا[1]

---

[1] العماد الأصفهاني، الديوان، ص 234 ـ 235.

ويبدو أن نثر العماد يعطي صورة أكثر تفصيلاً للمعركة بمختلف أشكالها، فنجده يصور المعركة تصويراً دقيقاً بكل جوانبها، ويسير في وصفه للمعركة مع تسلسل أحداثها، ويتحدث عن مقدمات المعركة وما يلزم من استعداد وأُهبة، ثم ينتقل إلى أساليب القتال والخطط الحربية المتبعة عند الجانبين، ثم يخوض في أنواع المعارك البرية أو البحرية منها، وبعد ذلك أحداث المعركة ومجرياتها، ويُتبع ذلك بتصوير النتائج، ووصف حالة المنهزم، وآثار المعركة على الطرفين.

لقد اهتم العماد أثناء تصويره للمعارك بالحديث عن المقدمات التي تسبق المعركة، كتصوير مرحلة الاستعداد والتجهيز للمعركة، ووصف ما يقوم به القائد من تقسيم للجيش، وتحدث عن الخطط الحربية، وأساليب القتال في المعركة، ولعل هدف العماد من هذا التصوير، هو بيان مدى الاستعداد والجاهزية التي كانت تُبذل قبل التحرك لملاقاة العدو، وأن هذه المعركة كانت مرسومة على ورق قبل الشروع في تنفيذها، والنصر الذي تبعها، لم يأت من فراغ، بل جاء من جهود وعزائم تبذل الغالي والنفيس في سبيل جعل كلمة الله هي العليا، وبذلك يؤكد العماد على الدور القيادي الذي لعبه قائد المعركة في التجهيز والاستعداد لها.

وصف العماد المرحلة التي تسبق المعركة، والتي تشتمل على تقسيم الجيش إلى فِرق، وبيان المهام الموكلة إلى كل فرقة، وتعيين قائد لكل فرقة، وتحديد موقع الفرق في المعركة، ودور كلٍّ منها، وفي ذلك يقول العماد في وصفه استعداد صلاح الدين الأيوبي لقصد ديار الفرنج:" ووقف السلطان يوم العرض، يرتب العساكر ترتيباً، ويبوِّبه تبويباً، ويعبِّيه قريباً وبعيداً، وقرّر لكل أمير أمراً، ولكل مِقدام مقاماً، ولكل موفق موقفاً، ولكل كمين مكاناً، ولكل قرن قراناً....، وعين لكل أمير موقفاً في الميمنة والميسرة لا ينتقل عنه، ولا يغيب جمعه ولا يبرح أحد منه....، ووصى كلَّ حزب بما

يقربه من حزب ، وقال: إذا دخلنا بلد العدو فهذه هيئة عساكرنا، وصورة مواردنا ومصادرنا"[1].

وإلى جانب ذلك، كان القائد يتفقد الجيش قبل تحركه لملاقاة العدو، ويحثهم على الجهاد، ويزودهم بالإمدادات اللازمة، ويوزع عليهم العطايا والهبات، وفي ذلك يقول العماد:" وقوّى الآمال بما بذله من الأموال، وحقق في إنجاز المواعد وإنجاح المقاصد رجاء الرجال، وجمع العَدد وفرق العُدد، ووهب الجياد وأجاد المواهب، ورغّب في العطايا وأعطى الرغائب، ونثر الخزائن ونثل الكنائن، وأنفق الذخائر واستنفد كرائمها والأخاير "[2].

وبعد استكمال حالة الاستعداد والتجهيز للمعركة، يأتي وضع الخطط الحربية، التي يقرّها ويشرف عليها مجلس مشورة، ينعقد كلما دعت الضرورة لانعقاده، فحينما استعصت مدينة صور التي اعتصم بها الفرنجة، عقد السلطان صلاح الدين الأيوبي مجلس المشورة في سنة 583هـ، وقرر المجلس أن صور بلد حصين، يحتاج إلى استحضار كل ما يلزم للحصار من آلات وأدوات، ويصف العماد ذلك بقوله:" فجمع إليه أمراءه، واستحضر عظماء ملكه وخبراءه، وقالوا: هذا بلد حصين، ومكانه من الأرض مكين، في البحر ثلاثة أرباعه، وفي السماء ارتفاع يفاعه، وطريقه الذي يسلك من البر إليه، قد أحاط به البحر من جانبيه....، وكان من إحكام الحزم وإتمام العزم، تكميل الآلات وتتميمها، وتحصيل المنجنيقات وتقديمها....، واستحضار كل ما يراد للحصار، واستنفار كل ما يرام من الأنصار"[3].

---

(1) العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص 69 ــ 70.

(2) العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، ص70 .

(3) العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، ص157.

وبالنسبة للخطط الحربية وأساليب القتال، فقد تنوعت بحسب طبيعة كل معركة، واتبع القادة العسكريون الخطط والأساليب التي تضمن لهم تحقيق الانتصار بأقل التكاليف، نظراً لطبيعة الصراع المستمر بين المسلمين والفرنجة، ومن هذه الخطط والأساليب، الحرب الخاطفة، وحرب الكرّ والفر، والتمويه والخداع، والإغارة على معسكرات العدو ونهبها وسلبها.

ويذكر العماد أن صلاح الدين قد اصطنع حيلاً كثيرة للاستيلاء على صفد في سنة 584هـ، فقد نوّع في الخطط والأساليب الحربية، حتى تحقق له ما أراد، يقول في ذلك:" ودُمنا عليها إلى ثامن شوال، ونوعنا في افتتاحها الاحتيال، حتى أذن الله في الفتح، فسهلَّ ما تصعب، وحضر ما تغيب، وظهر ما تحجب"[1].

ومما يذكر بصدد خطط صلاح الدين الحربية، وتنوع أساليبه في قتال الصليبيين، أنه لجأ في سني صراعه الأخير مع الصليبيين إلى تخريب المدن التي عجز عن حمايتها، حتى لا يستفيد منها أعداؤه[2]، ومن ذلك تخريبه لمدينة عسقلان في سنة 587هـ، فقد عجز عن حمايتها؛ بسبب تحريكه لقواته، كي يحافظ على مدينة يافا، والتي يعني سقوطها في يد الأعداء خطراً حقيقياً على بيت المقدس، فهي أقرب إليه من مدينة عسقلان، يقول العماد في ذلك:" ووصل السلطان إلى عسقلان وشرع في هدمها بكرة يوم الخميس تاسع عشر شعبان......، فحينئذ لم يجد بداً من نقض أسوارها، وغضّ أنوارها، وفضّ سوارها، وتعفية آثارها، وتطفية نارها"[3].

ويحرص العماد في تصويره لمرحلة التحرك والمسير لملاقاة العدو على وصف الجيش الإسلامي وضخامته، وكأنه يبعث برسائل إعلامية للعدو، أشبه برسائل التهديد والوعيد، ومن ذلك وصف العماد للجيش الإسلامي، المتوجه إلى حصن بيت الأحزان،

---

(1) العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص 268 .

(2) حسين، محسن محمد، 1986م، الجيش الأيوبي في عهد صلاح الدين، مؤسسة الرسالة ـ بيروت، ط1، ص212 .

(3) العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص 550 .

في سنة575هـ، يقول:" فخرجنا في جيش فضَّ بالفضاء ختام قتامه، ....، وقدم الرّعب إلى الأعداء بأقدامه"[1].

وكان الفرنجة يعمدون إلى حشد جيوش جرارة؛ لتحقيق الانتصارات، معتمدين على ضخامة الجيش وكثرته العددية، وقد حرص العماد على تصوير جيشهم بالقوة والضخامة، ليُعظِّم الجيش الإسلامي الذي حقق انتصاراً على هذا الجيش الكبير، هذا من جانب، ومن جانب آخر، ليصور كثرة الإمدادات والنجدات، التي ترسلها أوروبا لأبناء جلدتها، في هذه الحرب التي اتخذت منحى دينيا، ومن ذلك وصف العماد لجيش الفرنجة القادم لحرب المسلمين، في سنة 586هـ، يقول:" وصل جارّاً على السماء ذيولَ قتامه، مجرياً في الأرض سيول لهامه، ثائراً بأطلابه لطلاب ثاره، سائراً بخيله ورجله كالسيل إلى قراره....، وأنه في مئين من الآلاف الأُلّاف للمنون، وأقطاب الإعطاب الدائرة لدوائر سُوئها رحى الحرب الزَّبون، وقد أوقدوا للشر شراراً، وأضرموا للشرك الداعي إلى النار ناراً "[2].

خاض المسلمون العديد من المعارك دفاعاً عن مقدساتهم، ومن أجل طرد المحتلين من ديارهم، وظهر صدى الوقائع الحربية عند العماد الأصفهاني بشكل صادق، وانعكس في أدبه بشكل جلي، ووصف المعارك الحربية بمختلف أشكالها وصورها، سواء أكانت المعارك البرية التي يحتدم فيها القتال ويشتبك الطرفان، أو المعارك البحرية التي خاضها المسلمون مع أعدائهم.

ونظراً لطبيعة الصراع المستمر مع الصليبيين، فقد احتدم المسلمون مع أعدائهم في معارك كثيرة، والعماد شاهد عيان في أغلب هذه المعارك نجده يرسم صوراً تفصيلية لمرحلة اللقاء والاشتباك مع العدو.

ومن المعارك الخالدة في التاريخ الإسلامي، معركة حطين في سنة583هـ، التي حقق فيها المسلمون انتصاراً مدوّياً على الصليبيين، ويصف العماد الليلة التي سبقت هذه المعركة، وقد ركز على الجانب الديني في تصويره حال العسكر الإسلامي قبيل المعركة، فالجنود يُكثرون من التكبير، وينتظرون المعركة بفارغ الصبر، ويتلهفون على

---

[1] العماد الأصفهاني، البرق الشامي، 175/3.

[2] العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص 397 .

الشهادة في سبيل الله، وكأني بالعماد يقول: من هنا يأتي النصر، وفي وصف ذلك يقول:" وأما عسكرنا فإنها اجترأت، ومن كل ما يعوقها برئت، فهذا لسنانه شاحذ، وهذا لعنانه آخذ، وهذا سهم مفوّق، وهذا شهم موفَّق، وهذا مكثر للتكبير، ومنتظر للتبكير، وهذا ناجٍ للسعادة، وهذا راجٍ للشهادة، فيا لله تلك من ليلة حرَّاسها الملائكة، ومن سُحرة أنفاسها ألطاف الله المتداركة"[1].

وبصف العماد مجريات هذه المعركة منذ البداية، ويحدد زمانها، وطريقة القتال، حين قام المسلمون بإشعال النار تحت الفرنجة، وكيف التقى عليهم حرّ النار وحر العطش، فيقول في ذلك:" وأصبح الجيش على تعبئته، والنصر على تلبيته، وذلك يوم السبت الخامس والعشرين من ربيع الآخر، وهو يوم النُّصرة، ووقوع الكسرة، وبرَّح بالفرنج العطش، وأبت عثرتها تنتعش، وكان النسيم من أمامها، والحشيش تحت أقدامها، فرمى بعض مطوعة المجاهدين النار في الحشيش، فتأجّج عليهم استعارها، وتوهَّج أوارها.....، فرجا الفرنج فرجاً، وطلب طلبهم المُحرج مخرجاً، فكلما خرجوا جُرحوا، وبرَّح بهم حَرُّ الحرب فما برحوا، وهم ظِماء، وما لهم ماء"[2].

ويستمر العماد بعد ذلك في نقل مجريات هذه المعركة، وتأثير أسلحة المسلمين على الفرنجة، وفتكها بهم، فقد حوّلت الأسود إلى قنافذ، وراحوا يبحثون عن عاصم يحميهم من فتك الجيش الإسلامي ، الذي يشبه الطوفان في التدمير،يقول:" فشوتهم نارُ السهام وأشوتهم، وصمَّمت عليهم قلوب القسي القاسية وأصمَّتهم، وأُعجزوا وأزعجوا، وأُحرجوا وأُخرجوا، وكلما حملوا رُدُّوا وأُردوا، وكلما ساروا وشدوا أُسروا وشُدُّوا، وما دبت منهم نملة، ولا ذَبَّت عنهم حملة، واضطرموا واضطربوا، والتهفوا والتهبوا، وناشبهم النُّشاب فعادت أسودهم قنافذ، وضايقتهم السِّهام فوسعت فيهم الخرق النافذ، فآووا إلى جبل حطين يعصمهم من طوفان الدمار، فأحاطت بحطين بوارق البَوار، ورشفتهم الظُّبى، وفرشتهم على الرُّبى، ورشقتهم الحنايا، وقشرتهم المنايا، وقرشتهم البلايا، ورقشتهم الرَّزايا"[3].

---

(1) أبو شامة المقدسي، الروضتين، 281/3.

(2) أبو شامة المقدسي، المرجع نفسه، 2/ 282.

(3) أبو شامة المقدسي، المرجع نفسه، 2/ 282 – 283.

هذا في ما يختص بمعارك المواجهة المباشرة مع العدو، وهنالك المعارك التي تتعلق بحصار المدن والقلاع، والتي غالباً ما تطول، ويختلف القتال فيها عن سابقتها، التي تعتمد على المواجهة والاحتدام، وبسبب بناء الصليبيين للكثير من القلاع، والاهتمام بتحصينها، فقد كثرت المعارك التي تعتمد على الحصار كأسلوب حربي متبع لهزيمة العدو.

وتبدأ معركة الحصار بالتخطيط، يليها تحرك الجيش إلى الحصن أو القلعة المستهدفة، وعند الوقوف على الحصن المراد حصاره أو القلعة، يُطلب من أهله تسليمه، فإن أَبَوا ذلك، يُشرع في الحصار، وتُنصب المنجنيقات، والأسلحة اللازمة لمهاجمة الأسوار، ومن ذلك ما قاله العماد الأصفهاني في وصفه لفتح حصن بُرزية[1]، حيث يصف منعته فيقول:" وهي أحصن القلاع وأفرعها، وأحسن التلاع وأرفعها، وأسمق الرواسي وأسماها، وأسنم الرواسخ وأسناها....، فرأيناها قلعة شماء في الذرا، لا تكاد من سُموها تُرى، وهي على سن من الجبل عالٍ، مترامية في السماء ارتفاعاً"[2].

وبعد الوصول إلى الحصن المراد، ينتقل العماد إلى وصف عملية الحصار للحصن، والأسلوب المتبع لفتحه، وكيفية نصب المنجنيقات، واستكمالاً لخطته، فقد قسم صلاح الدين الأيوبي عسكره ثلاث فرق تتناوب على قتاله، وبعد التراشق بالمنجنيقات، وثبات العدو أمام رمياتها المتلاحقة، رأى السلطان أن يميل إلى الزحف والقتال، حتى تعلق المسلمون بالسور، واستطاعوا دخول الحصن وتحقيق الانتصار، وفي ذلك يقول العماد:" ونصبنا عليها المجانيق في ذلك السفح، فلم تصافحها صفائحها وأبدت لنا صفحة الصفح، فقد بعد مرام مرماها، وحارت الأوهام فيها وقلنا ما أعلاها وما أسماها"[3].

---

[1] برزية: حصن قرب السواحل الشامية على سن جبل شاهق، يضرب بها المثل في جميع بلاد الافرنج بالحصانة، تحيط بها أودية من جميع جوانبها، فتحها صلاح الدين الأيوبي سنة 584هـ، انظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، 383/1.

[2] العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص 248 .

[3] العماد الأصفهاني، المرجع نفسه ، ص 248 .

ويبدو أن هذه الخطة العسكرية المعتمدة على الرمي بالمنجنيق لم تنجح، مما اضطر صلاح الدين إلى تغييرها، والاعتماد على الزحف والمواجهة ونقب الأسوار، ويصف العماد ذلك بقوله:"ولما رأى السلطان أنه لا وصول إلى نيقها بالمنجنيق، وأن الاشتغال به يطيل زمان التعويق، مال إلى الزحف، ولاحف جموعه في ذلك اللحف، وذلك في السابع والعشرين من الشهر يوم الثلاثاء، فقسَّم الناس ثلاثة أقسام على السواء....، وما زالت هذه النوبة تنازل وتقاتل، وتناضل وتطاول، وتَرمي وتُرمى، وتُدمى وتُدمي....، حتى كلت وملت، وانحلت وتخلت....، ولما ظهرت في النوبة النبوة، وكاد جوادها تناله الكبوة، تقدم السلطان بنفسه في النوبة الثانية، والسطوة الدانية، والعزمة الناوية غير الوانية، وخفَّ في الثقال من الرجال، وزحف إلى الجبل بالجبال....، وجاءت النوبة الثالثة تالية، وأقدمت أمدادها متوالية متعالية، وعادت النوبة الأولى لنشاطها، وزادت في انبساطها، فبلغوا وغلبوا، والتهموا والتهبوا، وتعلقوا بالسور، وتسلقوا كالنسور، وطلعت القلعة، وقلعت الطلعة، واقتضت العذرة، واقتضيت النصرة، وأعان القدر فقدر الأعوان، ونتجت بالفتح البكر الحرب العوان، وأن أهل القلعة لما أيقنوا أنهم مُلكوا، طلبوا الأمان حتى لا يهلكوا"[1].

وأثناء الحصار، قد يلجأ الجيش الإسلامي إلى عملية نقب الأسوار، وفتح فجوات فيها، ليتسنى للعسكر الدخول إليها، وهو عمل يقوم على مراحل، تبدأ المرحلة الأولى بتوزيع نقاط الضعف في السور على مجموعات من النقَّابين، وفي المرحلة الثانية يعمل النقَّابون على عمل فجوات وفتحات في السور، ثم حشوها بالحطب وإشعال النار فيها، وقد لا تنجح المحاولة من المرة الأولى، فيُحتاج حينها إلى معاودة النقب ثانية، ويتطلب ذلك تبريده بالماء، والعودة إلى العمل من جديد، وتكون المرحلة الأخيرة بإحداث فجوة في السور والعمل على توسيعها، ليتمكن أكبر عدد من المحاربين من الدخول إلى الداخل، ومن ذلك وصف العماد للاستيلاء على حصن بيت الأحزان[2]، في سنة 575هـ، فيقول:" وقلنا: هان الحصن ولان صعبه، ولم يبق إلا

---

[1] العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص 248 ـ 251.

[2] بيت الأحزان: بلد بين دمشق والساحل، كان الفرنج عمّروه وبنوا به حصناً منيعاً، فنزل عليه الملك الناصر يوسف بن أيوب ففتحه وأخربه، انظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، 519/1.

نقبه، ثم جمع الأمراء والكبراء، وفرّق عليهم البناء....، وأخذ السلطان النقب في الجانب الشمالي، وأنهض إليه حجّارين، للصخور بارين....، وتم النقب السلطاني وعلق، وحُشي بالحطب ليلة الإثنين وأُحرق، وظُنَّ أنه يتضعضع، وتُوقع أنه يقع، والنقب في طول ثلاثين ذراعاً وفي عرض ثلاثة أذرع في المقدار....، فما تأثر بالتعليق والتحريق، ولا أبان عن التشييد والتشديد....، فرأيت الناس للقِرب حاملين، ولأوعية الماء ناقلين، حتى أغرقوا تلك النقوب فخمدت، فعاد نقّابوها وقد بردت، فخرّقوه وعمّقوه، وفتحوه وفتقوه، وشقوا حجره وفلقوه، ثم علّقوه وحشوه....، ونحن ننظر إلى السور وقد طال الانتظار، ووقع في بطء وقوعه الاستشعار، ولما تعالى النهار، وعيل الاصطبار، وزال القرار، انقضَّ الجدار، فأبرّت البشرى وتباشرت الأبرار، وتسابق الناس إلى الثلمة، واجتلوا لمع الرحمة من فرج الزحمة"[1].

وتعتمد معارك الحصون والقلاع على الحصار الذي قد يطول، بهدف قطع المؤن والإمدادات عن المحاصرين، فيلتقي عليهم الحصار العسكري والاقتصادي، ويذكر العماد أن صلاح الدين الأيوبي جعل على الكرك عسكراً لحصاره بقيادة أخيه العادل، واستمر ذلك الحصار مدة طويلة حتى فنيت أزواد الصليبيين وذخائرهم، وضاق بهم الحال وراسلوا الملك العادل، في التسليم، وكان ذلك في سنة 584هـ، وفي وصف ذلك يقول العماد:" وقد غلق رهنه، وبقي داؤه معضلاً، وأمره مشكلاً، حتى فنيت أزوادهم، ونفدت موادهم، ويئسوا من نجدة تأتيهم، وأمحلت عليهم مصافيهم ومشاتيهم، فتوسلوا بالملك العادل، وأبدوا له ضراعة السائل، وتذرعوا بوسائل الرسائل، فما زالت الرسالات تتردد، والاقتراحات تتجدد، والقوم يلينون والعادل يتشدد، حتى دخلوا في الحكم، وخرجوا على السلم، وسلّموا الحصن، وتحصنوا بالسلامة، وخلصوا بإقامة عذرهم عند قومهم من الملامة"[2].

ولم يقتصر دور المسلمين على مواجهة أعدائهم براً، بل حاولوا اعتراضهم في البحر أيضاً، لأن الصليبيين اتخذوا منه وسيلة للوصول إلى البلاد الإسلامية، وتزويد جيوشهم بالإمدادات اللازمة لذلك، ومن أجل ذلك فقد أولى القادة العسكريون الأسطول

---

(1) العماد الأصفهاني، البرق الشامي، 3/ 178 ـ 180.

(2) العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص266.

عناية بالغة، وجهزوه بما يلزمه من عُدة[1]؛ ليقف في وجه أساطيل الصليبيين القادمة من أوروبا.

وقد شهد البحر كثيراً من المعارك الضارية، ظهرت في أدب العماد الأصفهاني بشكل جلي، من خلال تصويره للأساطيل البحرية، والأسلحة المستخدمة في القتال البحري، وتصوير المعارك التي جرت بين الطرفين.

ومن المعارك التي وصفها العماد، معركة بين أسطول السلطان صلاح الدين وأسطول الفرنجة في حصار عكا سنة 583هـ، ويصف فيها الأسطول الإسلامي واستعداده للمعارك، فيقول في وصفه:" وسفننا بالساحل عندنا مربوطة، وبحفظنا مضبوطة محوطة، ودامت تدب عقاربها، وتذب سواريها....، وتكسر بكواسرها وتدور بدوائرها، وتلاطم الأمواج بأمواجها، وتزاحم الأثباج بأثباجها، وترفع شرع الهداة بشراعها، وتقلع عرش الغواة بأقلاعها، وتنقض على شياطين الكفر شهبها"[2].

ويرسم العماد صورة مفصلة لمجريات المعركة البحرية، وتحقق النصر للمسلمين في نهايتها، ففي سنة 578هـ، قام صاحب الكرك ببناء سفن ونقلها على الجمال إلى الساحل، وكانت هذه السفن تقطع طريق التجار، وتهدد المسافرين في البحر، ثم توجه بها إلى أرض الحجاز، وشكلت خطرا على المدينة النبوية[3]،وتصدى الأسطول الإسلامي له بقيادة حسام الدين لؤلؤ[4]، وفي ذلك يقول العماد:" ووقع بها بعد أيام فأوقع بها وواقعها، وقطّع قطعها، ونسف بريح بأسه سفنها، وأزارها وهي هاوية وهيها ووهنها، فخرجت إلى بعض سواحل البرية بشعابها محتمية، وفي تلالها مرتقية، وبقتالها مبتدئة، ومن اغتيالها مختشية، فلم يزل الحاجب لؤلؤ نلكب مراكبها، وراكب مناكبها،

---

(1) انظر: العريني، السيد الباز، 1967م، الشرق الأدنى في العصور الوسطى(الأيوبيون)، دار النهضة العربية للطباعة والنشر ـ بيروت، ص 172.

(2) العماد الأصفهاني، الفتح القسي، 160.

(3) انظر: الروضتين، 3/133ــ134.

(4) حسام الدين لؤلؤ الحاجب: مقدم الأسطول في الدولة الصلاحية، اشتهر بالشجاعة والإقدام، توفي سنة 596هـ، انظر: الروضتين، 4/ 466 ـ467.

حتى أزالها وأزلها، وفلَّ فلَّها، وأشلَّها وسلَّها، وهجم على كثرتها فاستقل إليها واستقلها"[1].

ومن الأساليب والخطط الحربية المتبعة في البحر، أسلوب التمويه والتضليل، وقد يكون الهدف منه إدخال المعونة والمدد إلى المحاصرين، ففي سنة 586هـ، كانت مدينة عكا ترزح تحت حصار الفرنجة، ونفدت أقوات المحاصرين في الداخل، فأمر السلطان صلاح الدين الأيوبي بتجهيز سفينة محملة بالإمدادات إلى مدينة عكا، وكانت الخطة تقتضي أن يتخذ ركاب السفينة هيئة الفرنجة، ليتمكنوا من الدخول، وتحقق الهدف المنشود، ويصف العماد الأصفهاني هذه الحادثة بقوله:" وهذه بطسة[2] من الفرنج مأخوذة، وهي بساحل بيروت منبوذة، فأمر السلطان بترميمها وتتميمها، وإخفاء البغية منها وتكتيمها، وأزيحت منها العلّة، ونقلت إليها الغلّة، وملئت بالشحوم واللحوم، وبكل ما تدعو إليه الحاجة من المشروب والمطعوم....، وأرادوا أن تشتبه ببطس العدو في البحر، وألّا ينكشف للفرنج ما لها من الستر، فتصوروا رهباناً، وصوروا صلباناً، ومسحوا لحاهم، ومسخوا حلاهم....، وشدوا زنانير، واستصحبوا خنازير، وساروا بها في البحر بمراكب الفرنج مختلطين، وإلى محادثتهم ومجاذبتهم منبسطين....، فلما حاذوا بها عكا صوبوها نحوها، والريح تسوقها، والفرنج تدعوهم من مراكبها وتقول ما هذه طريقها...، فدخلت الثغر، وأدخلت إليه كل خير"[3].

ويُعد أسلوب المباغتة، من الأساليب المتبعة أيضاً في المعارك البحرية، كونه يحقق نتائج إيجابية في المعركة، ومن ذلك وصف العماد لمعركة بحرية، برز فيه أسلوب المباغتة، يقول:" فجاءت فجأة وسفن العدو كالجبال تمر مرَّ السحاب، وتطوي اللجة كطي السجل للكتاب، فصدتها وصدعتها، وردتها وردعتها، فكأنما نعبت غربانها

---

[1] العماد الأصفهاني، البرق الشامي، 5/ 70 ـ 71.

[2] البطسة : ضرب من السفن، تستخدم للحرب أو التجارة، انظر: دوزي، تكملة المعجم العربية، 1/ 370.

[3] العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص 417 ـ 418.

ببين أحبة الكفر أعاديها....، وعادوا محصورين محسورين قد دفعت مراكبهم التي دفعت عن مباركهم، وأيقنوا أنهم تورطوا في مهالكهم"[1].

وبعد كل معركة خاضها المسلمون، تتكشف النتائج، وتكون نصراً أو هزيمة، وتسفر عن قتلى وجرحى، وأسرى وسبايا، وغنائم وغيرها مما يفوز به المنتصر، ولا يخفى أن أدب العماد صور الكثير من المعارك، منذ تحرك الجيش إلى أرض المعركة، وحتى النهاية التي تتمثل بالنصر أو بالهزيمة، وكان العماد يوازن بين صورة المنتصر وصورة المنهزم، فيقول في تصويره للنصر الذي حققه نور الدين على الصليبيين سنة568هـ، وأثر ذلك على الطرفين:

وقدْ استفادَ المشركونَ تعازياً   والمسلمونَ تهانيــاً بتهــانِ[2]

أما فيما يختص بالهزيمة، فنجد عند العماد صوراً كثيرة، يرسم من خلالها الأثر النفسي للمنهزم، هذا الأثر الذي يعتمد على الخوف، وحالة من الاضطراب النفسي، ومن ذلك ما قاله العماد في وصف الأعداء هاربين، لشدة الهزيمة التي حلت بهم:

ولّوا وقلبُ شجاعِهِـم في صدره ِ   كالسَّيفِ يُرعد في يمينِ جبانِ
ولّى وجــوهَهمُ سوادُ وجــوهِهم   نحـوَ السَّـوادِ وآذنـُوا بهــوانِ[3]

وفي موقف آخر، يصور العماد حالة الرعب والخوف التي سيطرت على الأعداء، ويرسم صورة لذلك بقوله:

تمكّن الرُّعبُ في قلبِ العدوِّ بها   تمكُّن النَّار بالإحراقِ في الفحمِ[4]

ومن الصور الجميلة، التي يصور العماد من خلالها الأثر النفسي للمنهزم، تصويره لحال الفرنج بعد هزيمتهم، وتبدل أحوالهم، يقول:" وعادوا ثعالب يروغون وكانوا كالآساد، ونزلوا من سماء العز إلى أرض الهوان، فأذعنوا للضراعة وتضرعوا بالإذعان"[5].

---

(1) العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص341.
(2) العماد الأصفهاني، الديوان، ص416.
(3) العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، ص413.
(4) العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، ص381 .
(5) العماد الأصفهاني، الفتح القسي، 268 ـ 269.

أما إذا كانت الهزيمة في صفوف المسلمين، فإننا نجد في أدب العماد ما يواسي المسلمين، ويحثهم على الجهاد من جديد، وما يهون من شأن الهزيمة ويقلل من أثرها، فعندما استولى الفرنج على عكا في سنة 587هـ، كتب العماد إلى صلاح الدين مواسياً:" وإن ذهبت مدينة فلم يذهب الدين، وإن غاض معين فما غاب المُعين، وإن ارتاب المبطلون فما فارق الحق اليقين ....، وإن ادلهَّم الديجور، فلا بد أن يسفر عن الصبح الدجى، ولا يشمت عدو الإسلام بما جرى"[1].

ومما يترتب من نتائج للمعركة بعد انحسارها، معاهدات الصلح والمهادنة، التي يُعلن بموجبها عن توقف القتال وإحلال السلم بدلاً منه، ضمن شروط معينة يتفق عليها الطرفان، وكانت مصلحة المسلمين تراعى في الدرجة الأولى، عند النظر في أي عرضٍ للصلح يأتي من الجانب الآخر، ويتم الرد عليه بعد استشارة أصحاب الرأي والمشورة من المسلمين، ومن ذلك الكتاب الذي بعث به السلطان صلاح الدين الأيوبي إلى ديوان الخلافة، إثر إفضاء الأمر بين المسلمين والفرنجة إلى الهدنة، في سنة 588هـ، يقول العماد:" ولقد كان الخادم للسلم متكرِّهاً، ولا يرى أن يكون كشيمة ملوك العصر عن الغزو مترفهاً، لكنه أجمع من عنده من الأمراء وذوي الآراء على أن المصلحة في المصالحة راجحة، وأن صفقة الكفر فيها خاسرة، وصفقة الإسلام رابحة"[2].

أما الفرنجة، فإن مصلحتهم هي الدافع الحقيقي لطلب الأمان والمهادنة، فإذا أحسُّوا بالخطر المحدق بهم سارعوا إلى طلب الصلح، وعجلوا في طلبه، ففي سنة 584هـ، أرسل ملك أنطاكية رسولاً إلى السلطان صلاح الدين الأيوبي، يطلب الهدنة بعد أن أشرف على الهلاك، ويصف العماد تفاصيل هذه الهدنة، فيقول:" وكان الإبرنس[3] صاحبها قد عجّل بإرسال أخي زوجته، يسأل في سلم يعود ببقاء بهجته، وسلامة مهجته، وعقد الهدنة على بلده، وأمن ما في يده، وذلك لثمانية أشهر من

---

(1) العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص 519.

(2) العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، ص 608 .

(3) الإبرنس: بمعنى الأمير، وهي تعريب كلمة prince الفرنسية، انظر: دوزي، تكملة المعاجم العربية، 317/1.

تشرين إلى آخر أيار، ووافق السلطان على الاختيار، لكون انقضاء الهدنة قبل إدراك الغلة وأوان حصادها، فلا يقدر الفرنج على تحصيلها ونقلها وإعدادها، ولم يكن له رغبة في الصلح، لكمال الغبطة لنا في الحرب ووفور الربح، لكن العسكر الغريب ملَّ الإقامة، وأبدى السآمة، وأراد السلم والسلامة....، وشرط على صاحب أنطاكية إطلاق من في الأسر من المسلمين، واستوفى رسولها على عقد هدنة اليمين"[1].

ويبدو أن السلطان صلاح الدين الأيوبي لم يكن له رغبة في الصلح، ولم يجب ملك أنطاكية إلا بعد أن تحققت له مصلحة المسلمين في الصلح، فالعساكر التي تمّ حشدها من الأماكن النائية ملَّت من طول الإقامة، وهي بحاجة إلى الراحة والأمان، أما فترة الصلح الوجيزة، فلا يستطيع الأعداء استرداد قوتهم، بسبب انقضاء الهدنة قبل حصاد الغلة، كما أن إطلاق أسرى المسلمين كان شرطاً لإتمام الهدنة، وبذلك تكون مصلحة المسلمين.

وقد يتظاهر المسلمون بعدم قبول طلب الأمان، ليتمكنوا من فرض شروطهم المبتغاة، وحتى يضطر الطرف الآخر للقبول بها، ومن ذلك طلب الفرنجة الأمان في بيت المقدس، عندما حاصرهم السلطان صلاح الدين الأيوبي سنة 583هـ، فقد تمنّع السلطان عن طلبهم للأمان، من باب تحقيق أفضل الشروط للمسلمين، وفي ذلك يقول العماد:" وتمنع السلطان وتسامى في سومه، وقال: لا أمن لكم ولا أمان، وما هوانا إلاّ أن نديم لكم الهوان، وغداً نملككم قسراً، ونوسعكم قتلاً وأسراً، ونسفك من الرجال الدماء، ونسلط على الذرية والنساء السَّباء، وأبى في تأمينهم إلا الإباء، فتعرضوا للتضرع، وتخوفوا وخوّفوا عاقبة التسرع"[2].

كما أن بعض الهدن قد ينص على مدة الهدنة، أو أية بنودٍ أخرى يتفق عليها الطرفان، كأن يتم ذكر الأماكن والمدن الداخلة في الهدنة، ومن ذلك ما قاله العماد في ذكره للهدنة العامة بين المسلمين والفرنجة في سنة 588هـ، يقول:" فحضرت لإنشاء عقد الهدنة وكنت نسختها، وعينت مدتها، وبينت قضيتها، وذلك في يوم الثلاثاء الحادي والعشرين من شعبان، سنة ثمان وثمانين، الموافق لأول أيلول، لمدة ثلاث

---

(1) العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص260 ـ 261.

(2) العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، ص126 .

سنين وثمانية أشهر، وحسبوا أن وقت الانقضاء يوافق وصولهم من البحر، وتتصل أمدادهم على الحشد والحشر، وعُقدت هدنة عامة في البر والبحر، والسهل والوعر، والبدو والحضر، وجُعل لهم من يافا إلى قيسارية إلى عكا إلى صور، وأبدوا بما تركوه من البلاد التي كانت معهم الغبطة والسرور، وأدخلوا في الصلح طرابلس وأنطاكية، والأعمال الدانية والنائية"(1).

ونتيجة لكثرة المعارك التي خاضها المسلمون ضد أعدائهم، كان يتبع ذلك وقوع كثير من جنود العدو أسرى في قبضة المسلمين، وكان الحديث عن الأسرى مجالاً للفخر، لا سيما حين يكون الأسير ملكاً أو أميراً، ويُبرز العماد ذلك على أنه نصر ودليل تفوق على الخصم، ومن ذلك وصفه لملوك الصليبيين الذين وقعوا في قبضة السلطان صلاح الدين الأيوبي في معركة حطين، فيصف حالهم مأسورين مصفَّدين بالأغلال، فيقول:" وجلس السلطان لعرض أكابر الأسارى، وهم يتهادون في القيود تهادي السكارى"(2).

وفي موضع آخر يشبهم العماد وهم يشقون طريقهم بتثاقل إلى خيمة صلاح الدين وسط بحر من الدماء، بسفن مثقلة ربطت بالحبال الغلاظ في المرساة، فيقول:

تُقَادُ بدَأ مَاءِ الدِّماءِ ملوكهُــم   أُسارَى كسفنِ اليمِّ نطَّت بها القَلسَا(3)

وعن معاملة الأسرى بعد وقوعهم في الأسر، يحدثنا العماد عن المعاملة الرفيقة لإحدى ملكات الفرنجة، وكيف منَّ عليها السلطان صلاح الدين الأيوبي بإطلاق سراحها، وخروجها من بيت المقدس بعد فتحه، فقد جعلها تخرج معها ما تريد، ويدلل ذلك على كيفية تعامل المسلمين الإنساني مع الأسرى، ونُبل الأخلاق التي يتمتع بها القائد المسلم، يقول العماد:" وكانت في القدس ملكة رومية مترهبة، في عبادة الصليب متصلّبة، وعلى مصابها به مُلتهبة، وفي التمسك بملَّتها متصعبة متعصبة، أنفاسها متصاعدة للحزن، وعبراتها متحدرةٌ تحدر القطرات من المزن، ولها حال ومال وأشياء وأشياع، ومتاع وأتباع، فمنَّ عليها السلطان وعلى كل من معها بالإفراج، وأذن في

(1) العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص605 .

(2) العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، ص80.

(3) العماد الأصفهاني، الديوان، ص235.

إخراج كلِّ ما لها في الأكياس والأخراج، فراحت فرحى، وإن كانت من شجنها قرحى"[1].

وإن لم يكن هناك منٌّ على الأسرى بإطلاق سراحهم، يكون الفداء، بأن يقوم الأسير بفداء نفسه بالمال، وقد ذكر العماد أن صلاح الدين حدد المبلغ المطلوب لأهل القدس بافتداء أنفسهم، وأمهلهم أربعين يوماً للوفاء، وإلا أُخذوا عبيداً، وفي ذلك يقول العماد:" واشتروا بها من أنفسهم وأموالهم، وخلّصوا بها رجالهم ونساءهم وأطفالهم، على أنه من عجز بعد أربعين يوماً عمَّا لزمه، أو امتنع منه وما سلّمه، ضُرب عليه الرِّقّ، وثبت في تملكه لنا الحقّ، وهو عن كل رجل عشرة دنانير، وكل امرأة خمس دنانير، وكل صغير أو صغير ديناران"[2].

أما في حال لم يطلق سراحهم، ولم يفدوا أنفسهم بالمال، فالسجن هو الخيار أمامهم، فإنهم يبقون فيه انتظاراً لموقف يتم تبادل الأسرى فيه، أو أن يمنُّ عليهم المسلمون بإطلاق سراحهم، وفي ذلك يقول العماد:" وطال أسر الباقين، فمنهم من هلك وهو عان، ومنهم من خرج بقطيعة وأمان"[3].

وفي بعض الأحيان، كان المسلمون ينتقمون من الأسرى ؛ لأنهم ارتكبوا جرائم شنيعة لا تغتفر، كما فعل مع أرناط صاحب الكرك[4]، والذي نقض العهود مع المسلمين غير مرة، وحاول نبش قبر النبي عليه الصلاة والسلام، فقتله صلاح الدين بيده[5]، وممن كان يشكل خطراً على المسلمين، ما يعرف بالدَّاوية[6]

---

(1) العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص 128.

(2) العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، ص 127 .

(3) العماد الأصفهاني، البرق الشامي، 166/3.

(4) هو رينالد دي شتيون، أمير الكرك(572 ـ 583هـ)، انظر: الحسو، أحمد عبد الله، 2005م، الكرك عبر العصور، منشورات وزارة الثقافة، عمان ـ الأردن، ص48 .

(5) انظر: الروضتين، 288/3 ، الفتح القسي، ص80.

(6) الدَّاوية: قوم من الإفرنج، وقفوا أنفسهم على قتال المسلمين، وأصبحت هذه الفرقة هيئة حربية دينية، انظر: مقامي، نبيلة إبراهيم، 1994م، فرق الفرسان الرهبان في بلاد الشام، مطبعة جامعة القاهرة، ص 16.

والإسبتارية[1]، وكان صلاح الدين يأمر بقتلهم في الحال، لما يحملونه من عداوة أذى شديد للمسلمين، ومن ذلك ما ذكره العماد في ضرب صلاح الدين لرقاب الأسارى الداوية والإسبتارية وقال:" أنا أطهر الأرض من الجنسين النجسين، وجعل لكل من يحضر منهما أسيراً خمسين، فأحضر العسكر في الحال مئين، وأمر بضرب أعناقهم، واختار قتلهم على استرقاقهم"[2].

ويشير العماد الأصفهاني في أكثر من موضع إلى كثرة الأسرى، فقد رأى العماد الأسرى مقيدين بالحبال بعد معركة حطين، ولم تكفهم حبال الخيم لربطهم بسبب كثرتهم، حتى إن فارساً يقود عدداً كبيراً من الأسرى، يقول العماد في وصف كثرتهم :" وأما من أسر، فلم تكف أطناب الخيم لقيده وشده، ولقد رأيت في حبل واحد ثلاثين وأربعين يقودهم فارس، وفي بقعة واحدة مائة أو مئتين يحميهم حارس"[3].

وعن كيفية تعامل الصليبيين مع الأسرى المسلمين، فقد كان الأسرى المسلمين يتعرضون لسوء المعاملة من آسريهم، قد تصل لدرجة الغدر بهم وقتلهم، ويشهد على ذلك غدرهم بأسرى المسلمين في عكا سنة 587هـ، حين قتلوا الأسرى بعد أن منحوهم الأمان، وفي ذلك يقول العماد:" وكان الملاعين قد أحضروا أسارى المسلمين في الحبال واقفين، وحملوا عليهم وقتلوهم بأجمعهم، وألقوهم على مصرعهم"[4].

وكان المسلمون يأخذون بعين الاعتبار، حال الأسرى المسلمين عند الفرنجة، بعد كل معركة يخوضونها، ويحاولون افتداء ما يستطيعون من أسرى المسلمين، وعرف الفرنجة مدى تعلق المسلمين بافتداء أسراهم، حتى إنهم كانوا يتقربون للمسلمين بإطلاق سراح الأسرى، ومن ذلك ما فعلوه عندما أطلقوا سراح أسرى المسلمين، كبادرة حسن نية لطلب الصلح والأمان، ويصف العماد ذلك بقوله:" وراسلوا السلطان، وسألوا الأمان،

---

[1] الإسبتارية: طائفة من الفرسان الدينيِّين، تأسست بعد استيلاء الصليبيين على بيت المقدس، عُرفت باسم فرسان المستشفى، انظر: نبيلة مقامي، فرق الفرسان الرهبان في بلاد الشام، ص14.

[2] العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص86 .

[3] العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، ص 83 .

[4] العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، ص 528 .

واستمهلوا خمسة أيام لينزلوا بأموالهم فأُمهلوا....، وتقربوا بإطلاق الأسارى المسلمين، وترقبوا انقضاء المهلة لسلامة المسلّمين، فخرج المأسورون مسرورين....، وسُرَّ بهم السلطان وسَرَّبهم، وأقرهم وقربهم....، وهذا دأبه في كل بلد يفتحه ، ومُلك يربحه، أنه يبدأ بالأسارى فيفك قيودها، ويعيد بعد عدمها وجودها، ويحيي بعد اليأس آمالها، ويوسع أرزاقها بعدما أجال عليها ضيق الأسر آجالها، فخلص تلك السنة من الأسر أكثر من عشرين ألف أسير للقيود إلف، ووقع في أسرنا من الكفار مائة ألف"[1].

أما السبايا، فلا يجوز قتلهن، وإنما يصرن رقيقاً للمسلمين، ويصور العماد كثرة السبايا، وقد ملأت مدن المسلمين، وعُرضت في كل مكان، وبيعت بأبخس الأثمان، فيقول:

سبايَـا بـلادُ اللهِ مملوءةٌ بهـــــا وقد شُريت بَخساً وقد عُرضت نَخسا

يُطافُ بها الأسواق لا راغبٌ لها لكثرتِهــا كـم كثرةٍ تُوجـب الوَكســا[2]

ويصور العماد كثرة السبايا لدى المسلمين، ويتفنن في وصف أنواع السبايا، وقد تملكهن المسلمون، فيقول في ذلك:" من كل غانية عانية، ورقيقة رقيقة، ومصابة مُصبية، ومسبية مصبية، ومجلوة مجلوبة، وسالبة مسلوبة، ودمية دامية، وجارية لطيفة بالعنف جارية، وأسيرة من أُسرة، وحاسرة عن حسرة، وثاكلة لواحدها، وآكلة لساعدها، وعاضَّة على يديها، وفاضة ختم الدمع على خديها"[3].

ويبدو أن العماد الأصفهاني، لم يصور المعارك والحروب التي خاضها المسلمون تصويراً مجرداً، بل من خلال أحاسيس ومشاعر، وتطلعات وأمل بتحقيق النصر ودحر الأعداء.

4.2 الجيش الإسلامي

اهتَّم قادة الجهاد الإسلامي بالجيش أيّما اهتمام، كونه يحمل راية الجهاد المقدس ضد أعداء الأمة، وعملوا كذلك على تقوية هذا الجيش الذي يشكل أمل الأمة

---

[1] العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص 100 ـ101 .

[2] العماد الأصفهاني، الديوان، ص 235.

[3] العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص 93 .

في تحرير المقدسات، وتطهير الأرض من رجس الفرنجة، ورسم العماد في أدبه صوراً متعددة لهذا الجيش، فصوره في حالة الاستعداد والتعبئة والانطلاق إلى أرض المعركة، وتحدث عن المؤسسات المساندة لهذا الجيش أثناء حركته، ومن خلال وصف الجيش تحدث العماد عن قادته وأبطاله وعناصره، فوصف بأسهم وشدتهم في القتال، ووصف صمودهم في وجه أعدائهم، كما أنه وصف ما يتصل بهذا الجيش من أسلحة وأدوات قتال، كان لها بالغ الأثر في الأعداء.

وأول هذه الصور التي يرسمها العماد للجيش، صورة التحفز قبل الانطلاق واستدعاء العسكر، فكان يتم حشد الجيوش واستنفارها حسب انتمائها إلى الأقطار والبلاد، لتتجمع فيما بعد استعداداً للمعركة، ووصف العماد في سنة 583هـ، ما قام به السلطان صلاح الدين الأيوبي من إرساله للكتب طلباً للعساكر واستعداداً للجهاد، يقول:" وكتب الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب إلى الأقطار والبلاد، يستدعي من جميع الجهات جموع الجهاد، وأهَّلَ للاستدعاء أهل الاستعداد، واستحضر الغزو من الحضر والبدو"[1].

وفي مرحلة التجمع هذه، تتوافد العساكر من الجهات والأمكنة كافة ، ويذكر العماد في تصويره الإعداد والتجهيز لمعركة حطين اجتماع " العساكر الشامية والفراتية، والجزرية والموصلية والديار بكرية"[2]، ولكل عسكر منها مقدم يقودها، وبعد اكتمال وصول العساكر، يجري عرضها وترتيبها استعداداً للانطلاق، وفي ذلك يقول العماد:" فلما تكامل منا الجمع، وأخذ بعجاجه وعجيجه على الآفاق البصر والسمع، عرضنا عساكرنا في يوم يذكّر بيوم العرض"[3].

وغالباً ما كان يتم استدعاء العسكر واستنفاره في فصل الربيع، فإذا دخل فصل الشتاء سُرّحت الجنود للاستراحة والعودة إلى أوطانها، ويصف العماد ذلك بقوله:" وقد دخل الشتاء وبرد الهواء، وجادت السماء وتواترت الأنواء، وتواصلت الأنداء، ولا بد من

---

[1] العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص 58 .

[2] العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، ص192 .

[3] العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، ص 193 .

استئناف جمع العساكر في أيام الربيع، واستمداد النصر الذي يضم لاستجداد الفتح شمل الجميع....، وفسحنا لأجنادنا في الاستراحة مدة شهرين"[1].

وبعد استكمال التجمع وعرض الجيش، تبدأ مرحلة أخرى، هي مسير الجيش وتحركه، وتكون علامة التحرك هي دق الكوس[2] ونعر الأبواق، وهي إيذان بالانطلاق والمسير، ويصف العماد جيش صلاح الدين وقد تحرك لفتح عكا في سنة 583هـ، ويصفه بالجيش المتحمس المتحفز للقتال، والذي لا يقف في طريقه أيُّ شيء، يقول العماد:" ورحل السلطان ظهر يوم الثلاثاء ظاهراً على أهل التثليث، مديلاً للطيب مزيلاً للخبيث، وسار عسكره وثار عثيره، وظهرت راياته، وبهرت آياته، ونعرت كوساته، وصاحت بوقاته، وجالت خيوله، وسالت سيوله، وطلعت في سماء العجاج نجوم خرصانه، وقلعت قلائع تلك الجبال جبال فرسانه...." [3].

وأول ما ينطلق من وحدات الجيش هي الفرق الاستطلاعية والاستكشافية وتسمى "اليزك"[4]، ومهمتها استطلاع تحركات العدو، ومعرفة مدى قوته من حيث التعبئة وأنواع الأسلحة والمؤن، وكان لهذه الفرقة دور مهم في الحروب التي شهدها العماد، فعلاوة على الاستطلاع والاستكشاف، كانت هذه الفرقة تقاتل الفرنجة في مناسبات عديدة، ومن ذلك وصف العماد لهذه الفرقة، والنصر الذي حقَّقته وأثره النفسي على المسلمين، يقول:" وجرت أيضاً يوم الجمعة ثاني عشر الشهر حرب بين اليزكية وبين أهل الكفر، سفرت لنا بها وجوه النصر، وقُتل مقدم لهم معروف، بالشجاعة موصوف"[5].

وعند الحديث عن الجيش الإسلامي، يلزمنا التوقف عند عناصر ومكونات هذا الجيش، ودور جميع العناصر الإسلامية فيه، وتكاتفها فيما بينها في إحراز النصر،

---

[1] العماد الأصفهاني، الفتح القسي ، ص 199 .

[2] الكوس: هي صنوجات من نحاس تشبه الترس الصغير، يُدقُّ بأحدها على الآخر بإيقاع مخصوص، القلقشندي، صبح الأعشى، 9/4.

[3] العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص 88.

[4] اليزك: لفظ فارسي معناه طلائع الجيش، ابن واصل، مفرج الكروب، 38/2 .

[5] العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص552.

ويتحدث العماد عن هذه العناصر التي تكوّن منها الجيش الإسلامي، وصّور فعلهم بالأعداء، فيقول:

حملتْ عليهم من جنودِك فتيةٌ لم تدرِ غيرَ حميَّةِ الفتيـــانِ
واليارقيَّةُ أرَّقتهُم فـي الدُّجـــى بسهـامِ كـلِّ حنيَّـةٍ مِرنـــانِ[1]
وكأنَّما الأكرادُ فوقَ جِيادِهـــا عِقبانُ مُلحَمةٍ على عِقبـــانِ
لم يترِكِ الأتراكُ فيهـم غايـــةً بالفتـكِ والإرهاقِ والإثخـــانِ
ولكَ المماليكُ الذينَ بهم عَنَتْ أملاكُ مصرَ لمالكي بغـدَانِ
للروم والإفرنجِ منـك مصائـبٌ بالتُّركِ والأكـرادِ والعُربـــانِ[2]

ولا يخفى أن هذه الأبيات تمثل التكامل بين فرق الجيش الإسلامي المختلفة، والتي يربط بينها نصرة الدين الإسلامي، فذكر العماد هذه الفرق ونوّه بدورها في إلحاق الهزيمة بالأعداء، فاليارقيّة أزعجوا العدو بسهامهم المتلاحقة، والأكراد بسرعة كرّهم على العدو، والأتراك فتكوا بالعدو وأثخنوه بالجراح، وكذلك فعل المماليك والعُربان، فكلٌّ أدّى دوره على أكمل وجه، ويبدو أن العماد ذكر هذه الفِرق بأسمائها؛ ليؤكد على أن النصر جاء حصيلة أعراق وجنسيات مختلفة، توحدت فيما بينها لرفع راية الإسلام خفاقة.

أما عن كثافة هذا الجيش، فيصوره العماد كالبحر الزاخر وكالسيل الجارف، بل كالطوفان الذي يأخذ في طريقه كل شيء، وهو وصف يدل على التعظيم، لاستثارة الهمم ورفع الروح المعنوية لأفراده، ومن ذلك وصفه لجيش صلاح الدين في سنة 571هـ، يقول:

قدْ كانَ جيشكُم كبحرٍ زاخرٍ واللابسُـونَ جَواشناً حيتانُهُ
فطَمَى لِهُلْكِهِمُ عليهم بَحركُم بأسـاً وغرَّق فُلكَهُم طُوفانُه[3]

---

(1) اليارقيّة: نسبة إلى قبيلة الياروقي التركمانية، انظر: جب، هاملتون.آ. ر، 1996م، دراسات في التاريخ الإسلامي، صلاح الدين الأيوبي، حرّرها يوسف ايبش، بيسان للنشر والتوزيع ـ بيروت، ط2، ص 154.

(2) العماد الأصفهاني، الديوان، ص413 ـ 417.

(3) العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، ص 436 .

ويشير في موضع آخر إلى هذه الكثرة العددية، ودورها في رفع المعنويات، ويبيّن فعل هذا الجيش على العدو وفتكه به، يقول:

وَلَرُّبَ مَجْـرٍ رائـــعٍ حَمَلاتُـــهُ وتخالُهُ في الزَّحف سيلَ مُدَهدَهِ

يُقري العواسلَ من فرائسِ أُسْدِهِ لحماً بنار البيضِ مُشعَلَةً طُهِي[1]

ويرسم العماد صورة لهذا الجيش في كثرته، حتى أن الغبار الذي يثيره هذا الجيش عند تحركه، قد حجب الشمس عن الأرض، وفي ذلك يقول العماد:

إذا أطلقَ الملكُ المظَفَّرُ في الوغى أعِنَّتهُ فالشَّمسُ بالنَّقعِ تُحبسُ[2]

ولا ينسى العماد شجاعة هذا الجيش، وعزمه على مواصلة الجهاد وتحرير البلاد، فيصور جنده بالأُسود، وقد اصطبغت أجسامهم بالحديد، وبالشجعان الذين لا ترهبهم المنية، ولا يخشون عدوهم، فهم فرسان يبذلون أرواحهم دفاعاً عن دينهم، وفي وصفهم يقول العماد:

لِلّهِ جيشٌ بالمروجِ عرضتَــهُ أُسْدُ العريـــنِ رجـالُـهُ ورماحُــهُ

ومـنَ الحديـدِ سوابغاً أبدانُـهُ ومـــن المَضاء عزائمــاً أرواحُــهُ

ولهُ فوارسُ بالنُّفوس سماحُها أتُعادُ بالعِرض المصونِ شِحاحُهُ[3]

ويتحدث العماد عن رجال الجيش الإسلامي، فيصف شجاعتهم وبطولتهم، ويمجدهم بأعظم الصفات الدالة على القوة والبأس، ومن ذلك قوله:" وقد جاش الجيش بقساور قساوة، وضراغم ضراوة، وليوث كفاح، وكباش نطاح، وأقران قران وقراع....، ومثيري عجاج ومديري هياج...."[4].

ومن الصفات التي رسمها العماد لصورة الجيش الإسلامي، قوته التي تبعث الرعب في قلوب الأعداء قبل لقائه، مما يجعل الأعداء يحسبون ألف حساب قبل ملاقاة هذا الجيش، وهنا تظهر الحرب النفسية التي يهدف من ورائها العماد إلى تحطيم

---

(1) العماد الأصفهاني، الديوان، ص 451 .

(2) العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، ص 238 .

(3) العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، ص 111 .

(4) العماد الأصفهاني، البرق الشامي، 176/3 .

معنويات الأعداء، وإذكاء الروح الحماسية لدى العسكر الإسلامي، ومن ذلك قوله في وصف جيش صلاح الدين الأيوبي، في سنة571هـ:

سرايــاكَ تبعـثُ قدَّامهـــا　　　من الرُّعبِ نحوَ الأعادي جُيوشَا[1]

ويحاول العماد أن يربط بين قوة هذا الجيش، والدعم الإلهي الذي يتلقاه من السماء، فالسماء تؤازر هذا الجيش وتمده بأسباب النصر، يقول العماد:

جنــودك أملاك السمـــاء وظنهـــم　　　عداتك جن الأرض في الفتك لا الإنسا[2]

وأما عن تعبئة الجيش الإسلامي، وهي مجموعة من الأعمال التي يقوم بها القائد في مجال تحشيد القوات في ميدان المعركة، وسوقها إلى خطوط القتال، أو تنسيق القوات للرد على هجمات العدو[3]، فقد وصف العماد نظام تعبئة الجيش الإسلامي وترتيبه، وبيّن أقسامه التي يتكون منها، وهي: الميمنة والميسرة والقلب والجناحان، ومن ذلك وصف العماد لجيش صلاح الدين الأيوبي المتوجه إلى معركة حطين، يقول:" واشتمل المعسكر على فراسخ عرضاً وطولاً، وملأنا الملأ حزناً وسهولاً، وعرض العسكر في اثني عشر ألف مدجج، ولما انقضى العرض واقتضى الفرض، وسالت بأفلاك السماء الأرض، كان السلطان قبل رحيله بيوم أركب العسكر بعدته وعتاده، ورتبه أطلاباً[4] وحزَّبه أحزاباً، وعيَّن رجال القلب ومن يقف بالقلب، والميمنة وحماتها، والميسرة وكماتها، والجناحين وقوادمها من ذوي الإقدام....، وعيَّن مواقف الرجال ومواضع الأبطال، وعيّن الجاليشية[5] من كل طِلب بأسمائها، ورماة أحداقها،

---

(1) العماد الأصفهاني، الديوان، 242.

(2) العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، ص 231 .

(3) محسن حسين، الجيش الأيوبي في عهد صلاح الدين، ص 143 .

(4) أطلاب: مفردها طلب، وهو لفظ كردي يطلق على الأمير الذي يقود مائتي فارس في ميدان القتال، دوزي، تكملة المعاجم العربية،7/ 63.

(5) الجاليشية: كلمة تركية قديمة بمعنى حرب أو معركة، أو هو علم كبير في أعلاه خصلة من الشعر كالعرف، ثم أطلق على مقدمة القلب في الجيش أو على الطليعة منه، دوزي، تكملة المعاجم العربية، 2/ 126.

وحذّاق رماتها، وقرر هيأتهم في الركوب والنزول، وسار يوم الجمعة سابع عشر ربيع الآخرة بالعساكر، وسارت على تعبئتها وترتيبها"[1].

وعادة ما كان القائد العسكري يعبئ العسكر، ويتفقد صفوفه بنفسه، ويبقى على اتصال بأجزاء الجيش كلّها، ويحضهم ويحفزهم على القتال باعتباره قدوة لهم، وقد وصف العماد هذا المنظر بقوله:" وقد عبّى السلطان ميمنته وميسرته، وطلب من الله نصرته، وثبّت قلبه وقلبه ثابت، وحزبه في صف الحرب نابت، ورعبه لكبة العدو كابت، وهو يمرّ بالصفوف، ويأمر بالوقوف، ويحض على حظ الأبد، ويحث على الجلاد والجلد، ويثوب للوثوب، ويندب إلى الندوب"[2].

وفي الجيش فرق مساندة تقدم الخدمات اللازمة للجيش الإسلامي، كالفرقة الهندسية التي تهتم بنصب المعدات الحربية وبناء المعسكرات وحفر الآبار وحفر الخنادق وهدم الأسوار وغيرها من المهام[3]، وهنالك الفرقة الطبية التي تهتم بعلاج الجرحى والمرضى[4]، والفرقة الموسيقية العسكرية التي تضرب الكوسات لإثارة حماس المقاتلين وإعلان العمليات العسكرية[5]، وهنالك حملة أعلام الجيش، ومهمتهم حمل الراية والحفاظ عليها[6].

وفي الجيش الإسلامي من يقوم بخدمات مساندة للجيش، كغلمان العسكر الذين يقدمون خدمات عدة للجيش، ولكنهم قد يشتركون في القتال إذا تمت الحاجة إليهم، فهم قوة احتياطية، تدخل المعركة عند اللزوم، ويشير العماد إليهم بقوله:" وليكون غلمان العسكر للحرب مباشرين، ولمعشر الكفر بإدارة كؤوس الردى عليهم معاشرين"[7].

---

(1) البنداري، سنا البرق الشامي، 292 ـ 293.

(2) العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص 308 .

(3) انظر فتح حصن اللاذقية وعمل النقابين فيه، الفتح القسي، ص 236.

(4) حينما بعث صلاح الدين طبيبه الخاص برفقة العماد الأصفهاني لعلاج قائد عسكري، الفتح القسي، ص438.

(5) انظر بدء العملية العسكرية، الفتح القسي، ص 88 .

(6) العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص88، وقد كانت راية صلاح الدين الأيوبي صفراء، وانظر ص103 .

(7) العماد الأصفهاني، الفتح القسي ، ص 368 .

وفي الجيش شخصٌ مهمته النداء والاستنفار، فينقل بصوته العالي أوامر القائد إلى عموم الجيش، ويسمى الجاويش[1]، وهنالك العوّام، ومهمته تقتضي بنقل الرسائل وحمل المال للمحاصرين، وقد وصف العماد العوّامين، ومخاطرتهم بأنفسهم في الدخول إلى المدن المحاصرة، فيقول :" حتى صاروا يحملون نفقات الأجناد على أوساطهم، ويخاطرون بأنفسهم مع احتياطهم، ويحملون كتباً وطيوراً ويعودون بكتب وطيور"[2].

ومن المؤسسات الأخرى المساندة للجيش والمساعدة في إدارة شؤونه جهاز الاتصالات، وهو الجهاز المسؤول عن نقل المعلومات والأخبار، ويُعد حمام البريد من أبرز طرق الاتصال في ذلك الوقت، وحينما اتخذ نور الدين زنكي الحمام ليحمل إليه الكتب بأخبار البلدان، طلب من العماد إنشاء منشور يوزع على جميع مربِّي الحمام، ويذكر العماد في هذا المنشور أهمية حمام البريد في نقل الأخبار، وقدرته على الوصول إلى أقاصي الأمصار، ومدى استفادة المرابطين والمجاهدين من الأخبار المنقولة إليهم، يقول العماد:" هي برائد الأنباء، والمخصوصة بفضيلة الإلهام والإيحاء، وهي فيوج الرسائل المأمونة الإبطاء، والسابقات الهُوج في الاهتداء، الحاملات ملطَّفات الأسرار في أقرب مُدة إلى أبعد غاية، والموصلات مهمَّات الأخبار في وقتها من أقاصي الأمصار بأكمل هداية، والقاطعات في ساعاتها إلى البلاد أجواز القِفار والمَوَامي....، وهي تطوي الفراسخ البعيدة والأشواط في ساعة، وتنتهي إلى أقصى غايات الطاعة بأتمِّ استطاعة، وقد عمَّ بها نفع المرابطين للغزاة والمجاهدين في سبيل الله، في إهداء أخبار الكفرة إليهم من أماكنها، دالة على مكايدها ومكامنها، طائرة بكتبها إلى من وراءهم من الطلائع والسرايا، مظهرة لهم من أحوالها خبايا الأمور الخفايا، وإنها لميمونة المطار، مأمونة العثار، سالمة على الأخطار، مهدية في الأسفار، أمينة على الأسرار، سابقة إلى الأوكار، صادرة بالأوطار، سائرة إلى المؤمنين بأنباء الكفّار"[3].

---

[1] الجاويش: جندي مهمته النداء واستنفار الجند للقتال، ابن واصل، مفرج الكروب، 2/ 295، وانظر :الفتح القسي، ص 235.

[2] العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص360 .

[3] أبو شامة المقدسي، الروضتين، 2/231.

واستفاد الجيش الإسلامي من الحمام الزاجل واستعمله في نقل الأخبار وإيصالها على وجه السرعة، فعندما هُزم السلطان صلاح الدين في معركة الرملة، سرت أنباء عن مقتل السلطان، ولذلك أُرسلت البشائر من الشام إلى مصر بنجاة السلطان، وفي ذلك يقول العماد:" وسيّرنا بها البشائر، وأنهضنا ببطاقاتها الطائر، لإخراس ألسنة الأراجيف، وإبدال التأمين من التخويف، فقد كانت نوبتها هائلة ووقعتها غائلة"[1].

ومما يدخل ضمن جهاز الاتصالات الخاص بالجيش الإسلامي، ما يعرف بالنجّاب، وهو رجل البريد الذي ينقل الرسائل بين المدن والأمصار، ويصف العماد مدى الحاجة إلى هذا النوع من الأخبار التي تتعلق بتحركات العدو، فيقول:" وفي يوم الخميس الحادي والعشرين من جمادى الآخرة، ورد في عصره نجّاب من حلب بعد خمسة أيام، بكتاب يتضمن نجح كل مرام، ويخبر بأن عسكراً مجراً من الكفار، خرج للغارة على الأطراف والأقطار فخرج إليه العسكر وأخذ عليه الطريق، وطلب ذلك الجمع في الهزيمة المضيق، فلم يصبح لهم رشد منهاج، ولم ينج منهم ناج"[2].

وعند الحديث عن الأسلحة والأدوات الحربية التي استخدمها الجيش الإسلامي في حروبه مع الصليبيين، فمن الواضح أن قادة الجهاد الإسلامي قد اهتموا بشؤون السلاح بما يكفل لهم تحقيق هدفهم المنشود، وهو طرد الصليبيين الغزاة من أرضهم وتحريرها.

ويبدو أن الدولة الإسلامية آنذاك كان لها خزائن سلاح متعددة[3]، تحتوي على أنواع كثيرة منه، يوزع على المحاربين عند الحاجة له،ويدل على ذلك وصف العماد لخزانة الملك عثمان بن صلاح الدين الأيوبي، عندما سافر إلى مصر وترك خزانة سلاحه في القدس بعد تحريرها في سنة 583هـ.

---

(1) العماد الأصفهاني، البرق الشامي، 3/ 42.

(2) العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص 412.

(3) ذكر ابن مماتي: أن خزائن السلاح كان فيها مستخدمون يستدعون ما يُحتاج إليه من خشب وحديد وعقب وسلوخ وأصباغ وآلات، يعملون فيها ما يؤمرون به من آلات السلاح على اختلاف أوصافها، ابن مماتي، قوانين الدواوين، ص354، وانظر: القلقشندي، صبح الأعشى، 3/ 473.

ويمكن التعرف مما أورده العماد على معظم تلك الأسلحة المستخدمة في الجهاد ضد الصليبيين، يقول العماد:" وأما الملك العزيز عثمان، فإنه أتى بالإحسان الذي استظهر به الإيمان، وذلك أنه لما عاد إلى مصر وقد شاهد الفتح والنصر، ترك خزانة سلاحه بالقدس كلها، ولم يرَ بعد حصولها به نقلها، وكانت أحمالاً بأموال، وأثقالاً كجبال، وذخائر وافية، وعدداً واقية، ودروعاً وسوابغ، ونصولاً دوامغ، وخوذاً وترائك، ورماحات ونيازك[1]، وقنا وقنابل، وصواقل وذوابل، وجروخاً[2] وقسياً، ويمانياً وهندياً ويزنياً، وردينياً ومشرفياً[3]، وجفاتي[4] وجنويات[5]، وطوارق[6] وقنطاريات[7]، ورانات[8] حديد وزانات، وآلات وزيّارات[9] وزرّاقات[10]، ونقّاطات[11]

---

(1) النيازك: الرماح الصغيرة، العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص144.

(2) الجروخ: جمع جرخ، آلة من آلات الحرب القديمة، ترمى عنها السهام والنفط المشتعل والحجارة، دوزي، تكملة المعاجم العربية، 2/174.

(3) اليماني والهندي واليزني والمشرفي هي أسماء للسيف، والقنا والذوابل أسماء للرمح، انظر: القلقشندي، صبح الأعشى، 2/ 139 ـ 141.

(4) الجفاتي: جمع جفتا، وهي الحبال العظيمة من القصب تكون بمثابة السياج الساتر، ويبدو أنها متراس أو حاجز يستتر وراءه الجنود، دوزي، تكملة المعاجم العربية، 2/ 229.

(5) الجنويات: نوع من التروس، يزحف به الرّجالة للقتال، وتحميهم من السهام وهي بيضوية الشكل أو مستطيلة، وكانوا يحملون عليها الجرحى أحياناً، هندي، إحسان، 1964م، الحياة العسكرية عند العرب، مطبعة الجمهورية ـ دمشق، ص 71.

(6) الطوارق: مفردها طارقة وهي الدرقة أو الترس، دوزي، تكملة المعاجم العربية، 7/47.

(7) القنطاريات، قناة الرمح، ثم أصبحت تطلق عل الرمح كله، دوزي، تكملة المعاجم العربية، 8/397.

(8) الرّان: كالخف إلا أنه لا قدم له، وهو أطول منه،العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص 144.

(9) الزيّارات: نوع من القسي الرامية للسهام، وهو أكبرها، ابن واصل، مفرج الكروب، 2/ 262.

(10) الزرّاقات: ومفردها زرّاقة، ويقال لصاحبها زرّاق، وهو الذي يحمل بيديه قوارير فيها مواد مشتعلة، ويرمي بها على الأعداء، دوزي، تكملة المعاجم العربية، 5/312.

(11) النقّاطات: مفردها نقّاطة، وهي آلة تستخدم لرمي النفط، وتكون من النحاس، دوزي، تكملة المعاجم العربية، 10/277.

وقطَّاعات[1]، وعدد النقوب، وجميع أدوات الحروب، فاستظهرت بها المدينة، وتوثقت بها عراها المتينة"[2].

ويُذكر عن صلاح الدين الأيوبي، أنه كان يحاول جاهداً توفير المواد اللازمة لصناعة الأسلحة، كالحديد والشمع والخشب[3]، ولأن حالة الحرب مع الصليبيين قد استدعت قيام صناعات حربية، فقد كان صلاح الدين يبعث لأمراء الأمصار ويطلب منهم تزويده بما عندهم من عناصر السلاح.

ويَذكر العماد الأصفهاني أن الموصل كانت تمد صلاح الدين بما يتوافر فيها من النفط الأبيض المستخدم في قاذفات النار، علاوة على الرماح والتراس المصنعة فيها، وفي ذلك يقول العماد:" ولما عرَف صاحب الموصل ما شرع فيه السلطان من تكثير العدة، وتقوية النجدة، لكل ما يمكنه من أسباب البأس والشدة، سيّر من أحمال النفط الأبيض مع عزة وجوده ما وجده، ومن التراس والرماح، من كل جنس أحكمه وأقومه وأجوده، وشاع الاعتداد، وذاع الإحماد، ودلَّ ذلك على انشاج الوداد، والامتزاج والاتحاد"[4].

ولا يخفى أن العماد يركز هنا على عوامل الوحدة بين الأمصار الإسلامية، وتعاونها فيما بينها، خاصة أن الذي يهددها عدو مشترك، يوجب عليهم الاتحاد والتكاتف فيما بينهم، حتى إنه بعث برسالة شكر لصاحب الموصل، على ما وصل من السلاح الذي جاء في وقته[5].

أما عن الأسلحة التي استخدمها الجيش الإسلامي في حروبه مع الصليبيين، فقد ذكر العماد الأصفهاني أنواعاً عدة منها، وذكر الأسلحة الدفاعية التي تستخدم

---

(1) القطَّاعات: مفردها قطّاعة، وهي عبارة عن مطرقة تستعمل لقطع الصخر وهدم البناء، وتستخدم في نقب الأسوار، زكي، عبدالرحمن، 1951م، السلاح في الإسلام، دار المعارف ـ القاهرة، ص 26.

(2) العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص 144.

(3) محسن حسين، الجيش الأيوبي في عهد صلاح الدين، ص 264.

(4) العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص 350.

(5) انظر الرسالة في: الفتح القسي، ص 350 ـ 351.

لوقاية الجسم، وأبرزها الزرديَّات[1]، التي كثر استخدامها في ذلك العصر[2]، وذكر العماد في وصفه للمعارك والحروب التي خاضها الجيش الإسلامي، أنواعاً أخرى من الأسلحة الوقائية ، يقول العماد:" ومعنا الدلاص[3] الصلاد، والصعاب والصعاد، وفي كل قنطاري قنطار، ولكل سابري[4] من أسنتنا مسبار"[5]، ولعله هنا يوضح مدى الاستعداد الحربي للجيش الإسلامي، في مواجهة أعدائه.

ومن الأسلحة الدفاعية الأخرى، التي يذكرها العماد، البيضة[6]واليلب[7] والزّغف[8] والغفافير[9]، والتي توفر الحماية للمقاتل، وسواء أكانت أسلحة الوقاية والدفاع تغطي جسم المحارب كالبيضة والمغفرة، أم كانت تحميه من ضربات السيوف والرماح كالطوارق والجنويات وغيرها، فكلها تدل على جانبين مهمين في المعركة التي كان يخوضها الجيش الإسلامي، الأول يمثل مدى جهوزية الجيش الإسلامي في توفير كل ما يلزم المقاتل من وسائل حماية ووقاية، والثاني يدل على مدى تطور الصناعة الحربية في زمن كثرت فيه المعارك والحروب.

أما بالنسبة للأسلحة الهجومية التي كان يستخدمها الجيش الإسلامي في حروبه، فتقسم إلى قسمين: الأسلحة الفردية، والأسلحة الجماعية، وقد اهتم العماد بذكر

---

(1) الزرديَّات: درع يتخذ من الزرد، والزرد حلقات متداخلة يلبسها المقاتل لتحميه، دوزي ، تكملة المعاجم العربية، 5/ 301.

(2) انظر: الفتح القسي، ص224.

(3) الدلاص: الدرع الملساء اللينة، الفتح القسي، ص65.

(4) السابري: الدرع المحكمة دقيقة الصنع، الفتح القسي، ص65.

(5) العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص65.

(6) البيضة: بسكون الياء، وهي خوذة يتخذها المحارب لحماية رأسه، ،الفتح القسي، ص 100، انظر: القلقشندي، صبح الأعشى، 144/2.

(7) اليلب: التروس أو الدروع المتخذة من الجلد، تلبس على الرؤوس في الحرب، ومفردها يلبه، الفتح القسي، ص 114.

(8) الزغف: الدرع الواسعة الطويلة، الفتح القسي، ص 164.

(9) الغفافير: مفردها مغفرة أو غفارة، وهي زرد من الدرع، ينسج على قدر الرأس، يلبس تحت القلنسوة، الفتح القسي، ص 616، انظر: القلقشندي، صبح الأعشى، 144/2.

الأسلحة الدفاعية، كما اهتم أيضاً بذكر الأسلحة الهجومية، التي كان المسلمون يستخدمونها في معاركهم مع الصليبيين، وسأبدأ بذكر ما أورده العماد الأصفهاني عن الأسلحة الفردية التي استخدمها الجيش الإسلامي، وأشهرها على الإطلاق السيف، وقد ذكره العماد في أكثر من مناسبة، منها معركة حطين، حين صوره العماد طاهراً يحسو دم القائد الصليبي أرناط، الذي اتصف بالغدر، ويرسم صورة طريفة لمقتل أرناط، فقد نسف هذا السيف رأس أرناط، وصال عليه بعد ذلك يلحسه لحساً، يقول العماد:

حسَا دمَهُ ماضي الغِرار لغـدرهِ   وما كان لولا غدرُهُ دمُهُ يُحسَـــى
فللّهِ ما أهدى يـداً فتكتْ بـــهِ   وأطهرَ سيفاً مُعدماً رِجسَهُ النَّجسَا
نسفتَ بهِ رأسَ البرنسِ بضربةٍ   فأشبهَ راسي رَأسِهِ العِهنَ والبُرسـا
تبوَّغَ فـي أوداجـِـهِ دمُ بغيـهِ   فصالَ عليهِ السَّيفُ يلحسُهُ لحسَا[1]

وقد استخدم الجيش الإسلامي الرمح في المعارك بكثرة؛ لأنه من الأسلحة القديمة المعروفة عند العرب، ويصور العماد الأصفهاني أثر الرماح الردينية والخطية في الأعداء، وكيف لينت خشونتهم وقساوتهم، وهذبت أخلاقهم، يقول العماد:

سحبتَ على الأردنِ ردناً من القنا   ردينيَّـةً مُلــداً وخَطِّيــةً مُلسَـــــــا
أتَوا شُكُسَ الأخلاقِ خشناً فليَّنـت   حدودُ الرِّقاقِ الخشنُ أخلاقَها الشُّكسَا[2]

أما القوس والسهام، فكانت من أبرز أسلحة الرمي عند الجيش الإسلامي، ويشبه العماد السهام المنطلقة من القسي وكأنها طيور تتخذ من صدور الأعداء وقلوبهم أوكاراً لها، يقول:

سهــامُ كنائنهـا الطائرات   لهنَّ قلوبُ الأعادي وكورُ[3]

ومن أنواع القسي التي استخدمها المسلمون في حربهم مع الصليبيين، قسي الزيّار وقسي الجروخ، والزّنبورك[4]، وقد جمع العماد بين هذه الأسلحة التي تعتمد على

---

[1] العماد الأصفهاني، الديوان، ص 235.

[2] العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، ص 234.

[3] العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، ص 192.

[4] الزّنبورك: جمعه زنبوركات، وهو نوع من السهام في سُمك الإبهام وطول الذراع، ذو طرف حديدي، وهو مريَّش ليكون في انطلاقه أكثر ثباتاً، دوزي، تكملة المعاجم العربية، 363/5.

الرمي في المعركة، ورسم لها صورة جميلة، فقال:" والحنايا واترة موترة، والمنايا مأثورة مؤثرة،وظعائن الضغائن تحدي بصليل البواتر، وصهيل الضوامر، وحقوق الحقود تقتضي بألسنة الأسنة وعنت الأعنة من الغريم الكافر، والأوداج شاخبة كالعيون البواكي، والأبشار دامية من الزنبوركات....، والجرخيّ يبتدئ ببسم الله، والمنجنيقي يختم بلا إله إلا الله، والزرّاق بالنار يطيب القارورة، ويحرق الساتورة[1]"[2]، ويبدو أن التطور التقني في صناعة الأسلحة، قد بلغ مرحلة متقدمة، يدل على ذلك مجموعة الآلات التي تعتمد على إطلاق السهام، على اختلاف أحجامها.

ومن الأسلحة التي كان يحملها المحارب في الجيش الإسلامي ما يعرف بالدَّبوس[3] واللَّتوت[4]، ويعتمد القتال فيهما على المواجهة المباشرة مع العدو، ويصف العماد أثر هذين السلاحين في الأعداء بقوله:" حملت عساكرنا عليهم، وأحاطت بهم من حواليهم، ورضَّتهم بالدَّبابيس واللتوت، وتركتهم صرعى بتلك المروت، وساحت بتلك الساحة دأماء الدماء"[5].

وممن اشتهر بحمل الدبوس في الجيش الإسلامي الأتراك، ويصف العماد دبابيس الأتراك التي تحطم هام الصليبيين وتكسرها، فيقول:

من التُّركِ عند دَبابيسِهِــا صحاحُ الطُّلى والهوادِي كسورُ[6]

وعند الحديث عن الأسلحة الجماعية، والتي تعتمد على مجموعة من المقاتلين في المعركة، فقد ذكر العماد استخدام الجيش الإسلامي للنفط وقاذفات النار، والتي كان لها الأثر البالغ في مجرى المعارك التي خاضها المسلمون.

---

(1) الساتورة: وهي من آلات الوقاية وما في معناها مما يستر به على الأسوار والسفن التي يقع فيها القتال، القلقشندي، صبح الأعشى، 145/2.

(2) العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص163.

(3) الدَّبوس: هو آلة من حديد ذات أضلاع ينتفع بها في قتال لابس البيضة، القلقشندي، صبح الأعشى، 142/2.

(4) اللّتوت: لفظ فارسي، وجمعه لتوت، ومعناه القدوم أو الفأس الكبيرة، ابن واصل، مفرج الكروب، 1/ 140.

(5) العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص 410.

(6) العماد الأصفهاني، الديوان، ص 192.

ويذكر العماد في حديثه عن حصار مدينة عكا، كيف استطاع المسلمون إحراق الأبراج العملاقة التي نصبها الصليبيون، من خلال إغراقها بالمواد الحارقة، ثم إشعالها بالنار، وكيف أصبح مصير هذه الأبراج الثلاثة ومن فيها من الجنود، رماداً تذروه الرياح، يقول العماد:" فلما وجد الإذن، وزن القدور وعيّرها، ورمى بواحدة منها إلى أحد الأبراج في المنجنيق وعبرها واعتبرها، ثم لما استوت رمايته، وصحت في الإصابة درايته، رمى بقدور نفط لا نار فيها، وهو يصبها على أعالي البرج ويسقيها، والفرنج يعجبون من البلل، ولا يدرون بما وراءه من الشعل، ثم قذف بقدر نارية، متشعبة بكل بلية، فوقعت في الطبقة الوسطى، ورمى أخرى فوقعت في السفلى، فاشتعل البرج من طرفيه الأدنى والأعلى، وتعذر على من فيه من الفرنج الخلاص وكانوا سبعين، فاحترقوا أجمعين، ودخل إليه أيضاً جماعة لاستنقاذ ما فيه، فاحترقوا بدروعهم وسيوفهم، وتقلبت الجحيم عليهم غيظاً لاستبطاء حتوفهم....، وانتقل إلى الثالث فأحرقه، وما كان ذلك بصنعه بل لأن الله وفَّقه، وما زالت تحترق الثلاثة وتتقد اتقاداً، حتى عاد جمرها رماداً"[1].

ويُعد المنجنيق[2] من الأسلحة التي كثر استخدامها في حرب المسلمين مع الفرنجة، واعتبروه من أعظم آلات الحصار؛ لأنه سلاح فتاك في دكِّ التحصينات وفتح الثغرات في الحصون والقلاع، التي شيدها الصليبيون لحماية أنفسهم، وكان له الفضل الكبير في كسب العديد من المعارك التي خاضها الجيش الإسلامي، وقد طوّر المسلمون هذا السلاح، وجعلوه قادراً على قذف الحجارة الكبيرة والكرات النارية المشتعلة وقدور النفط، كما في هدمهم لأبراج عكا الثلاثة، وعملوا على تطوير نماذج منه، كالمفتش، الذي يمتاز بالقدرة على القذف السريع، والدقة في إصابة الهدف، يقول

---

(1) العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص 371.

(2) المنجنيق: آلة من خشب لها دفتان قائمتان بينهما سهم طويل، رأسه ثقيل وذنبه خفيف، وفيه تجعل كفة المنجنيق التي يجعل فيها الحجر، يجذب حتى ترفع أسافله على أعاليه، ثم يرسل فيرتفع ذنبُه الذي فيه الكفة، فيخرج الحجر منه، فما أصاب شيئاً إلا أهلكه، القلقشندي، صبح الأعشى، 144/2.

العماد في وصفه:" وكان معنا منجنيق هائل، بسيول الحجارة سائل، يقال له المفتِّش، لآن حجره يدور في الزوايا بدوائر المنايا ويشوِّش"[1].

ويرسم العماد صورة فنية للمنجنيقات التي دكّ بها صلاح الدين الأيوبي أسوار القدس، فيصورها كالمجانين الذين يترامون بالحجارة، وهي ضخمة كالجبال، وكالحوامل تلد البلايا والمصائب فيما ترمي، هدمت وصدّعت الأسوار، وكلّ ما كان يقف بوجهها، يقول العماد:" فكأنما المجانيق مجانين يرامون، ومناجيد لا يرامون، وجبال تجذبها حبال، ورجال تتجدها رجال، وأمهات الدواهي والمنايا، وحوامل تلد البلايا....، فكم نجم من سمائها ينقض، وصخر من أرضها يرفض، وجمر من شرارها ينقض....، فما زالت تقلع بمقالعها، وتقرع بمقارعها....، تصدم وتهدم، وتصرع وتصدع....، حتى تركت السور سوراً، وجعلت الذابَّ عنه محسوراً، وعاد العدو من نظمه المبتور متبوراً "[2].

ومن الآلات المستخدمة أيضاً في الحصار الدبابة[3]، ويستعان بها في نقب الأسوار، ويبدو أنها توفر الحماية للنقابين الذين يقومون بنقب الأسوار، ويمكن أن يُطلق منها السهام والقسي، وقد ورد ذكرها عند العماد الأصفهاني في حديثه عن فتح مدينة صور، يقول العماد:" ولم تزل المنجنيقات ترمي، والحجارات تدمر وتدمي، والدبابات تطير من أوكارها عقبان الجروح، وأطباق البروج تُبنى وتغطى بالسلوخ"[4]، ومن ملحقات الدبابة، السلالم التي كانت تساعد المحاصرين على اعتلاء الأسوار واقتحامها، وقد استخدمها المسلمون في حروبهم مع الصليبيين[5].

---

(1) العماد الأصفهاني، البرق الشامي، 85/5.

(2) العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص 125 ـ 126 .

(3) الدبابة: ضرب من آلات الحرب، أشبه ما تكون بالبرج المتحرك، يجلس فيها الجنود ليحتموا بها عند محاولتهم الهجوم على الأسوار، ولهذه الآلة أحياناً أربعة طوابق، أولها من الخشب، وثانيها من الرصاص، وثالثها من الحديد، ورابعها من النحاس، وكانت توضع على عجلات، دوزي، تكملة المعاجم العربية، 282/4.

(4) العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص 158، وانظر ص 105.

(5) العماد الأصفهاني، البرق الشامي، 3/ 54.

أما الخيل، فقد لعبت دوراً بارزاً في حروب الجيش الإسلامي مع الفرنجة، وكثر وصفها عند العماد، والإشادة بسرعتها في الغارة، ودورها في إحراز النصر، ويصف العماد خيول نور الدين التي زحفت نحو مصر، بأنها تستسهل الصعب في طلب العلياء، وتدخل الرعب في نفوس الأعداء، وتشفي غلة الإسلام، وتنتقم من أعدائه، يقول العماد في وصفها:

أوردتَ مصرَ خيولَ النَّصرِ عادمـــــةً ... ثنيَ الأعنّةِ إقداماً على اللُّجـــمِ

فأقبلتْ في سحابٍ مـن ذوابلِهـــــــا ... وقضبها بدماءِ الهامِ منسجـــــمِ

تمكّـنَ الرُّعبُ في قلبِ العدوِّ بهـــــا ... تمكُّنَ النَّارِ بالإحراقِ في الفحـــمِ

سرَتْ لتقطـعَ مـا للكفـــرِ مـــن سببٍ ... واهٍ وتوصلَ ما للدِّينِ من رحـــمِ

مستسهلات وعورَ الطّرقِ في طلبِ الـ ... علياءِ مقتحمات أصعبَ القحـــمِ

وجاعـــلات مـــن الإفرنجِ غلَّهـــم ... والقيدَ في موضعِ الأطواقِ والحزمِ

لقـد شفـتْ غلَّـــة الإسلامِ وانتقمـتْ ... مـن العدوِّ بحـــدِّ الصَّارمِ الحَذِمِ[1]

ويرسم العماد صورة لهذه الخيل، فيصور خيل صلاح الدين الأيوبي وكأنها صقور في سرعتها ونشاطها، وهي تحمل فرساناً كالصقور، يقول العماد:

بجردٍ عليهـا رجالُ الهيـــاجِ ... كأنَّ صقـوراً عليهـــا صقــورُ[2]

وكان لرشاقة الخيل العربية وخفة حركتها الأثر الأكبر في المعارك، لذلك كان الجيش الإسلامي يستعد للمعارك بأفضل أنواع الخيول، وقد ذكر العماد الأصفهاني ما أعده المسلمون من خيل، كان لها دور عظيم في ساحة الوغى، يقول العماد:" والصواهل الصوافن للإلجام والإسراج، والضوامر الضوامن للإقدام في الهياج....، وجراد الجُرد المرسلة على منابت الهام"[3]، على أنه ليست كل الخيل التي كانت لدى

(1) العماد الأصفهاني، الديوان، ص 381.

(2) العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، ص 192.

(3) العماد الأصفهاني، البرق الشامي، 32/5، وانظر: العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص223 ــ 224.

الجيش الإسلامي كريمة الأصل، فقد استخدم الجيش الإسلامي الأكاديش[1] أيضاً في معاركهم التي خاضوها.

ولكي تكتمل الصور عن أسلحة الجيش الإسلامي، يتوجب الحديث عن الأسلحة البحرية التي استخدمها الأسطول الإسلامي في معاركه مع الصليبيين، وقد عُرف عن المسلمين عنايتهم ببناء السفن وعمارة الأسطول، وتجهيزه بالعُدد اللازمة، ويذكر العماد الأصفهاني أن صلاح الدين الأيوبي كتب إلى مصر بتجهيز الأسطول، عندما وصل الفرنجة إلى عكا، في سنة 585هـ، وفي ذلك يقول:" كان السلطان منذ وصول الفرنج إلى عكا، قد كتب إلى مصر بتجهيز الأسطول، وتجزية حباله، وتزجية أمور رجاله، وتكثير عَدده، وتوفير عُدده، وإصلاح شؤون شوانيه، وإسناء رواسي رواسيه"[2].

ويبدو أن البحرية الإسلامية قد استعملت أنواعاً عديدة من السفن ، متعددة الأحجام والأغراض، وقد رسم العماد صورة لأنواع من السفن الحربية التي استخدمها الأسطول الإسلامي، ووصف مدى فتكها بالأعداء، يقول العماد:" وصل الأسطول ظهر يوم الخميس ظاهراً خميسه، ثائراً بالأسد عريسه، في شوانٍ[3] للعدو شائن، وشَلَنديَّاتٍ[4] لشلِّه وفلِّه ضوامن، وحراريق[5] لأهل النار بنارها محرقة، وعقبان مراكب في مطار العقاب على المجرمين محلقة، وسواري هواضب كرواسي هضاب، وسحاب بوائق كبوارق سحاب، من كل مركبٍ للنصر مركَّب، ومفرد من الشدة والبأس مركب،

---

[1] الإكديش: الحصان الخليط أو غير الأصيل، انظر: العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص 226.

[2] العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص340 .

[3] الشَّواني: مفردها شيني، وهو مركب حربي كبير ذو أبراج وقلاع، يستعمل للدفاع والهجوم، في أيام الحرب بالسلاح والنفطية، ويحشد بالمقاتلة والجنود البحرية، متوسط ما يحمله 150 رجلاً، ويجدف بمئة مجداف، وفيق بركات، 1955م، فن الحرب البحرية، معهد التراث العلمي ـ جامعة حلب، ص151.

[4] الشَّلنديَّات: مفردها شلندي، وهو مركب حربي كبير مسطح، كان مخصصاً لنقل المقاتلين والأسلحة، وفيق بركات، فن الحرب البحرية، ص153.

[5] الحراريق: مفردها حرّاقة، وهي سفينة حربية، تلقى منها النيران على العدو، وتستعمل في حمل الأسلحة النارية، وفيق بركات، فن الحرب البحرية، ص151.

وقطعة لنياط قلب العدو قاطعة، وقلعة لأساس أهل الكفر قالعة، وتلعة في ذروة العزة تليعة، وذروة في مرقى الهدى راقية منيعة، وجاءت في البحر أمواجاً في الأمواج، ودخلت إلى الثغر أفواجاً بعد الأفواج"[1].

وقد ذكر العماد في حديثه عن حصار صلاح الدين لمدينة صور، في سنة 583هـ، بعض فئات المقاتلين على متن السفن الحربية، وذكر أنواعاً من الأسلحة التي كانوا يستخدمونها، وصور ذلك بقوله:" وسفننا بالساحل عندنا مربوطة، وبحفظنا مضبوطة محوطة، ودامت تدبُّ عقاربها، وتذبُّ سواريها....، وقد مُلئت برُماة الحدقِ، وحماةُ الحلق، وزرّاقي النَّار، وطرّاقي الثار، والخاطفين بالخطاطيف، والقاذفين بالمقاذيف، والكالمين بالكلاليب[2]، والسَّالبين بالأساليب، والحاربين بالمحاريب، والراجمين بالرجام، والمعلمين على الأعلام"[3].

5.2 التهاني والبشائر

كان للانتصارات التي حققها المسلمون على أعدائهم، نغمة فرح، تسري وتنتشر في مختلف الأقطار الإسلامية، وكانت أنباء هذه الانتصارات تشكل معالم بهجة وفرح لدى المسلمين، فيتبادلون التهاني، وتعم مظاهر الفرح كافة مدنهم، وبتجدد الانتصارات تتجدد أصداء الفرحة في كل مكان، وتقام الاحتفالات، وتُزف التهاني والبشائر إلى الملوك والأمراء والقادة، وتسجل هذه التهاني والبشائر فرح العالم الإسلامي بما تحقق من نصر، يعبر عن الظفر والنجاح، وتحقيق الأماني بطرد المحتلين.

وكانت هذه الانتصارات تشكل بعثاً جديداً لقوة الإسلام، بعد عشرات السنين التي بقيت أرضهم فيها مسلوبة، إلى أن هيأ الله لهذه الأمة أبطالاً، أخذوا على عاتقهم مسؤولية تحرير البلاد المحتلة وتطهيرها من الصليبيين.

---

[1] العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص387، وهنالك أنواعٌ أخرى من السفن ذكرها العماد كالبركوس والبطسة، انظر: الفتح القسي، ص340، 460، 476، 486.

[2] الكلاليب: نوع من الخطاطيف الحديدية، كانت تستخدم للرمي على مراكب العدو لجذبها وشدها والعبور إليها،عن طريق ألواح خشبية أو سلالم، وفيق بركات، فن الحرب البحرية، ص138.

[3] العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص160 ـ 161 .

وكان هؤلاء الأبطال محط رجاء الأمة وأملها في التحرير، لذا فقد واكب الأدب انتصارات المسلمين على أعدائهم، وخلّد الانتصارات الباهرة التي حققها أبطال الجهاد، ففي سنة 564هـ، أنشد العماد الأصفهاني نور الدين قصيدة، هنأه فيها بتسلم قلعة جعبر[1]، وأشاد فيها بمناقبه وصفاته، يقول العماد:

اسْلَـمْ لبكــرِ الفتــوحِ مُفترعِـــــاً ودُمْ لمُلكِ البِـــــلادِ مُنتزِعَـــا
إنْ ضــاقَ أمــرٌ فغيــرُ همَّتـــــهِ لكشفِ ضيقِ الأمورِ لن يسعَا[2]

وفي سنة 568هـ، هنَّأ العماد نور الدين زنكي، بالنصر الذي حققه على الفرنجة، وأكدَّ له أن النصر حليفُه، معقودٌ برايته، وملازمٌ له، كما ويشيد بجهوده في قتال أعدائه، وغلبه لملوكهم وصيده لشجعانهم، وسلبه لتيجانهم، وكثرة انتصاراته عليهم، يقول العماد:

عُقدتْ بنصـرِكَ رايـــــةُ الإيمــانِ وبدتْ لعصرِكَ آيـةُ الإحســـانِ
يا غالبَ الغُلبِ الملوكِ وصائدَ الـ صِّيدِ الُّليوثِ وفارسَ الفرســـانِ
يا سالـبَ التِّيجـانِ مــن أربابِهـــا حُزتَ الفخارَ على ذوي التِّيجانِ
كمْ بكر فتحٍ ولَّدَتـْهُ ظُبـاكَ مــن حربٍ لقمعِ المشركيـــن عَوانِ[3]

وعندما انتصر صلاح الدين الأيوبي على الفرنجة في دمياط، في سنة565هـ، طلب نور الدين زنكي من العماد، أن يكتب أبياتاً في صلاح الدين تهنئة بالنصر[4]، فقال:

يا يوسفَ الحُسنِ و الإحسانِ يا ملكاً بجــدِّهِ صاعـداً أعداؤهُ هبطُـــوا
حللـتَ مـن وسَطِ العليـاءِ فـي شرفٍ ومركزُ الشَّمسِ من أفلاكِها الوسَطُ
هُنِّيتَ صونـكَ دمياطَ التي اجتمعتْ لهـا الفرنجُ فمـا حلُّوا ولا ربَطُـوا[5]

---

[1] البنداري، سنا البرق الشامي، ص 38.
[2] العماد الأصفهاني، الديوان، ص 285 ـ 286.
[3] العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، ص 410 ـ 411.
[4] أبو شامة، الروضتين، 146/2.
[5] العماد الأصفهاني، الديوان، ص 275.

ويبدو أن هذه التهاني كانت تنشد في حضرة الأبطال الفاتحين، أو ترسل لتُنشد على مسامعهم، كنوع من التغني والإشادة بهذا النصر، ففي سنة 570هـ، هنأ العماد صلاح الدين بتسلمه قلعة بعلبك[1]، وحثَّه على استكمال الفتح بتحرير القدس، يقول:

بفتوحِ عصركَ يفخرُ الإســـلامُ   وبنورِ نصركَ تشرقُ الأيــامُ
وبفتحِ قلعــةِ بعلبـــك تهذبـــتْ   هذي الممالكُ واستقامَ الشَّامُ
فتملَّ فتحكَ واقصِد الفتحَ الذي   بحصولـهِ لفتوحـكَ الإتمــامُ
دُم للعُلا حتى يدومَ نظامُهـــا   واسلمْ يعزُّ بنصركَ الإسـلامُ[2]

ويُعد فتح القدس سنة 583هـ، من أعظم الانتصارات التي حققها المسلمون على الفرنجة، وقد هنأ العماد صلاح الدين بهذا الانتصار الساحق، وتغنى بأمجاده وبطولاته، وصور حال القدس بعد الفتح، وصدى هذا الفتح عند المسلمين، وسعادتهم به، يقول العماد:

أطيـبُ بأنفاسٍ تطيـبُ لكـم نفســـاً   وتعتاضُ من ذكراكُم وحشتي أُنســا
وطهَّرتــهُ مـــن رجسِهـــم بدمائهِـــم   فأذهبتَ بالرِّجس الذي ذهبَ الرِّجسا
نزعتَ لباسَ الكفرِ عن قدسِ أرضِها   وألبستَها الدِّينَ الذي كشفَ اللَّبســـا
وقـد شاعَ في الآفاقِ عنـــك بشـارةٌ   بأنَّ أذانَ القدسِ قد أبطلَ النقســـا[3]

وبمناسبة هذا الفتح العظيم، هنأ العماد الخليفة العباسي[4]، وبشَّره بهذا النصر المؤزر، وهذا الفتح الذي جاب صيته أنحاء الأرض، يقول العماد:

أبشرْ بفتحٍ أمير المؤمنينَ أتـــى   وصيتُهُ فـي جميـــعِ الأرضِ جَوَّابُ
ما كـــان يخطرُ في بالٍ تصوّرهُ   واستصعبَ الفتح لمَّـا أُغلقَ البَـابُ
نصرٌ أعادَ صلاحُ الدِّينِ رونقـهُ   إيجــازهُ ببليـغِ القـــولِ إسْهـــــابُ[5]

---

(1) البنداري، سنا البرق الشامي، ص 85.
(2) العماد الأصفهاني، الديوان، ص 377 ــ 378.
(3) العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، ص 230 ــ 232.
(4) البنداري، سنا البرق الشامي، ص 174.
(5) العماد الأصفهاني، الديوان، ص 75.

وكان لهذه الانتصارات التي حققها المسلمون صداها في النثر، كما كان لها صدى في الشعر، وقد ساهم العماد بحكم عمله في ديوان الإنشاء في تدبيج الرسائل التي تحمل التهنئة والبشرى بأخبار النصر إلى أنحاء الدولة الإسلامية، وقد وصف القلقشندي هذا اللون من الرسائل، بأنها من أعظم المكاتبات خطراً، وأجلها قدراً، لاشتمال أغراضها على إنجاز وعد الله تعالى، الذي وعد به أهل الطاعة في إظهار دينهم على كل دين، وتوفير حظهم من التأييد والتمكين، وقال:" والكاتب يحتاج إلى تصريف فكره فيها، وتهذيب معانيها، لأنها تتلى من فوق المنابر على أسماع السامعين، وتُجعل نصب عيون المتصفحين"[1].

ونظراً لأهمية هذا النوع من الرسائل، فقد كان الاهتمام بشخص من ينقل البشارة، على أن يكون على درجة عالية من العلم والفضل، ويذكر العماد بعد فتح بيت المقدس، أنه قد وقع الاختيار على جندي خامل، يتولى نقل الرسالة إلى دار الخلافة في بغداد، وكان أن حَدَثَ قطيعة بين الخليفة والسلطان صلاح الدين على هذا الحدث، وبعث الخليفة العباسي برسولٍ هو تاج الدين أبو بكر أخو العماد، برسالة عتب[2].

وكان العماد قد ذكر صفات المُبشِّر، التي يتوجب توافرها في من يقوم بهذه السفارة، يقول:" لما تم الفتح الأكبر، وخصَّ وعمَّ النجح الأظهر، وقطع دابر المشركين، وحط إقبال المسلمين أوزار أدبار الكفر بحطين، أمرني السلطان بإنشاء كتب البشائر إلى الآفاق، وتقديم البشرى به إلى العراق، فقلت: هذا فتح كريم، ومنح من الله عظيم، وملك عقيم، وسمو وسيم، فلا يجب أن يكون مبشر دار الخلافة، بما أنزل الله لنا من الرحمة والرأفة، إلّا من هو عندنا أجلّ وأجلى، وأعلم وأعلى، وأجمع لفنون الفضائل، وأعرف بأداء الرسائل، فلا تُوجه بهذه الكرامة إلّا الكريم الوجيه، ولا تنبه لهذه المقامة إلّا القويم النبيه، ولا ترفع العظيم إلّا بالعظيم الرفيع، فإن الشريف يتضع شرفه بمقارنة الوضيع، فقال: هذه نصرة مبتكرة بكرت، وموهبة ميسرة بدرت وندرت، فنحن نعجل بها بشيراً، ونؤخر للإجلال كما ذكرت سفيراً"[3].

---

(1) القلقشندي، صبح الأعشى، 2/ 275.

(2) انظر: الفتح القسي، ص 183 ـ 189 .

(3) العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، ص 183.

وبمناسبة هذا الفتح الجليل، كان العماد قد كتب رسائل البشرى إلى الأقطار كافة، حتى إنه كتب في ذلك اليوم سبعين بشارة، كل كتاب بمعنى بديع وعبارة، كما يقول[1]، فقد كان مريضاً ولم يحضر الفتح، وعندما سمع بالخبر، اختار تعب السفر على راحة الإقامة، ووصل ثاني يوم الفتح[2].

ويصف العماد وصوله، واستقبال صلاح الدين له، وطلبه منه أن يسيّر البشائر إلى الأطراف كافة، يقول:" فوصلني السلطان عند وصولي بأجلى بشاشة، وأحلى هشاشة، وسرى عنه وسُرَّ، وأبرَّ وبَر، وقال: أين كنت ولما أبطأت، وحيث أصبت في المجيء فما أخطأت، وقد كنَّا في انتظارك، والسؤال عن أخبارك، وهذا أوان إحسانك، فأين إحسان أوانك، فأجْر بنانك بجرأة بيانك، واجْر في ميدانك، وما للبشائر إلا واصفها، وللفرائد إلا راصفها....، وكتبت إلى كل ذي طرف بمعنى طريف، ولفظ فصيح حصيف، وسهرت تلك الليالي حتى نظمت اللآلي، وحلّيت المعالي، وقرّحت المعادي، وفرّحت الموالي، وسارت شواردي إلى المشرق والمغرب، مُعرية عن هذا الفتح المُعرب عن النصر المهذب....، وتسامع الناس بهذا النصر الكريم، والفتح العظيم، فوفدوا للزيارة من كل فجٍّ عميق، وسلكوا إليه في كل طريق، وأحرموا من البيت المقدس إلى البيت العتيق، وتنزهوا من أزهار كراماته في الروض الأنيق"[3].

وبعد أن انتشرت أخبار هذا الفتح العظيم في أنحاء العالم الإسلامي، بدأ توافد الرسل للتهنئة بهذا النصر المؤزر، ويصف العماد ذلك بقوله:" وكانت رسل الآفاق، من الروم وخراسان والعراق، عاكفين على بابه، قاطعين جنى جنابه، واقفين لرفع حجابه، مستعفين لنعمائه، مستعطفين لإبائه، متعرضين لنوابه، متضرعين في خطابه، وكلهم يهنئه بما أفرده الله بفضيلته، وخصه بنجح وسيلته، وأقدره عليه وقد عجز عنه الملوك، وهداه إلى سبيله وقد تعذر بهم إليه الملوك، وهو فتح القدس الذي درج على حسرته القرون الأولى، فما من يوم يمضي، وشهر ينقضي، إلا ويصل منهم رسول، ويتصل

---

(1) البنداري، سنا البرق الشامي، ص 313.

(2) انظر: الفتح القسي، ص 183.

(3) العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، ص 132 ــ 134 .

به رسول، وتتجلي غمة، وتتجلى نعمة، وتتجه بشرى وتستبشر وجوه، ويُكف مكر ويكفي مكروه"[1].

ولا يخفى ما كانت تثيره هذه الرسائل في نفوس المسلمين، من مشاعر فرح وسرور، وهي تزف لهم بشائر الفرح والبهجة، وكان لكل ذلك أبلغ الأثر في رفع الروح المعنوية لدى أفراد الأمة وقادتها على حدٍّ سواء، وتحفيزهم على المضي في الكفاح والنضال، فلا نعجب حين تتزين المدن، وتتوافد الرسل للتهنئة، وتعم مظاهر الفرح جميع المدن والبلاد الإسلامية، فبقدر النصر وعظمته تكون البشرى والفرحة.

ومن رسائل البشرى، ما كتبه العماد مبشراً الخليفة العباسي ببغداد بانتصار صلاح الدين في معركة حطين، يقول العماد:" ومما أنشأته في هذا التاريخ من شرح الفتوح، وكتبت به إلى الديوان، وبدأت بقوله تعالى:﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾[2]، الحمد لله على ما أنجز من هذا الوعد، وعلى نصرته لهذا الدين الحنيف من قبل ومن بعد، وجعل بعد عسر يسرا، وقد أحدث الله بعد ذلك أمرا، وهوّن الأمر الذي ما كان الإسلام يستطيع عليه صبرا، وخوطب الدين بقوله:﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى﴾[3]، فالأولى في عصر النبي صلى الله عليه وسلّم والصحابة، والأخرى هذه التي عتق فيها من رق الكآبة، فهو قد أصبح حراً ريان الكبد الحرّى، والزمان كهيئته استدار، والحق ببهجته قد استنار، والكفر قد ردّ ما كان عنده من المستعار، فالحمد لله الذي أعاد الإسلام جديداً ثوبه بعد أن كان جذيداً حبله، مبيضّاً نصره، مخضرّاً نصله، متسعاً فضله، مجتمعاً شمله"[4].

افتتح العماد هذا الكتاب بآية قرآنية، وبعدها أفاض في حمد الله الذي أنجز وعده، ونصر هذا الدين الحنيف الذي أصبح حراً من رق الكآبة، وقد برزت لدى العماد النزعة الدينية من خلال المقارنة بين الإسلام والكفر، وهو ما يبين طبيعة الصراع بين العقيدتين.

---

(1) العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص 181، وانظر: ص 130 .

(2) سورة الأنبياء، الآية 105 .

(3) سورة طه، الآية 37 .

(4) أبو شامة ، الروضتين، 3 / 318 ـ 319.

ثم يمضي العماد في شرح خبر هذا الفتح العظيم والنصر الكريم، ويبين أثره على المؤمنين، ويورد زمان الفتح بعينه، ويذكر المعاقل الإسلامية المحررة، ومصير الكفار وقد كُسروا وأُسروا، يقول العماد:" والخادم يشرح من نبأ هذا الفتح العظيم، والنصر الكريم ما يشرح صدور المؤمنين، ويمنح الحبور لكافة المسلمين، ويورد البشرى بما أنعم الله به من يوم الخميس الثالث والعشرين من شهر ربيع الآخر إلى يوم يوم الخميس منسلخه، وتلك سبع ليال وثمانية أيام حسوما، سخرها الله على الكفار،﴿فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾[1]، وإذا رأيت ثم رأيت البلاد على عروشها خاوية، ورأيتها إلى الإسلام ضاحكة، كما كانت من الكفر باكية، فيوم الخميس الأول فتحت طبرية، ويوم الجمعة والسبت نوزل الفرنج، فكُسروا الكسرة التي مالهم بعدها قائمة، وأخذ الله أعداءه بأيدي أوليائه أخذ القرى وهي ظالمة، وفي يوم الخميس منسلخ الشهر فتحت عكا بالأمان، ورُفعت بها أعلام الإيمان، وهي أم البلاد، وأخت إرم ذات العماد"[2].

ويستمر العماد في التحدث عن مظاهر انتصار الدين الإسلامي، وتبدل الأحوال بعد النصر، فالمدن مزدانة برايات الإسلام والفرح، والمساجد امتلأت بالمصلين، وتحولت الكنائس إلى منابر للخطباء.

ويتحدث كذلك عن الهزيمة المنكرة التي لحقت بجيوش الكفر، حتى إن سيوفهم قد صارت مسلمة تعيق خطوات الكفر عن الإقدام، ويذكر خسارتهم الفادحة بين قتيل وأسير، والمصير الذي آل إليه كبارهم وقادتهم، ويختم بضرورة الإسراع إلى تحرير القدس، فهذا الوقت المناسب لذلك، يقول العماد:" وقد أصدر هذه المطالعة وصليب الصلبوت[3] مأسور، وقلب ملك الكفر الأسير بجيشه المكسور مكسور، والحديد الكافر الذي كان في يد الكفر يضرب وجه الإسلام، قد صار مسلماً يعوّق خطوات الكفر عن الإقدام....، وطبرية قد رُفعت أعلام الإسلام عليها، ونكصت من عكا ملّة الكفر على

---

(1) سورة الحاقة، الآية 7 .

(2) أبو شامة ، الروضتين، 3 / 319 ـ 320.

(3) صليب الصلبوت: قطعة من الخشب، يعتقد المسيحيون أن المسيح عليه السلام صُلب عليها، انظر: ابن واصل، مفرج الكروب، 2/ 189.

عقبيها، وعُمّرت إلى أن شهدت يوم الإسلام وهو خير يوميها، وقد صارت البِيَع مساجد يعمرها من آمن بالله واليوم الآخر، وصارت المذابح مواقف لخطباء المنابر، واهتزت أرضها لموقف المسلم فيها وطالما ارتجَّت لموقف الكافر، فأما القتلى والأسرى فإنها تزيد على ثلاثين ألفاً، وأما فرسان الدَّاوية والإسبتار فقد أمضى حكم الله فيهم، وقطع بهم سوق نار الجحيم، ورحل الراحل منهم إلى الشقاء المقيم....، والبلاد والمعاقل التي فتحت: طبرية، عكا، الناصرة....، وما يتأخر النهوض إلى القدس، فهذا أوان فتحه، ولقد دام عليه ليل الضلال، وقد آن أن يُسفر فيه الهدى عن صبحه"[1].

ومن رسائل البشرى التي صور فيها العماد فرحة المسلمين بتحقيق النصر، رسالة بعثها إلى الديوان في بغداد، يبشره فيها بفتح بيت المقدس، وهي رسالة من عدة رسائل كتبها العماد[2]، وتظهر في هذه الرسالة أصداء النصر العظيم الذي حققه صلاح الدين، فيصور القدس قد تبدلت أحوالها، فعادت إلى قدسيتها، وتطهرت من الرجس، وعاد الإسلام إليها، بعد أن كان غريباً فيها، وتوافد الناس و الملائكة إلى المسجد الأقصى، وحلَّت أصوات المسبحين بدل أصوات النواقيس، يقول العماد:" وأعاد به القدس إلى قدسه، وأظهره وطهَّره من رجز الكفر ورجسه، وقد رجع الإسلام الغريب منه إلى داره، وخرج قمر الهدى به من سراره، وذهبت ظلم الضلالة بأنواره، وعادت الأرض المقدسة إلى ما كانت موصوفة به من التقديس، وأمنت المخلوف بها فصارت صباح السُرى ومناخ التعريس، وقد أقصى عن المسجد الأقصى الأقصون من الله الأبعدون، وتوافد إليه المصطفون الأقربون، والملائكة المقربون، وخرس الناقوس بزجل المسبِّحين، وخرج المفسدون بدخول المصلحين"[3].

ويصور العماد في هذه الرسالة فرحة الأماكن المقدسة، التي اشتركت مع الناس في فرحة التطهير، فظهرت عليها معالم البهجة والسرور، واجتمع فيها شمل المسلمين، وخرج منها أهل الشرك ودخلها أهل التوحيد، ويذكر العماد أيضاً الأهمية الدينية لهذه المدينة، ويهنئ البيت الحرام بخلاص أخيه البيت المقدس، يقول العماد:"

---

(1) أبو شامة، الروضتين، 3 / 320 ــ 321.

(2) انظر: الروضتين، 3 /346، 348، 356، الفتح القسي، 190.

(3) العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص 147.

وقال المحراب لأهله مرحباً وأهلاً، وشمل جماعة المسلمين من إقامة الجمعة والجماعة ما جمع للإسلام فيه شملاً، ورُفعت الأعلام العباسية على منبره فأخذت من برَّه أوفى نَصيب، وتلت بألسنة عذبها﴿نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾[1]، وغُسلت الصخرة المباركة بدموع المتقين من دنس المشركين، وبُعد أهل الأحد من قربها بقرب الموحدين، فذُكر بها ما كاد ينسى من عهد المعراج النبوي، وقامت بدلالتها براهين الإعجاز المحمدي، وصافحت أيدي منها موضع القَدم، وتجدد لها من البهجة والرسالة ما كان لها في القِدم، فهو ثاني المسجدين، بل ثالث الحرمين، فليُهنَّ البيت الحرام خلاص أخيه البيت المقدس من الأسر، وإسفار صبح الإسلام بعد طول اعتكار ليل الكفر، وتطهير مواقف الأنبياء صلوات الله عليهم من أدناس الأرجاس، وتضرع أرج الرجاء في أرجائه بعد الياس"[2].

ويصور العماد عظمة هذا الفتح، بأنه لا يحيط به وصف، فهو معجزة بحد ذاته، يعجز عن وصفه بشرٌ مهما أوتي من البلاغة والفصاحة، يقول العماد:" ولو شرح ما لهذا الفتح من جلال العظمة، ودلالة المكرمة، لكبا قلم البليغ في مضمار البيان ولم يبلغ مدى﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾[3]"[4].

ويتحدث العماد عن حامل هذه البشرى إلى ديوان الخلافة، وهو ضياء الدين القاسم الشهرزوري، ويصفه بأنه أهل لهذه المهمة، وخير من يحمل رسالة البشرى، يقول العماد:" والقاضي ضياء الدين القاسم الشهرزوري[5]، قد توجه لهذه النعمة واصفاً،

---

(1) سورة الصف، الآية 13 .

(2) العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص 147 ـ 148.

(3) سورة الكهف، الآية 109 .

(4) العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص 148 ـ 149.

(5) القاسم بن يحيى بن عبد الله بن القاسم أبو الفضائل ضياء الدين الشهرزوري،(ت 599هـ) كان فقيهاً فاضلاً جواداً كريماً أديباً شاعراً، ابن تغري بردي، جمال الدين أبو المحاسن يوسف، (ت 874هـ)، 1992م، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، قدمه وعلق عليه محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية ـ بيروت، ط1، ج6، ص 164.

وعندما يؤمر به من إنهاء البشرى بها واقفاً، وأولى من الوصف العرف من كان بأوصافه عارفاً، وأحق من شرح الحق والحقيقة من تفي بشرح الصدور مصادر شرحه، ويفتح على الإسلام أبواب الهناء بإنهاء ما تسنى من فتحه، ويحدث وهو الضياء بأسفار صبحه"[(1)].

ومن رسائل البشرى التي سطَّرها العماد، رسالة في فتح حصن بيت الأحزان في سنة 575هـ، بعث بها إلى القاضي الفاضل، يبشره فيها بتحقيق النصر على الأعداء، وفتح الحصن، ويهنئه بهذا الفتح، يقول في ذلك:" يهني بما ينهي نبأه النبيه، وأثره الأثير، وحديثه الحديث، وخبره الثبت الحثيث....، وهو فتح البرج، وحتف الفرنج، وتضوع النجح، وتوضح النهج....، وقد أخبر بما منَّ الله به ومنح، وأسنى من سناه فسنح من مقدمات السعادات، ومسعدات المقدمين، واجتهادات الغزاة، ومغزى المجاهدين"[(2)].

وتشتمل هذه الرسالة على تفاصيل لعملية الاستيلاء على الحصن، وفي وصف هذه العملية يقول:"فإنَّه لما حضر العسكر وحصره، وصابره وأبصره....، وعاد ظهراً على العدو ظاهراً، وللحصن حاصراً، حاملاً من تلك الغوارس لحشو المتارس، عاملاً لنصب المنجنيق عمل المقاسي المُقايس، ثم رأى أن يقدم على رفعه ونصبه جراً للجند إلى القتال، وزحفاً إلى أولئك الرجال المعدودة المحصورة بأولي العدة المُصحرين من الرجال، فما زحف حتى رجف، وما جرى حتى جرف، وما دلف حتى أوجف....، ولما أخذ النقَّابون مواضعهم شاهد القوم مصارعهم، فما زالت المعاول تعول، والجنادل تتخلخل، والنقاب يعمل، وإخراب بيت الأحزان في تبييته يعجل، حتى استقامت النقوب، واستنامت القلوب....، فتدارك الله الأرواح وتلافاها من التلف، وجلا عن وجه الإيمان سدفه الكلف، وأعيدت النقوب على المواضع بعد بردها، وأخذت العزائم بترك هزلها، والحمد لله الذي نصر الحق وأهله، وأدال الباطل وأذلَّه"[(3)].

---

(1) العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص 149.

(2) العماد الأصفهاني، البرق الشامي، ص 3/ 181.

(3) العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، ص 3/ 182 ـ 183.

ولا يخفى أن بعضاً من هذه الرسائل التي تحمل البشرى، يحمل في طيّاته تفاصيل المعركة التي دارت بين المسلمين والأعداء، فقد فصَّل العماد في رسالته السابقة للقاضي الفاضل، عملية النزول على الحصن وحصاره، وقتال الأعداء بشتى الطرق والوسائل، حتى تحققِ النصر للمسلمين.

ومن رسالة بشرى أخرى، يفصّل العماد أيضاً، عمل المسلمين بالأبراج الثلاثة التي نصبها الصليبيون على عكا، في سنة586هـ، وكيفية إحراقها، وهي رسالة من عدة رسائل، كتبها العماد في وصفه هذه الحادثة[1]، يقول العماد:" هذه المكاتبة مبشِّرة بالظفر الذي ورت زناده، والنصر الذي قرب ميعاده، وذلك أن أصحابنا بثغر عكا استظهروا وظهروا، وصبروا فانتصروا، ورموا من البلد أبراج الفرنج المنصوبة عليه بقدور النفط، وأنزلوها من سماء الرِّفعةِ إلى أرض الحط، وأطالوا بها ألسن النار المضرمة، ودبت من الأبراج المقربة إلى الدبابات المقدمة، وعلم العدو أن كرَّته خاسرة، وأن يده عن نيل المنى قاصرة"[2].

وتعددت كتب البشائر التي دبجها العماد بتنوع موضوعاتها، إلا إن ما يهمنا هنا، هو تلك الرسائل التي تصور الصراع والحرب مع الأعداء، ففي سنة 574هـ، بعث العماد برسالة إلى صلاح الدين الأيوبي، هنأه فيها بالعام، وأنها السنة الحادية عشرة من ملك مصر، هذا المُلك الذي وحَّد مصر والشام في مواجهة العدو، ونوّه فيها بالسنة الماضية التي تشهد على أعمال صلاح الدين وجهوده في الدفاع عن الإسلام، ويستشرف العماد في السنة المقبلة بقهر الباطل وإذلاله، وهو ما ينبئ عن جهود صلاح الدين في الوحدة الإسلامية، وسعيه الدائم إلى إنهاء الوجود الصليبي في البلاد الإسلامية، بما اتبعه من توحيد مصر والشام، الذي اعتبره العماد مولداً لدين الله سبحانه وتعالى، وفي ذلك يقول العماد:" وهذه السنة المباركة تستهل في تضاعيفها سنة ملكه الحادية عشرة، هو المُلك الذي لا يقول المملوك إنه كان للبركات مورداً، ولكن يقول إنه كان لدين الله سبحانه وتعالى مولداً....، والله تعالى يجعل السنة الماضية شاهدة بمنجيات أعماله، والسنة المقبلة مشاهدة لمواقف نصره للحق وإعزازه، وقهر

---

[1] انظر: الفتح القسي، 370، 373، 374، 375، 376، 377.

[2] العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، ص 374.

الباطل وإذلاله، وكتب هذه الخدمة والسلامة في بلاده كالصلاة في مساجدها جامعة، والنعم في أرضه كمصابيح السماء لامعة، والأمور منتظمة، والمبارّ مزدحمة، وأسباب الخير بين الخلق مقسّمة"[1].

وبتعدد الانتصارات، تعددت كتب البشائر، فمن الانتصارات التي حققها صلاح الدين الأيوبي، فتح حلب في سنة 579هـ، واعتبر العماد هذا الفتح توحيداً للأمة الإسلامية، فكتب البشائر يصور فيها فرح المسلمين بهذا النصر، وتوحيد بلاد الشام، وفي ذلك يقول:" صدرت هذه المكاتبة وقد تضوعت أرجاء الرجا بأَرج النُّجْح، وأعقبت ليلة سرى العزم من النصر سفور الصُبْح، وفازت متاجرنا في سبيل الله بالربح، وأجزل الله لنا نصيب المنّ والمنح، وذلك بما يسره لنا من فتح حلب سلماً أبدينا فيه صفحة الصفح، وسفرت وجوه المسلمين كافة بما وقعت السفارة فيه من هذا الفتح، وهو حتف عاجل للأعداء، وتُحف ألطاف للأولياء، وبانت شهب السماء بملكنا له دون محلّ الشهباء، وجعل الله لنا اليد البيضاء في تسكين الدهماء، ولم يبق إلا تصميم العزم على الجهاد في سبيل الله، مشحوذة فيه مضارب المضاء، وقد دانت لنا بلاد الشام بأسرها، وتضاعفت نعم الله التي لا نقوم بشكرها، ولا نعرفها حق قدرها"[2].

وكانت بعض كتب البشائر التي سطَّرها العماد تحمل أخباراً وبشرى بوصول جيش أو أسطول، كالبشرى التي كتبها العماد في سنة 586هـ، يبشر فيها بوصول الأسطول المصري الذي يحمل معه المؤن إلى أهل عكا المحاصرين، وفي ذلك يقول العماد:" هذه المكاتبة مبشرة بما سناه الله من النصر الهني، وهنّاه من النجح السني، وأجنى المسلمين من ثمر الظفر الجني، وذلك بوصول الأسطول المصري المنصور، ظهر يوم الخميس متظاهراً بإمداد الظهور، متوافراً بوفود الوفور، ودخوله سالماً غانماً إلى ثغر عكا المحروس المعمور، فأثرى البلد بعد إنفاضه، واجتمع إليه مدد القوة بعد انفضاضه، واستجدَّ جدة وافية، وعصمة واقية، وذخيرة كافية"[3].

---

[1] العماد الأصفهاني، البرق الشامي، 3/ 100.

[2] العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، 126/5.

[3] العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص 386.

ومن المناسبات السعيدة التي طرقتها رسائل البشرى، الوحدة بين مصر وشام، والخطبة للخليفة العباسي، بعد القضاء على الخلافة الفاطمية في سنة 567هـ، على يد صلاح الدين الأيوبي، ويذكر العماد أن نور الدين طلب منه أن يكتب بشارة عامة تُقرأ في سائر بلاد الإسلام، وبشارة خاصة للديوان العزيز في بغداد[1]، وهذا إن دل على شيء، فإنما يدل على أهمية هذا الحدث، الذي وحَّد بين مصر والشام، وكان له الأثر الأكبر فيما بعد، في مواجهة الصليبيين والانتصار عليهم.

---

[1] البنداري، سنا البرق الشامي، ص 313، وانظر: الروضتين، 2/ 203 ـ 205، مفرج الكروب، 1/ 216.

الفصل الثالث

صورة البطل المسلم

1.3 البطولة وعناصرها

البطولة هي الغلبة على الأقران، وهي غلبة يرتفع بها البطل عمَّن حوله من الناس العاديين ارتفاعاً يملأ نفوسهم له إجلالاً وإكباراً[1]، وتمثل شخصية البطل الفضائل المتعارف عليها في المجتمع، وخاصة الفضائل الحربية، حتى تتجه إليها الأبصار، وتستقطب الاهتمام، وتستثير الأخيلة[2]، وقد كانت بيئة الحروب الصليبية بيئة خصبة تتمثل فيها شخصية البطل؛ لأن أدب هذه الحقبة مضى يمجّد الأبطال الذين خاضوا غمار هذه الحروب، وأبلوا فيها بلاءً حسناً، فسجل الأدب أسماءهم وأحاطهم بهالة من التقديس والإعجاب، وخلدهم في صورة حبيبة إلى النفس، قريبة إلى القلب، يزيّنها الإيمان، ويجمّلها اليقين[3].

وكانت الهزيمة التي تلقتها الأمة الإسلامية، باحتلال أرضها وبسط السيطرة عليها من قبل الصليبيين، تحتاج إلى بطل، تلتف حوله، ويوحّد صفوفها، ويكون الخلاص على يديه، بطرد المغتصبين الفرنجة عن البلاد الإسلامية، ولهذه الحاجة الملحة، برز أبطال تمثلت فيهم صفات القيادة والبطولة، نذروا أنفسهم للوقوف في وجه الغزاة الطامعين في التوسع، واستيقظت الأمة على أيديهم من سباتها، فكانت الصحوة التي قادت إلى الانتصارات، وتكللت بفتح بيت المقدس، وصور الأدب هذه الانتصارات وتغنى بها، ومجّد القادة الذين عبّروا عن آمال الأمة وطموحاتها بالتحرير، وأشاد بدورهم في قيادة الأمة على دروب الخلاص والتطهير.

وتجلت صورة البطل المسلم لدى العماد الأصفهاني في شعره ونثره، من خلال تمجيد القيادات الإسلامية، ورسم الصورة المثلى للقائد المسلم، بكل ما يتحلى به من

---

[1] ضيف، شوقي، 1970م، البطولة في الشعر العربي، دار المعارف ـ القاهرة، ط2، ص7.

[2] إبراهيم، محمود، 1988م، صدى الغزو الصليبي في شعر ابن القيسراني، دار البشير ـ عمّان، ط2، ص155.

[3] أحمد بدوي، الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام، ص327.

صفات وفضائل، مكَّنته من لعب دور محوري في أحداث الصراع القائم بين المسلمين والفرنجة، إذ كانت شخصية البطل تعبر عن إعجاب المسلمين بتضحيات الأبطال في سبيل الأمة، وحمل تطلعاتها، والحفاظ على دينها، والذود عن حماها.

وتتمثل البطولة في الفضائل والقيم العليا في المجتمع؛ لذا كان أدب العماد يصور البطل ويسبغ عليه الصفات التي تجعل منه المثل الأعلى في المجتمع الإسلامي.

وكانت الشجاعة من أبرز هذه الصفات، وتشمل الشجاعة قوة العزيمة، وثبات القلب، والإقدام والجلد وقوة الاحتمال، والفتك بالأعداء، وقد ظهرت هذه السجايا بشكل جلي، في صورة البطل التي رسمها العماد، ومن ذلك قوله في نور الدين زنكي، يصوره غالباً للملوك وفارساً للفرسان وحائزاً للفخار، مستمداً القوة والعزيمة من الرحمن، يقول:

يا غالبَ الغُلبِ الملوكِ وصائدَ الـ　　　صِّيدِ اللُّيوثِ وفارسَ الفرســـانِ
لـم تلقهـمْ ثقـةً بقــوَّةِ شوكــــةٍ　　　لكـن وثقـتَ بنُصـرةِ الرحمـــنِ
مــا زالَ عزمُــكَ مستقـــلاً بالذي　　　لا يستقـــلُّ بثقلــــهِ الثّقــــلانِ[1]

وفي موضع آخر، يصوره وقد ألحق بالفرنج مصائب عظيمة، وأدخل في نفوسهم الرعب، يقول:

جلَّ رُزءُ الفرنــجِ فاستبدلــوا منـ　　　ـهُ بلُبسِ الحديدِ لُبسَ الحدادِ
فرَّقَ الرُّعبَ منه في أنفسِ الكُفّـ　　　ـارِ بين الأرواحِ والأجســادِ[2]

ويرسم العماد صورة جميلة لقوة العزيمة التي عند صلاح الدين، قادته إلى النصر على أعدائه وإلحاق الهزيمة بجيشهم، وقد اهتزَّت الأرض من تحتهم، يقول:

كسرتهمْ إذْ صحَّ عزمـكَ فيهـــمُ　　　ونكَّستهمْ إذْ صارَ سهمهمُ نَكسا
بواقعةٍ رجَّت بها الأرضُ جيشَهم　　　دماراً كما بُسَّـت جبالهـمُ بسَّـا[3]

ويصف العماد شجاعة صلاح الدين، وتمرسه في فنون القتال بالضرب والطعن، حتى أن دماء أعدائه قد شكَّلت غديراً بعد أن شَتَّت جموعهم، يقول:

---

[1] العماد الأصفهاني، الديوان، ص 410 ــ 417.
[2] العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، ص126.
[3] العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، ص 234.

وكمْ قدْ فلَلتَ جمـوعَ الفرنـجِ   بحدِّ اعتزامٍ شباهُ طريــــرُ
بضربٍ تحذَّفُ منه الرُّؤوسُ   وطعنٍ تخسفُ منه النُّحورُ
وغادرتَ غادرهُـم بالعـَـراءِ   ومن دمهِ كلُّ قطرٍ غديـرُ [1]

ومن بين الأبطال الذين مجدهم العماد وتغنى ببطولاتهم، تقي الدين عمر ابن أخي السلطان صلاح الدين الأيوبي، وقد كان بطلاً من أبطال الحروب الصليبية، فصوره العماد في شجاعته وقوة بأسه في القتال بألف مقاتل مدرع، وعندما يطلق أعنة خيوله فإنها تحجب الشمس بسبب ما تثير من غبار، وبفضله وشجاعته انتصر وجه الدين وابيضَّ، أما عندما يتحرك ويصول في المعركة، فإن رؤوس أعدائه تتساقط عند قدميه، وفي ذلك يقول:

إذا صـــالَ فالمغلـولُ ألـفٌ مدرَّعٌ   وإنْ جـــادَ فالمبذولُ ألفٌ مُكيَّسُ
إذا أطلقَ الملكُ المظفَّرُ في الوغى   أَعِنَّتَـهُ فالشَّمسُ بالنَّقـــعِ تُحبـسُ
وبيَّضتَ وجـهَ الدِّيـنِ يومَ لقيتهـم   وأبيضكمْ من أسودِ القصـرِ أشوسُ
إذا ما تقيُّ الدِّين صالَ تساقطـتْ   لأقدامهِ من عصبــةِ الشِّركِ أَرؤسُ[2]

وكان أسد الدين شيركوه عم صلاح الدين، من الأبطال البارزين في الصراع مع الفرنجة، واشتهر بشجاعته وقوته في المعارك، فوصف العماد شجاعته وقوة عزيمته، وقدرته على القيادة العسكرية وتحقيق النصر، فيقول:

قرنتَ بالحزمِ منكَ العزمَ فاتَّسقـتْ   مآربٌ لكَ عنهـا أسفـرَ السَّفرُ
وكيفَ يُخذلُ جيشٌ أنتَ مالكُــــه   والقائــدانِ لــه التأييـدُ والظَّفـرُ [3]

وله فيه أيضاً يصف بسالته وشجاعته، التي تركت في كل دار من ديار الفرنج نادبة، تبكي وتندب قتلاها، يقول:

في حلقِ ذي الشِّركِ من عدوى سُطاكَ شجاً   والقلبُ في شجنٍ والنَّفسُ في شَجَبِ
فـي كلِّ دارٍ مـــن الإفرنـــجِ نادبـــةٌ   بمــا دهاهُم فقـد بانـُوا على نَدَبِ[4]

---

(1) العماد الأصفهاني، الديوان، ص 192.

(2) العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، ص 237 ـ 239.

(3) العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، ص 170 ـ 172.

(4) العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، ص 80.

ويُعدُّ الكرم من بين الصفات التي يتصف بها البطل، وهو كرم قائم على البذل في سبيل الله ورفعة الدين، لذا نجد في أدب العماد صوراً عديدة للبطل الكريم والجواد المعطاء، الذي يعطي دون حساب، ومن ذلك قوله في نور الدين زنكي، وقد وصفه بالمتفرد بالكرم دون غيره من الأنام، فقال:

ومـــا فــي الأنــامِ كريــمٌ سواهُ فــإنْ كنــتَ تنكرنِــي فتّشِ[1]

ويصوره أيضاً بالبحر، وغيره من الملوك بالماء القليل، فهو غزير في فضله وإفضاله، يقول:

قدْ وَرَدتُ البحرَ الخضَّمَ وخَلّفـ ـتُ ملوكَ الدُّنيا به كالثِّمادِ
الغزيرُ الإفضالِ والفضلِ والنـا ئلِ والعلـمِ والتُّقــى والسَّــدادِ[2]

ولا نستغرب هذه الصور الفنية التي رسمها العماد للبطل نور الدين زنكي، فهو كالبحر في كرمه وجوده، ويذكر العماد في حوادث سنة 569هـ، موقفاً عن كرم نور الدين زنكي، فقد قال:" وكَلِف نور الدين في هذه السنة بإفادة الألطاف، والزيادة في الأوقاف، وتكثير الصدقات، وتوفير النفقات، وكسوة النسوة الأيامى في أيامها، وإغناء فقراء الرعية وإنجادها بعد إعدامها، وصون الأيتام والأرامل ببذله، وعون الضعفاء وتقوية المُقوين بعدله"[3].

ويتكرر عند العماد تشبيه البطل بالبحر، ومن ذلك قوله يصف كرم صلاح الدين الأيوبي:

فأَجرى بهـا مــن راحتيهِ بجودِهِ بحاراً فسمّاها الورى أنمُلاً عَشْرا[4]

وقوله أيضاً:

وقيلَ لنَـا في الأرضِ سبعةُ أبحرٍ ولسنــا نرى إلّا أناملَـهُ الخَمسا[5]

---

(1) العماد الأصفهاني، الديوان، ص 247.

(2) العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، ص 125.

(3) أبو شامة، الروضتين، 2/ 277 ـ 278.

(4) العماد الأصفهاني، الديوان، ص 160.

(5) العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، ص 231.

وفي موقف آخر يصف العماد كرم صلاح الدين وجوده، وقد شمل كل شيء، فهو كرم غزير، لا يضاهيه كرم، يقول:

كرمٌ سابــغٌ وجُودٌ عميــمٌ ونَدىً سائـغٌ وفضلٌ غزيرُ
راحــةٌ أم سحابــةٌ وبنـــانٌ أم غمامٌ، وأنحلٌ أم بحـورُ [1]

ويرسم العماد لكرم صلاح الدين وجوده، صورةً أخرى، فكرمه كالمطر الغزير على المحتاجين والضعفاء، حتى إن الفقير والمقل يصبح غنياً، يقول:

بفيضِ أياديهِ غيثُ النَّجــاحِ لأهلِ الرَّجاءِ سَموحٌ دَرورُ
مليكٌ بجَدواه يقوَى الضَّعيفُ ويُثْرَى المُقلُّ ويغنَى الفقيرُ [2]

ويُمثِّل العماد لكرم صلاح الدين الأيوبي، وكثرة عطائه، فقد صوَّر العماد مجلس صلاح الدين في مدينة دمشق، واستقباله للأكابر والأفاضل من أهلها، وأفضاله التي غمرت جميع من في المجلس، وفي ذلك يقول العماد:" وجلس يوماً آخر للأكابر والأماثل، والأكارم والأفاضل، فأضاء النادي، وفاضت الأيادي، وغدق الندى، وصدق الهدى، وكرَّ الكرم، وفرَّ العدم، وحفل الدر، ودرّ الحفل، وشمل النظام وانتظم الشمل، وصان العلماء بالبذل، وأعان بأفضاله أعيان أهل الفضل، وفاز بالحمد وحاز الثناء، وأجاز الشعراء، وأكرم الكرماء، وروّج الرجاء، وأولى النعماء، ونعّم الأولياء"[3].

والعدل من أبرز الصفات التي يتحلى بها البطل المسلم؛ لأنه من خلال العدل تسود المساواة بين الرعية، وتُعاد الحقوق إلى أصحابها، من هنا كانت صورة البطل المسلم عند العماد الأصفهاني تتكيءُ على العدل للوصول إلى شخصية البطل المثلى، واستطاع بطل العماد أن يلم بعدله شمل المسلمين، ويوحّد جهودهم، ويزيل ما بينهم من الشحناء والبغضاء، ومن ذلك قوله في عدل نور الدين:

أضحَى بعدلِكَ شملُ الملكِ ملتئماً وهل بعدلكَ شيءٌ غيرُ ملتئــمِ
آثارُ عزمكَ في الإسلامِ واضحــةٌ وســرُّهُ لــك بــادٍ غيـرُ مكتتــمِ

---

[1] العماد الأصفهاني، الديوان ، ص 180.
[2] العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، ص 191.
[3] العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص 215.

بما مــن العدلِ والإحسانِ تنشـرُهُ تخافُ ربَّكَ خوفَ المذنبِ الأثِمِ[1]

ويصور العماد عدل نور الدين وقد أظلَّ الأمة بالأمن، يقول:

قـد أسبـغَ الله لنـا بعدلِـهِ ظلالَ أمـنٍ وارفٌ مديدُهـا[2]

ويربط العماد بين عدل نور الدين وجوده، فمن يقيم عنده، يكون مقيماً بين عدله وجوده، يقول:

وكيـفَ لا يسعَدُ عبدٌ لـهُ أقـامَ بيـنَ العدلِ والجُـودِ[3]

ويربط العماد أيضاً بين العدل وصفات أخرى في مدحه لصلاح الدين الأيوبي، وكأنها صفات ملازمة لشخصية البطل، فيقول:

عدلتَ فلا ظلمٌ وطُلتَ فلا مدىً وقلتَ فلا مَينٌ وجُدتَ فلا قَحطُ[4]

وفي موضع آخر، يصور العماد عدل بطله صلاح الدين وقد عمَّر مصر، فالعدل أساس في الحكم، فيقول:

بعدلِـهِ والصَّـلاحُ يعمـرُها وبالنَّدى والجميـل يكنفُها[5]

وقد وصف العماد جانباً من عدل بطله صلاح الدين الأيوبي، وذلك حينما صوره وقد جلس في دار العدل، وحكم بين الناس بنفسه، واستمع إلى مظالمهم، ومنح الحقوق لأصحابها، وفي ذلك يقول واصفاً مجلس صلاح الدين:" وابتدأ بالجلوس في دار العدل وبحضرة القضاء والعلماء من أهل الفضل، واسترفع قصص المتظلمين، واستمع إلى غُصص المتألمين، وكشف الظلامات المظلمة، وفصل الحكومات المستحكمة، وقرأ كل قصة، وقرأها بكل حصة، وحقّق الحقوق، ورتق الفتوق، وأقام للشرع السوق، وأتم لرجال الرجاء بعدله الوثوق، وحلّ بانصافه كل مشكلة، وطب بإسعافه كل معضلة"[6].

---

(1) العماد الأصفهاني، الديوان، ص 380.

(2) العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، ص 144.

(3) العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، ص 138.

(4) العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، ص 282.

(5) العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، ص 308.

(6) العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص 214.

ومن أبرز الصفات التي أثبتها العماد لشخصية البطل صفة التقوى، خاصة أن البطل يقاتل أعداءه باسم الدين، ومن الملاحظ أن شخصية القائد الصالح في المجتمع الإسلامي لم تنسلخ يوماً عن شخصية الإنسان التقي[1]، ومن ذلك وصفه تقوى نور الدين:

قد استوى منك تقوى الــ   إلـــه ســــرٌّ وجَهـــرُ
تُقاك والمُلكُ عنـــد الـــ   قيـــاسِ عِقـدٌ ونَحـــرُ[2]

ويصور العماد بطله نور الدين زنكي بأنه لا مثيل له في حفاظه على السنن، وإخلاصه العبادة لله، ويلازمه الورع في حلِّه وترحاله، فيقول:

هل مثلُ محمود بن زنكي مخلصٌ   متوحِّدٌ يبغي رضاكَ بكلِّ فـَنْ
وَرِعٌ لـدى المحـرابِ أروعُ محــربٍ   في حالتيه إنْ أقامَ وإنْ ظَعَنْ[3]

كما يصفه العماد وقد تميز عن ملوك عصره بالعفة والتقوى، ويقول في ذلك:" وكان ملكها والذي يتولى ممالكها، الملك العادل نور الدين أبو القاسم محمود بن زنكي أعفّ الملوك وأتقاهم، وأثقبهم وأنقاهم ....، وأرجحهم رأياً، وأوضحهم آياً، وهو الذي أعاد رونق الإسلام إلى بلاد الشام، فاستفتح معاقلها واستخلص عقائلها"[4].

ويرى العماد في بطله صلاح الدين الأيوبي أن التقوى ملازمة له، حتى أنه بات يوصف بها، وفي ذلك يقول:

ويوسفُ مصرَ بغيرِ التُّقى   وبذل الصَّنائعِ لم يوصَفِ[5]

ويربط العماد بين النصر الذي يحققه البطل وبين التقوى، فتقوى الله تأتي بالنصر، فمن يتّقِ الله يمنحه أسباب النصر، ومن ذلك قوله في صلاح الدين الأيوبي:

رأى النَّصرَ في تقوى الإلهِ وكلّ من   تقوَّى بتقوى الله لا يعدمُ النَّصرَا[6]

---

[1] محمود إبراهيم، صدى الغزو الصليبي في شعر ابن القيسراني، ص 156.
[2] العماد الأصفهاني، الديوان، ص 175.
[3] العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، ص 421.
[4] البنداري، سنا البرق الشامي، ص 16.
[5] العماد الأصفهاني، الديوان، ص 304.
[6] العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، ص 160.

وقد انعكست التقوى التي يتصف بها البطل، على من يحيط به، فأثَّر فيهم وتأثروا فيه، ويصف العماد مواظبة صلاح الدين على النهي عن الكبائر، والأمر بالمعروف، حتى أن من حوله أصبحوا أعفَّ من الزُّهَّاد، وفي ذلك يقول:" وكان يغضب للكبائر، ولا يغضي عن الصغائر، ويرشد إلى الهدى، ويهدي إلى الرشاد، ويسدِّد الأمر ويأمر بالسَّداد، فكان مماليكه وخواصه، بل أمراؤه وأجناده أعف من الزُّهَّاد والعُبّاد"(1).

ولأن البطل يقاتل أعداء الله باسم الدين، ودفاعاً عن المقدسات، فهو زاهدٌ في حياته، لا يلتفت إلى مُتع الدنيا، ويبذل كل ما يملك في سبيل الله، وقد ظهر ذلك جلياً في أدب العماد، فصوَّر بطله نور الدين زاهداً في الدنيا، وفي ذلك يقول:

ما مثلُ الدُّنيا لمن يجمعُها بالحرصِ إلّا قَـزَّةٌ ودُودُهَا
أنتَ الذي يرفضُها عن قدرةٍ فلا يشوبُ زهـدَه زهيدُها(2)

وقد تعددت المواقف التي يصور فيها العماد زهد بطله، ومنها عدم التفات البطل صلاح الدين الأيوبي إلى الغنائم عند انتصاره على أعدائه، ومن ذلك قول العماد:" وترك السلطان الأسلاب والخيول لآخذيها، وكانت بأموال عظيمة، فما أعارها نظرة، ولا تردد أمره فيها، وفيها حِصَنٌ كأنها حصون، وزرد موضون، وخوذ منها مُذّهب ومدهون، وسيوف ذكور تتولد منها المنون، وملابس رائقات تحار فيها العيون"(3).

ليست الغنائم فقط هي ما يزهد فيه البطل، حتى الهدايا التي كانت تهدى إليه، كان ينفقها في عمارة المساجد، ويصف العماد زهد بطله نور الدين بقوله:" وأما ما يهدى له من الثياب والألطاف والبرود والأفواف، وهدايا الملوك من المناديل والسكاكين والمهاميز والدبابيس، وكل كثير وقليل، ودقيق وجليل، لا يتصرف في شيء منه، بل يعرض بنظره عنه، وإذا اجتمع يخرجه إلى مجلس القاضي ليحصِّل أثمانها الموفورة،

---

(1) العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص 659.
(2) العماد الأصفهاني، الديوان، ص 146.
(3) العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص 449.

ويصرفها في أمور المساجد المهجورة"[1]، وهذا يدلل على زهد البطل في أمور الدنيا وابتغاء مرضاة الله عز وجل فيما يفعل.

ولم تكن هذه الفضائل والصفات هي ما يمثل الجوانب المختلفة للبطل، فقد خلع العماد على أبطاله الفضائل والمثل العليا التي تبدت فيها البطولة العربية الإسلامية، وهذه الفضائل والمثل تعبير عن فضلهم وجهودهم وتميزهم في مجتمعهم.

وقد رسم العماد صورة لبطله نور الدين، وأسبغ عليه من الصفات والمآثر ما يجعله يتفوق على غيره من ملوك زمانه، حتى أنه منزَّهٌ عن العيوب، وفي ذكر صفاته يقول:

أدركتَ من أمرِ الزَّمانِ المُشتَهى ... وَبَلَغتَ من نَيلِ الأمَانِي المُنتَهَى
لا زلتَ نورَ الدِّينِ في فَلَكِ الهُدى ... ذا غُرّةٍ للعالمينَ بهَا البَها
يا محييَ العدلِ الذي في ظلّهِ ... من عدلهِ رعتِ الأسودُ مع المَها
مَولَى الوَرى مُولي الندى مُعلي الهُدى ... مُردي العِدى مُسدي الجَدَا معطي الُّلها
مُتلبسٌ بحصافةٍ وحصانةٍ ... مُتقدِّسٌ عن شَوبِ مَكرٍ أو دَهَا
يا من أطاعَ اللهَ في خَلواتِهِ ... متأوِّبَاً من خوفِه متأوِّهَا
كلُّ الأمورِ وَهَى وأمرُكَ مبرمٌ ... مستحكمٌ لا نقضَ فيهِ ولا وَهَا
ما نمتَ عن خيرٍ ولم يكُ نائماً ... من لا يزالُ على الجميلِ منُبِّها
ورأيتَ إرعاءَ الرَّعايا واجباً ... تُغني فقيراً أو تجيرُ مُدَلَّها
لرضاهمُ متحفِّظاً ولحالِهم ... مُتفقِّداً ولدينِهم مُتفقِّها
وبما بهِ أمرَ الإلهُ أمرتَهُم ... من طاعةٍ ونهيتَهُم عَمَّا نَهَى
عن رحمةٍ لصغيرِهم لم تشتَغِل ... عن رأفةٍ لكبيرِهم لن تُشدَهَا
فُقتَ الملوكَ سماحةً وحماسةً ... حتى عدمنَا فيهمُ لكَ مُشبهَا
ولكَ الفخارُ على الجميعِ فدونَهُم ... أصبحتَ عن كلِّ العيوبِ مُنَزَّهَا
وأراكَ تحلُمُ حينَ تصبِحُ ساخِطاً ... ويكادُ غيرُكَ ساخِطاً أن يَسفَهَا[2]

---

[1] البنداري، سنا البرق الشامي، ص 26 ـ 27.

[2] أبو شامة المقدسي، الروضتين، 34/2 ـ 35، والأبيات لم تذكر في الديوان، باستثناء البيت الأول، انظر: الديوان، ص 446.

ويبدو في هذه الأبيات، أن العماد قد لامس أغلب الصفات التي يتحلى بها البطل المسلم، من عدل وكرم وشجاعة وحكمة وصراحة بعيدة عن المكر والدهاء، وتقوى الله وطاعته، وزهده في الحياة الدنيا، وسهره على رعيته وقضاء مصالحهم، وحلمه، حتى غدا منزَّهاً عن كل عيب، وفاق ملوك زمانه.

وفي موضع آخر يذكر العماد ما يبذله البطل نور الدين في مصالح الدين، وسعيه الدائم للخير وابتعاده عن الشر، لا ينافق ويسعى دائماً للإصلاح ومحاربة الفساد، فيقول:

باذلٌ فــي مصالحِ الدِّيــنِ طَوعــاً   مـــــا حواهُ مـن طارفٍ وتـلادِ
وتراهُ صعبَ المقالــةِ فـــي الشــرِّ   ولكـن فــي الخيرِ سَهل القيـادِ
لــم يجـدْ عندكَ النِّفـــاقُ نَفاقــاً   فلِسُوقِ الفَســادِ سُوءُ الكَسَـــادِ[1]

ويبدو أن الفضائل التي رسمها العماد للبطل، قد جعلت منه رمزاً للأمة، يمثل لها النصر والخير، فهو يعتمد الصدق في ملكه، فيُعز الولي ويذل العدو، وتكون النتيجة السعادة لأبناء مملكته، والتعاسة لأعدائه، وفي ذلك يقول العماد في صلاح الدين البطل:

وللنَّاسِ بالمَلكِ النَّاصرِ الصّــــ   ـلاحِ صلاحٌ ونصـرٌ وخيـرُ
أرى الصِّدقَ في ملكِهِ المستقيم   ومُلكُ سِـــــواهُ ازورارٌ وزورُ
لعـــزِّ الولـــيِّ وذُلِّ العـــــدوِّ   نــوالٌ مبـــرٌّ وبـأسٌ مُبيـــرُ
بنعمتـــهِ للعفـــاةِ الحُبـــورُ   بسطوتـــهِ للعـُداةِ الثُّبُـــورُ[2]

وهنالك المواقف الإنسانية النبيلة، التي يتصف بها البطل في المجتمع الإسلامي، خاصة في التعامل مع الأعداء، فقد صور العماد بطله ذا نزعة إنسانية تميل إلى الوفاء والتسامح، ومن هذه المواقف ما فعله صلاح الدين الأيوبي مع صاحبة الكرك، حينما جاءت إليه تطلب فك أسر ولدها، ومعها زوجة ابنها، فما كان من السلطان إلّا أن استقبلهنَّ وأكرم وفادتهنَّ، وفي ذلك يقول العماد:" فأكرم السلطان وفادتهنَّ، ووفَّر إفادتهنَّ، وقرَّب إرادتهنَّ، وقرَّر زيادتهنَّ، ووهب لهن ولأتباعهنَّ

---

[1] العماد الأصفهاني، الديوان، ص 125 ــ 127.

[2] العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، ص 190 ــ 191.

وأشياعهنَّ ما كان يلزمهنَّ ويلزمهم من مال القطيعة، ووصلهنَّ بصلاته الرفيعة، وخصَّهنَّ بما لاق بكرمه من حسن الصنيعة، ووثَّقهنَّ بنُجح الذريعة"[1].

ولعل الصور المتعددة التي يرسمها العماد لبطله لا تبتعد عن صور البطولة الإسلامية التي عرفها التاريخ الإسلامي، وقد حفظ لنا هذا التاريخ سجلاً حافلاً وصفحات مشرقة عن البطولة وشخصية البطل المسلم، فلا عجب أن يلحق العماد بطله بالسلف الصالح، ومن ذلك تصويره لنور الدين زنكي بداوود عليه السلام، في دفاعه عن الملَّة وحفظه لها، فيقول:

والملَّـةُ الغرَّاءُ خالٍ بالُهـا　　　عالٍ سناها بكَ حالٍ جيدُهَا

مُفترةٌ ثغورُهـا ممنوعـةٌ　　　ثغورُها محفوظـةٌ حدودهـا

وإن بغى جالوتُها ضلالةً　　　فأنتَ في إهلاكِـهِ داودُهـا[2]

وفي موضع آخر، غدا بطل العماد نور الدين عفيفاً كسليمان عليه السلام، وزاهدا كاليسع عليه السلام، مقتدياً بهما، يقول:

أنتَ سليمانُ في العفافِ وفي الـ　　　ـمُلك وتحكِي بزُهدِك اليسَعَـا[3]

ويذكر العماد أن عدل بطله نور الدين قد عمّ الرعية، وشمل البلاد، وهو عدل اتصف به عمر بن الخطاب وعمر بن عبد العزيز، واشتهروا به، وفي ذلك يقول:

عُمرانُ عدلـكَ للبـلادِ كأنَّمـا　　　قـد عاشَ في أيَّامك العُمرانِ

سِيَرٌ لو أن الوحيَ ينزل أُنزلت　　　في شأنِهـا سُوَرٌ مـن القـرآنِ[4]

ويسبغُ العماد على بطله صلاح الدين من الصفات، مايشير إلى اقتدائه بالسلف الصالح، فهو كريم سخي كحاتم الطائي، وحكيم وقور كالأحنف بن قيس، فيقول:

وإنَّـهُ في السَّمـاحِ حاتمُهَـا　　　وإنَّـه فـي الوَقـارِ أحنفُهَـا[5]

---

[1] العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص 206، وانظر أيضاً معاملة صلاح الدين لأهل القدس من الفرنجة عندما فتحها، ص 135.

[2] العماد الأصفهاني، الديوان، ص 145.

[3] العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، ص 285.

[4] العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، ص 418.

[5] العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، ص 308.

ويربط العماد بين شخصية بطله صلاح الدين، وشخصية يوسف عليه السلام، ويصف حالة الأمن والاستقرار التي تعيشها مصر تحت حكم صلاح الدين، بالحالة التي عاشتها أيام سيدنا يوسف عليه السلام ، حيث عمّ الأمن والأمان، ويقول في ذلك:

ولما صَبتْ مصرٌ إلى عصرِ يوسفٍ   أعادَ إليها اللهُ يوسُفَ والعَصرا[1]

وفي موضع آخر يخلع العماد على بطله فروخ شاه ابن أخي السلطان صلاح الدين الأيوبي صفات تصوره مقتدياً بالسلف الصالح، فهو في فضله كأبي بكر الصديق وفي عدله كعمر بن الخطاب، وفي حلمه كعثمان بن عفان، وفي الشجاعة ونصرة الحق كعلي بن أبي طالب، وفي زهده وتقواه كسلمان الفارسي ـ رضي الله عنهم جميعاً ـ، وهذه الشخصيات الإسلامية لها دور مضيء في تاريخنا الإسلامي، وفي ذلك يقول:

في فضلـهِ في عدلـهِ في حلمـهِ   صدِّيقُـــهُ فاروقُـــهُ عثمانُـــــهُ

هو في السَّماحِ وفي اللّقاء عليُّه   هو في العفافِ وفي التُّقى سلمانُهُ[2]

ولم يكتف العماد بالربط بين البطل والشخصيات الإسلامية، بل استحضر شخصيات أخرى تاريخية، عُرفت بالحكمة والشجاعة، كالإسكندر ورستم، ومن ذلك قوله في أسد الدين شيركوه، والذي عُرف في مواقفه البطولية أثناء المعارك التي خاضها، يقول في وصفه:

أصبحتَ بالعدلِ والإقدامِ منفرداً   فقل لنا: أعليٌّ أنتَ أم عمــرُ

إسكنـدرٌ ذكروا أخبـارَ حكمتــهِ   ونحنُ فيكَ رأينا كلَّ ما ذكروا

ورستمٌ خبَّرونـا عـن شجاعتــهِ   وصارَ فيكَ عيانــاً ذلك الخبرُ[3]

تلك هي أبرز الفضائل والصفات، التي خلعها العماد على شخصية البطل المسلم في أدبه، ويبدو أنها لم تكن مزيفة، أو نتيجة انفعالات آنية، بل نابعة من مشاعر أديب عايش الصراع مع الأعداء، ورأى المواقف البطولية والمشرفة لهؤلاء الأبطال، فرسم بريشته صوراً لا تكاد تنسى لهم، وهذا ما يؤكده الواقع التاريخي لهؤلاء الأبطال ويؤيده،

---

[1] العماد الأصفهاني، الديوان، ص 160.

[2] العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، ص 436.

[3] العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، ص 170.

فالتاريخ يحتفظ لهم بمواقف وشواهد تعد مثالاً للشخصية الإسلامية النموذج، في فكرها وسلوكها، وجمعها لعناصر البطولة الإسلامية.

2.3 دور البطل في الصراع

لعب أبطال الحروب الصليبية دوراً مهماً في أحداث هذا الصراع، واحتلوا مكانة مرموقة في تاريخنا الإسلامي؛ للجهود العظيمة التي قاموا بها، وظهرت هذه المكانة من خلال جهادهم المتواصل ضد الأعداء والحث عليه بشتى الوسائل، وسعيهم الدائم لاسترداد المقدسات ودحر المحتل، ومحاولاتهم الدؤوبة في رأب الصدع بين أقطار الأمة الإسلامية، فكانوا خير قادة للحروب والمعارك، والتي تكللت بنجاحات وانتصارات خالدة.

وقد أبرز العماد في أدبه الدور الذي اضطلع به البطل المسلم، ليس في قتال الأعداء فحسب، بل من خلال رعاية مصالح الأمة وشؤونها، وإشاعة الأمن والاستقرار، الأمر الذي أبرز حاجة الناس للبطل ، وتعلقهم به رمزاً يعني لهم الخلاص من المحتل، ورسم العماد صورة وضَّاءة للبطل المجاهد في سبيل الله، فنراه يجهز الجيوش، ويقود المعارك بنفسه، ويشترك فيها تحفيزاً لهمم جنوده، ويفتك بأعدائه ويحقق الانتصارات الساحقة عليهم، وهذا ما ظهر في أدب العماد بشكل جلي.

وأول ما يستوقفنا عند الحديث عن دور البطل في الصراع، شخصية البطل المجاهد، دائم السعي إلى الجهاد في سبيل الله، حتى أن الجهاد أصبح أمنية، بل من أحلى الأماني التي تحقق الأمان لدى البطل نور الدين، يقول العماد:

أحلَى أمانيكَ الجهادُ وإنَّــــه　　لكَ مؤذنٌ أبداً بكلِّ أمـــانِ(1)

وفي موضع آخر، يصوره مغرماً بالجهاد والغزو في سبيل الله، وكأنه عاشق لا يستطيع الصبر عن المحبوب، يقول:

أصبحـتَ بالغـزوِ صبَّـــاً　　وعنــهُ مــا لــكَ صبـرُ(2)

---

(1) العماد الأصفهاني، الديوان، ص 411.

(2) العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، ص 176.

ويصور العماد شغف صلاح الدين بالجهاد وحبه له، باللذة الوحيدة التي يسعى دائماً لإشباعها، فيقول:

لذَّ المتاعبَ في الجهادِ ولم تكن مـذْ عاشَ قطٌّ لذّاتِه لذَّاتُـهُ(1)

ويجعل العماد من بطله نور الدين مجاهداً، لا يضاهيه أحد من الملوك في جهاده، لا في السرِّ ولا في العلانية، يقول:

قلْ أينَ مثلكَ في الملوكِ مجاهدٌ للّـهِ فـي سـرٍّ وفـي إعـلانِ(2)

ولا أدل من حب نور الدين للجهاد وتعلقه به، طلبه من العماد الأصفهاني بأن يعمل له دوبيتات في الغزو والجهاد، كان الهدف منه استنفار الأمة، وحثها على الجهاد في سبيل الله، ومنها قوله:

لا راحةَ في العيشِ سوى أن أغزُو سيفي طرباً إلى الطُّلى يهتـزُّ
فـي ذلِّ ذوي الكفـرِ يكـون العـزُّ والقدرةُ في غيرِ جهادٍ عجـزُ (3)

وقوله أيضا:

للغزوِ نشاطي وإليـهِ طربـَـي مالي في العيشِ غيرَهُ من أَربِ
بالجدِّ وبالجهادِ نُجحُ الطَّلـبِ والرَّاحةُ مستودَعـةٌ فــي التَّعـبِ(4)

ويصور العماد اندفاع البطل للجهاد وتصميمه عليه، وتفضيله الجهاد على ملذات الدنيا، فيقول في وصف عزم السلطان صلاح الدين على الجهاد:" ثم رحل السلطان مقدماً، ولعزمه في الجهاد مصمّماً، ولرأيه في بذل الوسع والاجتهاد متمّماً، وسار في جيش مجر، لسيل الخيل مُجر، من سواد القتام في ليل، ومن بياض البيض في فجر، ومن حب الغزو في وصل، ومن سلو الحياة في هجر، وفي أجرى أجرٍ وأنحى نحرٍ "(5).

---

(1) العماد الأصفهاني، الديوان، ص 87.

(2) العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، ص 417.

(3) العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، ص 223.

(4) العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، ص 77.

(5) العماد الأصفهاني، البرق الشامي، 36/3.

ويلعب البطل دوراً بارزاً في المعارك التي يخوضها، حينما يقود جيشه في المعركة، ويبعث الحماسة والحمية في نفوس المقاتلين، ويفتك بأعدائه، ومن ذلك قوله في نور الدين:

كـمْ بكرِ فتحٍ ولّدَتـهُ ظُباكَ مــن   حربٍ لقمعِ المشركيـنَ عَــوانِ
كـمْ وقعةٍ لك في الفرنجِ حديثُهَا   قـد سارَ فــي الآفـاقِ والبُلدانِ[1]

ويشيد العماد بدور القائد صلاح الدين في تحقيق النصر في ساحات الوغى، ويرى فيه مفخرة وعزاً للإسلام، فيقول:

بفتوحِ عصركَ يفخرُ الإسلامُ   وبنورِ نصركَ تشرقُ الأيام
دمْ للعلا حتى يدومَ نظامُهـا   واسلمْ يعزُّ بنصرِكَ الإسلامُ[2]

ولا ينكر العماد البطولة الجماعية في تركيزه على الدور المهم الذي يلعبه البطل في قيادة المعارك، فنجده يركز أيضاً على إبراز التفاعل بين البطل وجنده في القتال، فالقائد رمز لجنوده في القتال يسخر طاقاتهم ويستفيد منها في القتال، وقد ذكر العماد نماذج لهذه البطولة الجماعية، والتي لعب فيها البطل دوراً مهماً من خلال توجيهها، فيقول العماد مصوراً جنود نور الدين وتأثرهم بحميَّته:

حملتْ عليهم من جنودِكَ فتيةٌ   لـم تـدرِ غيـرَ حميَّـةِ الفتيـانِ[3]

ويؤكد العماد على الهدف الذي يقاتل من أجله البطل المسلم، وهو الجهاد في سبيل الله، ورفع راية الإسلام، ومن ذلك قول العماد في صلاح الدين الأيوبي ودوره في الدفاع عن الدين الحنيف وأهله، فيقول:

حمى حوزةَ الدِّين الحنيفِ بحوزه   من الخالقِ الحُسنى ومن خلقهِ الشُّكرا[4]

وبما أن البطل يمتلك العزيمة على الجهاد، ويشجع جنوده عليه، فهو مُؤيدٌ من الله؛ لأنه يؤدي دوراً مهماً في هذه القيادة العسكرية، وفي ذلك يقول العماد مادحاً نور الدين:

---

(1) العماد الأصفهاني، الديوان، ص 411.

(2) العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، ص 377 ـ 378.

(3) العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، ص 413.

(4) العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، ص 160.

مُؤيِّــدٌ أمــورَه بعزمَــــــةٍ من السَّمواتِ العلى تأييدُها[1]

ويقول في صلاح الدين أيضاً:

لك اللهُ في كلِّ ما تبتغيــهِ بحقٍّ ظهيــرٍ ونعمَ الظهيــرُ[2]

وقد أبرز العماد الدور الذي اضطلع به البطل في صراعه مع الأعداء، ليس من خلال رسمه لصورة البطل المجاهد فقط، وإنما من خلال سعيه لاسترداد المقدسات، ويتمثل ذلك في حث العماد على استعادة بيت المقدس، فيقول مخاطباً صلاح الدين:

فصبُّوا على الإفرنجِ سوطَ عذابهــا بأنْ تقسِموا ما بينها القتلَ والأسرَا

ولا تهملوا البيتَ المقدَّسَ واعزموا على فتحهِ غازينَ وافترعوا البِكـرا

تديمونَ بالمعروفِ طيِّبِ ذكركـم وما الملك إلَّا أنْ تديموا لكم ذِكـرا[3]

ولأن هذا التحرير يتطلب وحدة بين الأقطار الإسلامية، فقد كان البطل ساعياً إلى هذه الوحدة، وفي ذلك يقول العماد مادحاً نور الدين على تحقيق الوحدة الإسلامية بين مصر والشام، في سنة564هـ، تحت راية البطل القائد نور الدين، فيقول:

فملكُ مصرَ وملكُ الشَّامِ قد نُظما في عقدِ عزٍّ من الإسلامِ منتظمِ

محمودٌ الملكُ الغازي يسوسُهمــا بالفضلِ والعدلِ والإفضالِ والنعمِ

بالشُّكــرِ كـلُّ لسانٍ ناطقٍ أبــداً محمودٌ الملْـكُ محمودٌ بكلِّ فــمِ[4]

ويصف العماد محاولات البطل لتوحيد البلاد الإسلامية، ومن ذلك نزول السلطان صلاح الدين الأيوبي على الفرات، ومكاتبته لأصحاب الأطراف للوفاق ونبذ الخلاف، وفي ذلك يقول:" فلما جزنا الفرات وحزنا الثبات، وجمعنا من الرجال والرحال الشتات، واغتنمنا في الطيب الأوقات، وتسلمنا البيرة والعَمق، وأوسعنا على العداة في ذلك الخرق، ورعنا بغربنا الشرق، كاتبنا أصحاب الأطراف بالوفود للوفاق والتنحي عن

---

[1] العماد الأصفهاني، الديوان، ص 144.

[2] العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، ص 193.

[3] العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، ص 161.

[4] العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، ص 382.

مذهب الخلاف، وإنه من جاء مسلماً وللأمر مستسلماً، سلمت بلاده وصِينت أطرافه وتلاده، على أن يكون من أجناده في غزو الكفار وجهاده"[1].

والبطل في مرحلة الصراع، يقود الأمة إلى سبيل الرشاد، من خلال استقطاب الرعية حوله، والاهتمام بشؤونهم، ورعاية أمورهم، فيؤدي البطل دوره كقائد عسكري، ينهض بعبء الجهاد ومواجهة أعداء الأمة، وحاكم يصرّف شؤون الدولة ويهتم بأمور الرعية، ويصور العماد اهتمام نور الدين برعيته، وتيسيره لأمورها، فيقول:

إنَّ الرعايَا منــهُ في رعايــةٍ   ونعمـــةٍ مستوجَـب مزيدُهــا
لنومِهـا يسهـرُ بــلْ لأمنِهـا   يخافُ بلْ لِخصبها يجودُهـا[2]

ومن مظاهر اهتمام البطل برعاية شؤون المسلمين، إسقاط الضرائب عنهم، ويصف العماد في حوادث سنة 569هـ، ما قام به نور الدين من الأوقاف والصدقات وإسقاط الضرائب، وهو ما يدل على اهتمام القائد بأمور رعيته، فيقول :" وكلف نور الدين في هذه السنة بإفادة الألطاف، والزيادة في الأوقاف، وتكثير الصدقات، وتوفير النفقات، وتعفية آثار الآثام، وإسقاط كل ما يدخل تحت شبهة الحرام، وأمر بأن تكتب مناشير لجميع البلاد، بإطلاق الطراف من الرسوم والتلاد، فما أبقى سوى الجزية والخراج، وما يحصل من قسمة الغلات على قويم المنهاج، وحسبنا ما تصدق به على الفقراء في تلك الأشهر، فزاد على ثلاثين ألف دينار من الذهب الأحمر "[3].

ويثني العماد على البطل المسلم، عندما يكون حريصاً على ابتغاء مصلحة الأمة، وعارفاً بما تحتاج، ومن ذلك مدحه لنور الدين عندما أسقط الضرائب المفروضة على الأمة، يقول:

أسقطتَ أقساطَ ما وجدتَ من الـ   مَكسِ بعدلٍ والقاسطُ ارتدَعا
ولــم تـدعْ في ابتغاءِ مصلحةِ الـدِّ   يـنِ لنـا باقيـاً ولــن تدَعـا[4]

ويقول أيضاً في صلاح الدين:

---

[1] العماد الأصفهاني، البرق الشامي، 25/5 ـ 26.

[2] العماد الأصفهاني، الديوان، ص 144.

[3] البنداري، سنا البرق الشامي، ص 26.

[4] العماد الأصفهاني، الديوان، ص 286.

فكيفَ مكستَ المشركينَ رؤوسَهُـم   ودأبكَ في الإحسانِ أنْ تطلقَ المَكسَا[1]

ويُظهر العماد اهتمام بطله بشؤون رعيته، وذلك في حثه لولاة الأمر عنده على الالتزام بالشرع، ومعاملة الرعية بالعدل والإحسان، ومن ذلك قوله في صلاح الدين:"وشرط عليه طاعته، وفي كل غزاة متابعته ومشايعته، ومبادرته عند الاستدعاء بالاستعداد ومسارعته....، وأنه يعمّر البلد وأعماله، ويعمّها بإحسانه، ويعيد ما تشعث منها إلى عمرانه، ويسقط المكوس ويغبط النفوس، ويبدل بالنعمى البؤس وبالبشر العبوس، ويبني العروش ويزكي الغروس، ويديم لمطيّ المكاره وكف العظائم الركوب، ولنشر المكارم وكشف المظالم الجلوس ....، واحمل بحملك أعباء العباد، واكفِ بحكمك بلاء البلاد، وأقم صلوات الصلات، وأدم سكنات الحسنات وحركات البركات، وأدِّ صدقات الصدقات، وتنكب طرق طوارق النكبات، وابعد عن معاني الشبهات ومظانّ الشهوات، وانتهز فرص الخيرات فواتها قبل الفوات، وأحيِ لأوليائك بآلائك موات الموات"[2].

ولعل العماد كان يهدف إلى إظهار جانب اهتمام القائد بأمور رعيته، وهدفه من ذلك إشاعة الأمن والاستقرار بين أطراف دولته الإسلامية، حتى تنهض بعبء مواجهة الأعداء، وكأنه يرسم سياسة القائد في تعامله مع رعيته، ويظهر ذلك من خلال توصية صلاح الدين لولاة أمره على معاملتهم للرعية بالعدل والإحسان، وتوفير مستلزماتهم في معايشهم، والتخفيف من أعباء الحياة عليهم، ليخلق بذلك مجتمعاً قوياً متماسكاً قادراً على دحر الأعداء واسترداد المقدسات.

وتمثلت رعاية أمور المسلمين بإنشاء المؤسسات الاجتماعية، كالمساجد والمدارس والرّباطات والأسواق، التي توفر للمسلمين أسباب معايشهم وتيسير أمورهم، في كل ما يحتاجون إليه.

وكان البطل مهتماً بهذا الجانب، فنجد العماد يثني على همة نور الدين في بنائه الربط والمدارس، فيقول:

---

(1) العماد الأصفهاني، الديوان، ص 234.

(2) العماد الأصفهاني، البرق الشامي، 5/ 105.

همَّتك الرُّبطُ والمدارسُ تبــ نيها ثوابــاً وتهدمُ البِيَعــا[1]

وكان صلاح الدين مهمتاً ببناء المدارس والرّباطات، فعندما فتح بيت المقدس، أمر ببناء مدرسة للفقهاء الشافعية، ورباطاً للصلحاء الصوفية،" ووقف عليها وقوفاً، وأسدى بذلك على الطائفتين معروفاً، وارتاد أيضاً مدارس للطوائف، ليضيفها إلى ما أولاه من العوارف"[2].

ويشير العماد إلى دور السلطان صلاح الدين الأيوبي في إزالة المنكرات من المجتمع، بهدف تحصينه وتقويته، وحمل الناس على الالتزام بالشرع، وفي ذلك يقول العماد:" وأما المأمور به في معنى المنكرات الظاهرة، وإزالة أسبابها وغلق أبوابها، وتحصين كل مهتوكة من عصمة، وتطهير كل موصومة، فالله يثيب المولى ثواب من غضب ليرضيه بغضبه، وحمل الخلق على منهاج شرعه وأدبه"[3].

ويذكر العماد ما يمتاز به الحاكم المسلم من صفات جعلت منه قائداً وحامياً للأمة، يوفر لها ما تحتاجه من متطلبات، ويعاملهم بعدل يبعث على المساواة بين أفراد الرعية، ومن ذلك وصفه لسياسة نور الدين في الحكم، وانعكاس ذلك على دولته ورعيته، يقول:" وكان عصره فاضلاً، ونصره واصلاً وحكمه عادلاً، وفضله شاملاً، وزمانه طيِّباً، وإحسانه صيِّباً، والقلوب بمهابته ومحبته ممتلية، والنفوس بعاطفته وعارفته متملية، وأموره مقتبلة، وأوامره ممتثلة، وجدّه منزّه عن الهزل، ونوّابه في أمن من العزل، ودولته مأمولة مأمونة، وروضته مصوبة مصونة، والرياسة كاملة، والسياسة شاملة، والزيادة زائدة، والسعادة مساعدة، والعيشة ناضرة، والشيعة ناصرة، والإنصاف صاف، والإسعاف عاف، وأزر الدين قوي، وظمأ الإسلام رويّ، وزند النجح وَرِيّ، والشرع مشروع، والحكم مسموع، والعدل مُولّي والظلم معزول، والتوحيد منصور والشرك مخذول، وللتقى شروق، وما للفسوق سوق"[4].

---

(1) العماد الأصفهاني، الديوان، ص 286.

(2) العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص 145.

(3) البنداري، سنا البرق الشامي، 152.

(4) أبو شامة المقدسي، الروضتين، 50/1.

والبطل يقود الأمة في الجوانب كافة، ليس فقط بالقيادة العسكرية في المعارك، بل في بناء المؤسسات الاجتماعية، وتوفير الأمن والاستقرار لأفراد رعيته، فنجده يشجع على العلم والتعلم، فيبني المدارس، ويجري لها النفقات، ويعقد مجالس العلم والأدب، ويشارك فيها، ويذكر العماد حب صلاح الدين للعلماء وتقريبهم له، والإحسان إليهم، ومن ذلك قوله:" ويؤثر سماع الحديث بالأسانيد، وتكلم العلماء عنده في العلم الشرعي المفيد، وكان لمداومة الكلام مع الفقهاء، ومشاركة القضاة في القضاء، أعلم منهم بالأحكام الشرعية، والأسباب المرضية، والأدلة المرعية"[1].

والبطل في قيادته للأمة، يقود الأرواح قبل الأجساد، وعلى قدر إحسانه للرعية، تكون المحبة والتعلق به، وعلى قدر البذل والعطاء والالتزام بالشرع، يتحول البطل القائد إلى رمز، يعني لأمته الشيء الكثير، ولا غرابة أن يتعلق الناس بالبطل ويحبوه، فهو الخلاص بالنسبة لهم، خلاص من الظلم والاستعباد والاحتلال في آن معاً، ويرى العماد أن حب الناس للبطل واجب ديني، وبغضهم إياه يعد كفراً، فيقول في نور الدين:

وإنَّ حبَّـــك ديـــنٌ   وإنَّ بغضَـــك كفـــرُ[2]

ويؤكد العماد على فكرة حب الرعية للبطل القائم بشؤونها ورعايتها، ومن ذلك تصويره لفرحة أهل دمشق بقدوم صلاح الدين إليها، في سنة 584هـ، ومدى تعلقهم به، فكأن الروح عادت إلى هذه المدينة بقدوم بطلها، وفي ذلك يقول:" ورحل السلطان نحو دمشق طاهر الشيمة، ظاهر العزيمة، سامي اللواء، هامي الأنواء، نامي الأنوار في مطالع المضاء، ودخل إليها يوم الخميس سادس شهر ربيع الأول، بالصدر الأرحب والباع الأطول، وتلقاه أهل البلد بوجوه لإقباله متهللة، وألسنة بالدعاء له مبتهلة، وعيون لأنواره مجتلية، وقلوب بولائه ممتلية، وأسماع لأمره مستمعة، وأيدٍ إلى الله في نصره مرتفعة، وصدور بأيامه منشرحة، وآمال في إنعامه منفسحة، ونفوس على طاعة الله في طاعته مجبولة، وأعمال في رضا الله لمراضيه مبرورة مقبولة،

---

(1) العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص145.

(2) العماد الأصفهاني، الديوان، ص174.

ودخل المدينة، وأدخل إليها السكينة، فوجدت الروح بسلطانها، وعادت الروح إلى جثمانها، وقرّت به عيون أعيانها، وأقرَّت له بحسنها وإحسانها"[1].

ومن الجدير بالذكر، أن العماد في تمجيده لدور البطل الذي اضطلع به في صراعه مع الأعداء، لم يقف عند البطلين نور الدين وصلاح الدين وحدهما، بل مجَّد أبطالاً آخرين، خاضوا غمار الحروب، وقادوا الأمة إلى الانتصارات، وحققوا الأمجاد الخالدة في تاريخنا الإسلامي، ومن هؤلاء الأبطال البارزين الذين لعبوا دوراً مهماً في جهاد العدو، أسد الدين شيركوه، ويرى فيه العماد نصراً للأمة الإسلامية، ورمزاً لعزتها ورفعتها، وفيه يقول العماد:

وما غضبتَ لدينِ اللهِ منتقماً ... إلّا لنيلِ رضا الرَّحمنِ بالغَضَبِ
وأنتَ من وقعتْ في الكُفرِ هيبتُه ... وفي ذويهِ وقوعَ النَّار في الحَطَبِ
يا محييَ الأمة الهادي بدعوته ... للرُّشدِ كلَّ غوي منهمُ وغبي
لما سعيتَ لوجهِ اللهِ مرتقباً ... ثوابَهُ نلتَ عفواً كلّ مرتقبِ[2]

ومن الذين مدحهم العماد وأشاد بأدوارهم البطولية ، والد صلاح الدين أيوب، فوصف عزمه وعمله الدؤوب لنصرة الدين، يقول:

موفَّقُالرأيِ ماضي العزم مرتفعٌ ... على الأعاجمِ مجداً والأعاريبِ
أحبكَ اللهُ إذْ لازمتَ نجدتَهُ ... على جبينٍ بتاجِ المُلكِ معصوبِ[3]

وفي موضع آخر، يشيد العماد بالدور القيادي الذي لعبه البطل تقي الدين عمر، ويتغنى بصفاته القيادية، وفتكه بأعدائه، وصوّره كالكهف الذي يأوي إليه الجنود عند الحاجة، فيقول:

أخو العزمِ المؤيَّدِ بالمساعي الـ ... ـتي نجحتْوذو الرأيِ المتينِ
فعندَ الجودِ كالجَودِ اندفاعاً ... وعند الحلمِ كالطّودِ الرَّصينِ
عدوُّكَ كالذّبابِ لهُ طنينٌ ... وفيهِ ذبابُ سيفكَ ذو طنينِ
أخفتَ الشِّركَ حتى الذُّعر منهم ... يُرى قبلَ الولادةِ في الجنينِ

---

(1) العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص214.

(2) العماد الأصفهاني، الديوان، ص81.

(3) العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، ص83.

وأضحى الدِّينُ منكَ قريرَ عيـنٍ وظلَّ الشِّركُ ذا طـرفٍ سخينِ
وكنـتَ لعسكـرِ الإسـلامِ كهفـاً أوى منـهُ إلـى حصنٍ حصينِ
وقـدْ عـرفَ الفرنـجُ سُطـاكَ لمّا رأوا آثارَهـا عيـنَ اليقيـنِ
وأنـتَ ثبتَّ دون الدِّيـن تحمـي حمـاهُ أوانَ ولّـى كـلُّ دونِ[1]

ومن الأبطال الذين كان لهم دورٌ في الصراع مع الصليبيين، حسام الدين لؤلؤ قائد الأسطول، فقد كان له صولات وجولات في حرب الأساطيل البحرية، ويشيد العماد بدوره القيادي فيقول :" وهذا لؤلؤ قد اشتهرت في الكفر فتكاته، وشكرت في العدو نكاياته، وقد تفرّد بغزوات لم يشاركه فيها أحد، ولم يكن فيها على الإسلام لغيره يد، وما سلك نهجاً إلّا ملك، ولا طلب غاية إلّا أدرك، وهو ميمون النقيبة، مشكور الضريبة، وهو الذي ردَّ الفرنج عن بحر الحجاز، ووقف لهم على طرق المجاز، ولم يترك منهم عيناً تطرف، ولم يبقِ لهم دليلاً يُعرف، وغزواته مشهورة، وفتكاته مذكورة، وأمواله مبذولة، وأكياسه لعقد الإنفاق في سبيل الله محلولة"[2].

3.3 الموازنة بين أبطال الجهاد والمتقاعسين عنه

رسم العماد صورة مشرقة للبطل المسلم، ووضّح دوره في قيادة مسيرة الجهاد ضد الغزاة والتصدي لهم، وأبرز دوره كذلك في رعاية أمور المسلمين والاهتمام بأمرهم، ولكي تكتمل صورة البطل المسلم عند العماد، نجده يقابل بين نموذجين من الحكّام، مجاهد لا يتوانى عن أداء واجبه في التصدي للغزاة الطامعين، وذلك المتعاجز المتخاذل الذي انكفأ عن أداء واجبه، مؤثراً ملذاته وشهواته على أداء الواجب، وتظهر الصورتان بشكل جلي في أدب العماد، بهدف إبراز الدور القيادي الذي لعبه البطل في صراعه مع العدو، وتلك الانتصارات والإنجازات التي حققها لنصرة الدين الإسلامي، وهذه الإنجازات والانتصارات هي التي تكشف المتقاعس والمتخاذل عن أداء واجبه، بل وتعرّيه أمام شعبه.

---

[1] العماد الأصفهاني، الديوان، ص426 ـ 429.

[2] العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص340.

ومن أجل ذلك، نجده يعقد مقارنة بين بطله نور الدين وغيره من الحكّام، فيصف نور الدين بالوفاء والسهر على مصالح المسلمين، في حين ينام غيره، وفي ذلك يقول:

يـا أعظـمَ النَّاسِ قـدْراً   وهـلْ لغيـرِكَ قَـدرُ
وسَاهـراً حيـنَ نامُـوا   وقَائمـاً حيـنَ قَـرّوا
مـا اعتـدتَ إلّا وفـاءً   وعـادةُ القـومِ غـدرُ
وفعلُـكَ الدَّهـر غــزوٌ   للمشركيــنَ وقهــرُ
وفعـلُ غيـرِكَ ظلــمٌ   للمسلميــنَ وقســرُ [1]

وفي موضع آخر، يصوره ملكاً بعيداً عن الملذات، فاعلاً للخير، يتفوّق على ملوك زمانه في الجهاد وحكمه لرعيته، فيقول:

مـا للملوكِ لدى ظُهورِكَ رَونــقٌ   وإذا بدتْ شمسُ الضُّحى خفيَ السُّها
إنَّ الملوكَ لَهَـوا وإنَّــك من غَـدا   وبمالِــه والمُلـك منــه مــا لَهَــا
شَرِهَـتْ نفوسُهُـم إلـى دنياهُــمُ   وأبـى لِنفسِـكَ زهدُهــا أنْ تَشْرَهَـــا
فُقـتَ الملوكَ سماحــةً وحماســةً   حتَّى عدِمنَــا فيهــمُ لــكَ مُشبِهَــا
ولكَ الفخارُ على الجميعِ فدونَهُم   أصبحتَ عـن كـلِّ العيوبِ مُنزّهَـا [2]

ويظهر العماد التباين الكبير بين أبطال الجهاد القائمين بأمور الدين والملك، وبين الذين مالوا إلى الراحة، وانجرفوا وراء ملذاتهم وشهواتهم، فيقول في نور الدين:

بالدِّيـنِ والملـكِ لـه قيامهُ   وللملوكِ عنهـا قعودُها
ودأبهُ تلمُ ثغورِ الكفرِ لا   لثمُ ثغورٍ ناقعٍ بَرُودُهـا [3]

وتتكرر الفكرة عند العماد، حين يرسم صورتين متناقضتين، الأولى لحاكم مسلم همّه الجهاد، والثانية لحاكم متخاذل همّه إشباع رغباته، ومن ذلك قوله في نور الدين:

يُمسـي ويصبـحُ في الجهادِ وغيرُهُ   يضحي رضيعَ سلافةٍ وضجيعَ دنْ [4]

[1] العماد الأصفهاني، الديوان، ص 175.

[2] أبو شامة المقدسي، الروضتين، 34/2 ــ 35 .

[3] العماد الأصفهاني، الديوان، ص 144.

[4] العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، ص 421.

وعندما يشكل البطل رمزاً لجهاد الأمة، فإنه يتفوق على غيره من الحكام، ويحبه الناس دون غيره، فشتان ما بين البطل المجاهد وغيره من الحكام المتقاعسين عن الجهاد، ويقول العماد في صلاح الدين:

إليكَ هجرتُ ملوكَ الزَّمـانِ   فمـا لـكَ واللهِ فيهِـم نظيــرُ
وفجركَ فيهِ القِرى والقُــرَان   جميعاً وفجرُ الجميعِ الفجورُ
وأنتَ تريـقُ دمـاءَ الفرنــجِ   وعندَهــمُ لا تــراقُ الخمــورُ[1]

وفي إطار التعريض بالمتخاذلين، يعقد العماد مقابلة يوازن فيها بين البطل صلاح الدين الساعي إلى الجهاد والوحدة الإسلامية، وبين حكام زمانه الساعين إلى التلذذ بشهواتهم، في فترة كان المسلمون فيها بأمس الحاجة إلى قائد يوحدهم ويجمع شملهم، وفي ذلك يقول العماد:

كـمْ مـارقٍ مــن مـأزقٍ دَمُـهُ على   مَسْحِ الحسامِ مُراقُـهُ مُسَّاحُـــهُ
يُصبيكَ نهـدٌ إنْ سبـــاهُ ناهـــدٌ   ولديكَ جدٌّ إن أبـاهُ مزاحُــــهُ
ولـكَ الكعــوبُ مُقوَّمــاتٌ للـرَّدى   ولـهُ الغَداةَ كعابــهُ ورَداحُـــهُ
راحُ النجيعِ بها صحافُ صفاحكُم   مَلأى وتملأ كـلَّ كـأسٍ راحُـهُ
وتجـولُ فـــي صَهَواتِهـا فرسانُكُم   وتدورُ فـي خَلواتِـــه أقداحُـــهُ
ويروقُــهُ الخمـرُ الحـرامُ وعندكمْ   مما يُراقُ مـــن الدِّماءِ مُباحُــهُ
ضربُ الطُّلَى بالمشرفيِّ طِلابُكُم   وبراحِ من شربَ الطِّلا طُلَّاحُـهُ[2]

ولا عجب إن التفت الرعية حول بطل من هذا النوع، يطرب للرماح المشرعة للردى، وتتخضب سيوفه بدماء الأعداء، وتجول فرسانه في ميادين القتال، في حين نجد الحكام الآخرين يميلون للمزح وشرب الخمر والملذات بأنواعها.

وحينما كان المسلمون يحققون انتصاراً على أعدائهم، كان العماد يشيد بالقائد البطل الذي حقق هذا النصر، ويعيّب على الملوك الآخرين عجزهم وتخاذلهم، ذلك أن البطل سلك طرقاً للمجد والعلا، بينما تقاعس الآخرون عن تسجيل أسمائهم في صفحات المجد، وفي ذلك يقول العماد مادحاً صلاح الدين:

---

[1] العماد الأصفهاني، الديوان، ص 194.

[2] العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، ص 110.

أدركتَ ما أعجزَ الملوكَ وقدْ   باتَ إلى بعضِهِ تَشوُّفُهـا
جاوزتَ غاياتِ كلِّ منقبـــةٍ   يعزُّ إلاّ عليكَ موقفُــــها
وإنَّ طرُقَ العلاءِ واضحـــةٌ   آمنُها في السُّلوكِ أخوفُها[1]

ولعل هذه النماذج تعطي صورة واضحة للحكام المتقاعسين عن مواجهة العدو المحتل، وذلك من خلال مقارنتهم بأبطال الجهاد، وذكر إنجازاتهم، فحين فتح صلاح الدين بيت المقدس في زمن كان المسلمون فيه يعيشون حالة من الانقسام والتشرذم، أشاد العماد بهذا النصر المؤزر للأمة الإسلامية، وهنأ صلاح الدين بهذا الفتح الجليل، الذي عجز عنه الملوك، وتقاصرت عنه أيديهم، وتمكن منه البطل المقدام صلاح الدين، وفي ذلك يقول: "وكلهم يهنئه بما أفرده الله بفضيلته، وخصّه بنُجح وسيلته، وأقدره عليه وقد عجز عنه الملوك، وهداه إلى سبيله وقد تعذر بهم إليه السلوك، وهو فتح القدس الذي درج على حسرته القرون الأولى، وتقاصرت عنه أيديهم المتطاولة وتمكنت منه يده الطولى"[2].

وقد وقف بعض الحكام مواقف تخاذل، شكلت عقبة في وجه الوحدة الإسلامية، فكان هؤلاء الحكام يتصلون بالفرنج، يدفعهم إلى ذلك مصالحهم الشخصية، وذكر العماد طائفة منهم وذمّ عاداتهم، وفي ذلك يقول:" كلما عزمنا على خير عرضت في طرقه الطوارق، وعاقت دونه العوائق، واعترض نهجه إخوان الشياطين، وعاثت في سرحه أشباه السراحين، ونلقى ضد ما هو الواجب من وفاء الملوك ووفاء السلاطين، وقد بُلينا من المسلمين بما لا نصفه من رفضهم أمر الدين وإغماضهم دون مصالحه، واعتراضهم مناهج مناجحه، فليتهم إذ فرغوا للّذاتهم، ومعاشرة لداتهم، ومباشرة شهواتهم، ومراضعة أخلاف لهوهم، ومضارعة أحلاف رهوهم، ومخادعة أطماعهم، ومضاجعة طباعهم، ومبايعة دنهم بدينهم، ومتابعة الشك بمخالفة يقينهم".[3]

ويصف العماد تعاون هؤلاء المتخاذلين مع أعداء الأمة، فيقول:"فإنهم مع إبدائهم صفحة الصلح ووجه الصلاح، وإعطائهم المواثيق على اقتران النجح منهم بالاقتراح، لا

---

[1] العماد الأصفهاني، الديوان، ص 310–311.
[2] العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص 181.
[3] العماد الأصفهاني، البرق الشامي، ص 136/3.

تنقطع رسلهم عن الفرنج والحشيشية[1]، ولا حثهم أيّاهم على الأذية، يوقظونهم لكل مخزية، وينهضونهم لكل مزرية، ويعدونهم ويمنّونهم غرورا، ويريدون أن يطفئوا لله نوراً، فإذا جبنوا شجعوهم، وإن جنَّبوا رجّعوهم، وإن قعدوا أنهضوهم، وإن رقدوا أيقظوهم، وإن رهبوا رغّبوهم، وإن بعدوا قرّبوهم، وهم يدلّونهم على العورات، ويجرونهم على المضرّات، ويبصرّونهم بالسوءات، والله سبحانه بالمرصاد"[2].

ويذكر العماد أن هنالك حكاماً كانوا يتعاونون مع الصليبيين، ويسهلون دخولهم إلى البلاد الإسلامية، مما يشكل خطراً عظيماً على الأمة الإسلامية في صراعها مع عدوها، ومنهم السلطان السلجوقي الذي تراسل مع ملك الألمان، وسهّل له مهمة عبور البلاد الإسلامية، ونعت العمادُ المسلمَ الذي يقف مع الكافر بالكافر، وفي ذلك يقول:" وتراسل هو وملك الألمان، واتفقا في الباطن على ما كان بينهما من المواثيق والأيمان، وحمل ملك الألمان له وفراً وافراً، وأشبه المسلم بالكف عن الكافر كافراً، ووافقه على العبور إلى الأقاليم الشامية، والبلاد الإسلامية"[3].

وهنالك فئة من المسلمين، تخاذلوا وتقاعسوا عن القتال والنزال، وتعودوا حياة الكسل واللهو، فعندما فتح السلطان صلاح الدين الأيوبي مدينة آمد في سنة 579هـ، وصف العماد هذه الفئة المتخاذلة، وأسبغ عليهم صفات تدل على تخاذلهم وتقاعسهم عن القيام بالواجبات الموكولة إليهم، وفي ذلك يقول:" وكنا إذا شددنا القتال ورددنا النزال، وقفوا بمعزل وقوف النظّارة، وحسبوا أن الخسارة في الجسارة...، وإنما ألفوا مداناة الدنان ومعاقرة العقار، وأنين الأوتار، وحنين الأوطار، ونعرات الصنج، وغمزات

---

(1) الحشيشية: لقب أطلق على طائفة الإسماعيلية، الذين يُنسبون إلى إسماعيل بن جعفر الصادق (ت 145 هـ)، اتخذوا الاغتيال وسيلة لهم في التخلص من أعدائهم، عن طريق تخديرهم بمادة الحشيش، وكانوا يشكلون خطراً على الأمة الإسلامية، انظر: زيان، حامد زيان غانم، 1983م، الصراع السياسي والعسكري بين القوى الإسلامية زمن الحروب الصليبية، دار الثقافة للنشر والتوزيع ـ القاهرة، ، ص 87 ـ 88 .

(2) العماد الأصفهاني، البرق الشامي، ص 136/3.

(3) العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص 390.

الغنج، ورموز الزمور وبدور الخدور، وأقمار القصور وشموس الندام، وكؤوس المدام"[1].

وفي معرض ذلك يوازي العماد بين فئتين متناقضتين، فيقول:"فهؤلاء الذين ألفوا الراح والراحة، واعتادوا في بحر الطرب السباحة، كيف يصح اعتزاء اعتزامهم وتثبت إقدام أقدامهم، وكيف يطلبون متاع المتاعب، ويركبون مطا المطالب....، وأين ذوو الحميّا من ذوي الحميّة، ولاثمو المراشف من ثالمي المشرفية، ومعتقلو القنا من معتقدي القينة، ومقدمو المنيّة من مقدّمي المُنية، ومنتضو البيض من مقتضي البيض، وأصحاء العزائم من مُرضي اللحظ المريض، وأرباب الحجى من ربات الحجول، وموسعو المجال من موشّي الجمال، ومعانقو الكعوب من معانقي الكعاب، ومقابلو الثغور من مقبّلي الثغور، ومقصدو المرّان في النحور من قاصدي رمان النحور، ومصبحو المعارك من معاركي الصباح، ومقومو الرماح من مقيمي المراح، ومطيّفو الصفاح من مطيفي الصحاف..." [2].

ويبدو أن العماد قد حشد قدراً كبيراً من الصفات المتناقضة بين أبطال الجهاد والمتقاعسين عنه، بهدف رسم صورة جلية للباحثين عن الملذات والشهوات، حتى أن دورهم كان سلبياً في صراع المسلمين مع الفرنجة، غايتهم المصالح الشخصية والمُتع الدنيوية، وكأنَّ أمر هذا الصراع لا يعنيهم.

ومن صور التخاذل التي أبرزها العماد في أدبه، ما يندرج تحت باب التنازع السياسي، وتفضيل المناصب والكراسي على مصلحة المسلمين، حتى لو تطلب ذلك الاستنجاد بالصليبيين، مما ترك حالة من الاضطراب والفوضى بين أقطار الأمة الإسلامية، ولعل شاور السعدي[3]، أبرز هؤلاء المتخاذلين، الذين دفعتهم مصالحهم إلى الاستعانة بالفرنج ضد أبناء جلدتهم، وفيه يقول العماد مخاطباً أسد الدين شيركوه بعد أن أصبح وزيراً في مصر:

---

(1) العماد الأصفهاني، البرق الشامي، 88/5.

(2) العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، 5/ 90.

(3) هو شاور بن مجير السعدي الهوازني، وزير العاضد صاحب مصر، ولي له الوزارة سنة 558هـ، انظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان، 339/2 ـ 343.

من شرِّ شاورَ أنقذتَ العبادَ فكـــمْ وكمْ قضيتَ لحزبِ اللهِ مـــــــن أرَبِ
هوَ الذي أطمعَ الإفرنجَ في بلدِ الـ إسلامِ حتى سَعوا للقصدِ والطَّلــــــبِ
وإنَّ ذلكَ عندَ اللهِ محتســـــــــبٌ في الحشرِ من أفضلِ الطَّاعاتِ والقُرَبِ[1]

وفي موضع آخر، يشبه العماد شر شاور بالجمر الذي يلحق الأذى بالإسلام، حتى جاء نور الدين وأطفأ هذا الجمر، وفي وصف خيول نور الدين يقول العماد:

لقدْ شفتْ غلّةَ الإسلامِ وانتقمتْ من العدوِّ بحدِّ الصَّارِمِ الحَـــــــذِمِ
أعانها اللهُ في إطفاءِ جمرِ أذىً من شرِّ شاورَ في الإسلامِ مضطرمِ[2]

ويتشابه موقف شاور في تعاونه مع المشركين، بموقف اليهود أيام النبي عليه الصلاة والسلام، وفي ذمة يقول العماد:

لاذَ بالنِّيلِ شاورٌ مثلَ فرعــو نَ فذلَّ الّلاجي وعزَّ العبورُ
شاركَ المشركينَ بغياً وقِدمــاً شاركتها قريظةٌ والنَّضــــيرُ[3]

وهنالك من الحكام، من ساءت أفعاله، وظلم رعيته، وخرج عن أنظمة الدولة الإسلامية وقوانينها، وتخاذل عن الأمور التي تهم الرعية، كالجهاد في سبيل الله ووحدة الصف الإسلامي، فهذا غازي بن حسان صاحب منبج، قد سلك دروب المتقاعسين، ما دفع نور الدين إلى محاصرته وانتزاع القلعة منه، وفي ذلك يقول العماد:

ما أعجزتكَ الشُّهبُ في أبراجِـــها طلباً فكيفَ خوارجٌ في أبـــرجِ
وَلَقَدْرُ مَنْ يعصيكَ أحقرُ أن يرى أثرَ العبوسِ بوجهكَ المُتبلِّـــجِ
لكنْ تُهذِّبُ من عصاكَ سياســـــةً في ضمنِها تقويمُ كلِّ مُـــعوَّجِ[4]

وفي سنة 593هـ، كُلِّف عزُّ الدين أسامة[5] بالحفاظ على بيروت، وكان قد ترك جماعة من الأجناد يحفظونها، وذلك بعد أن خرّب مربضها، فخاف الأجناد من الفرنج

---

(1) العماد الأصفهاني، الديوان، ص80 ـ 81.

(2) العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، ص 381.

(3) العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، ص 181.

(4) العماد الأصفهاني، المرجع نفسه ، ص102.

(5) عزّ الدين أسامة (ت 608هـ) كان والي بيروت، انظر: ابن واصل، مفرج الكروب، 74/3، 210.

وانهزموا، وبقيت القلعة خالية ليس فيها من يحميها، وعندما علم الفرنج بذلك استولوا عليها دون قتال، فلعن الناس أسامة لتفريطه فيها، وهجاه العماد على هذا التخاذل في دفاعه عن المدينة، فقال:

إنَّ بيعَ الحصونِ من غيرِ حربٍ   سُنَّـةٌ سنَّها ببيروتَ سَامهْ
لعنَ اللهُ كلَّ مـن بـاعَ ذا البيـعَ   وأخزى بخزيهِ من سَــامهْ[1]

4.3 رثاء البطـــل

كان من الطبيعي أن يقف الأدب حزيناً باكياً، عندما يهوي نجم من هذه النجوم التي كانت تلمع أمام المسلمين، وتضيء قلوبهم، وتخلق في نفوسهم الأمل، في حياة تتطهر فيها أرضهم من آثام العدو الغاصب، وأن يُسجل لهؤلاء الأبطال ما قدموه في حياتهم، مما يخلّد ذكرهم، ويضعهم أمام خلفِهم مثلاً يقتدى بهم[2]، خاصة بوجود أبطال قادوا المسلمين، وحققوا لهم الانتصارات، وجمعوا الأمة الإسلامية بعد أن تفرقت، وتمكنوا من استعادة ما أُخذ من بلادهم، وعبّر العماد عن الأسى العميق الذي لحق بالأمة الإسلامية، بوفاة هؤلاء الأبطال، فرثاهم وعدد مناقبهم، وصور حال الأمة لفقدهم، بصور معبرة توحي بألم عميق لفقدهم.

وقد وصف العماد موت البطل نور الدين في سنة 569هـ بقوله:" وانتقل حادي عشر شوال يوم الأربعاء من مربع الفناء، إلى مرتع البقاء، ولقد كان من أولياء الله المؤمنين، وعباده الصالحين، وصار إلى جنات عدن أُعدت للمتقين"[3].

ووصف كذلك موت البطل صلاح الدين في سنة 589هـ بقوله:" وانتقل من دار الفناء إلى دار البقاء، في سحرة يوم الأربعاء، ونابت الظلماء عن الضياء، ودخل قمره ليلة السابع والعشرين في السِّرار، ودجت مطالع الأنوار"[4].

---

(1) العماد الأصفهاني، الديوان، ص 445 ـ 446.

(2) أحمد بدوي، الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية، ص 513.

(3) أبو شامة المقدسي، الروضتين، 309/2 .

(4) أبو شامة المقدسي، المرجع نفسه، 367/4.

ويظهر العماد مدى الحزن الشديد الذي ألمَّ بالمسلمين بسبب وفاة بطل من أبطال الإسلام، هو نور الدين زنكي، وصوّر موته بالفاجعة الكبرى التي أصابت المسلمين، وفي رثاءه لنور الدين، يظهر التفجع والتحسر الذي أصاب الإسلام والمسلمين، فالدين الإسلامي أظلم، والدهر أصيب بالغم والحسرة، وما على الإسلام إلا أن يندب حظه العاثر لموت حامي أهله، ولأن الشام أصبح مهدداً بالضيم، عليه كذلك أن يشارك في البكاء والتفجع، وفي ذلك يقول:

الدِّينُ في ظلمٍ لغيبةِ نـــــورِهِ   والدَّهرُ في غَمٍّ لفقدِ أمـــــيرِهِ
فلْيندبِ الإسلامُ حامي أهلــــهِ   والشَّامُ حافظَ ملكهِ وثغـــــورِهِ
ما أعظمَ المقدارَ في أخطـــارِهِ   إذْ كان هذا الخطبُ في مقدورِهِ
ما أكثرَ المتأسِّفينَ لفقدِ مَـــنْ   قرّتْ نواظرُهـــم بفقدِ نظـــــيرِهِ[1]

وعندما يرثي العماد صلاح الدين الأيوبي، يصور موته بالمصيبة التي عمّت كل شيء، ويمتد الحزن والأسى لموته حتى يشمل البلاد الإسلامية والمسلمين، ويمتد ليصل الخيول والسيوف والرماح، فالكل حزين لموته، فيقول:

وكعادةِ البيتِ المقدَّسِ يحزنُ الـــ   بيتُ الحرامُ عليهِ بلْ عرفاتُـــــهُ
بكت الصَّوارمُ والصَّواهلُ إذْ خلتْ   من سلِّها وركوبِها غزواتُـــــهُ
وبسيفهِ صداً لحزنِ مصابــــهِ   إذْ ليسَ يشفي بعده صدياتُـــــهُ
يا وحشتاً للبيضِ فـي أغمادِهـا   لا تنتضيهـــا للوَغـــى عَزماتُـــهُ
يا وحشةَ الإسلامِ يومَ تمكَّنَـــتْ   فـــي كـلِّ قلـبِ مؤمـنٍ روعاتـُـهُ
يا حسرتا من بأسِ راحتِهِ الـــذي   يقضي الزَّمانُ وما انقضتْ حسراتُهُ[2]

ويزداد البكاء والتأسف على موت نور الدين زنكي، والذي بوفاته انقلبت الموازين، واختلت الأمور، حتى أن الكفر كاد يعلو على الدين، يقول العماد:

لفقدِ الملكِ العـــــــــادِ   لِ يبكي المُلكُ والعَـدلُ
وقد أظلمتِ الآفـــــــــا   قُ لا شمسٌ ولا ظـــلُّ
ولمَّا غابَ نورُ الدِّيـــــــ   نِ عنّا أظلَمَ الحفـــلُ

---

[1] العماد الأصفهاني، الديوان، ص 212 ـ 213.

[2] العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، ص 89.

وزالَ الخصبُ والخيـــــرُ وزادَ الشــرُّ والمحــلُ

ومــاتَ البــأسُ والجــودُ وعاشَ اليـأسُ والبخـلُ

وكـادَ الدِّينُ ينحـــــــطُّ وكـادَ الكفرُ أن يعـــلو[1]

ولأن القائد البطل رمزٌ للأمة، فإن مماته يشكل موتاً للعالمين جميعاً، وبموته ساد الظلام، ودُفن السماح، ويصور العمادُ الدينَ بالجبل الذي تضعضع واختلفت أركانه، بعد وفاة صلاح الدين، وفي ذلك يقول:

لا تحسبوهُ ماتَ شخصٌ واحـــــدٌ فمماتُ كلّ العالمين مماتُهُ

قد أظلمتْ مُذْ غابَ عنَّـــا دُورُه لمّا خلتْ من بدرِهِ داراتُــهُ

دُفنَ السَّماحُ فليسَ تُنشرُ بعدَمـــا أودَى إلى يومِ النُّشورِ رُفاتُهُ

الدِّينُ بعدَ أبي المظفرِ يوســــف أقوتْ قراهُ وأقفرتْ ساحاتُــهُ

جَبَلٌ تضعضعَ من تَضَعضُعِ ركنهِ أركاننا وتهدَّنـــا هداتُــــهُ[2]

ويبدو أن الحزن والأسى لم يكن لذات القائد، بقدر ما كان يعنيه للمسلمين من قيم وفضائل وصون للدين، فعندما توفي صلاح الدين الأيوبي، وصف العماد أثر موته على الرعية، بما كان يشكل لها من فضائل، وكيف أن موته قد قلب الأمور، فغابت الفضائل، وانقطعت الأرزاق، حتى أن الزمان نفسه قد فُجع بموته، وفي ذلك يقول:" وتوفي بكرة الأربعاء السابع والعشرين، ونقله الله في دسته العالي إلى أعلى عليين، ومات بموته رجاء الرجال، وأظلم بغروب شمسه فضاء الأفضال، وغاضت الأيادي، وفاضت الأعادي، وانقطعت الأرزاق، وادلهمت الآفاق....، وخاف الآمن، وخاب الآمل، وقنط السائل، وشُحط النائل، وطردت الضيوف، ونُكر المعروف، ودُفن بالقلعة في داره، وفُجع الزمان بأنواره، وعدمت الأيام صباحها، والآمال نجاحها، ودُفن معه الكرم، وغلب بعد وُجِودِه وَجُودِه العُدم والعَدم"[3].

---

[1] العماد الأصفهاني، الديوان، ص 336 ــ 337.

[2] العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، ص88.

[3] العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص627.

وعندما يموت البطل، تكون رعيته أول من يفتقده، وأكثر المتضررين بموته، خاصة إذا كان دائم السهر على نصرة الإسلام، رحيماً باليتامى والأرامل، راعياً للدين، فهو جديرٌ بأن يفتقد، يقول العماد في رثاء صلاح الدين:

في نصرةِ الإسلامِ يسهرُ دائماً ليطولَ في روضِ الجنانِ سنانُهُ
من لليتامى والأراملِ راحـــــمٌ متعطِّفٌ مفضوضةٌ صَدَقاتُــــهُ
يا راعياً للدِّينِ حينَ تمكَّنـــتْ منه الذِّئابُ وأسلَمتهُ رعاتُــــــهُ[1]

وبموت البطل تظهر الحاجة إليه، وهذا ما دفع العماد للتساؤل عن مصير المسلمين بعد موت نور الدين، وقد عُرف عنه اهتمامه الشديد برعاية أمور المسلمين، من بناء للمساجد والمدارس، ونصرته لدين الله، وعطاء يجبر كل كسر، وفي ذلك يقول العماد:

منْ للمدارسِ والمساجدِ بانـــــياً للهِ طوعاً عن خلوصِ ضميرهِ
منْ ينصرُ الإسلامَ في غزواتـــهِ فلقدْ أُصيبَ بركنهِ وظهيـــرهِ
منْ للخطوبِ مذلِّـلاً لجماحهــــا من للزَّمان مسهِّلاً لوعـــورهِ
منْ للكريمِ ومـن لنعشِ عــــثارهِ من لليتيمِ ومن لجبرِ كسيـــرهِ[2]

ويستعرض العماد أعمال البطل ومنجزاته في معرض حديثه عن موت البطل، ويصور الفراغ الكبير الذي تركه موت البطل في حياة المسلمين، ومن ذلك قوله في رثاء صلاح الدين:

أينَ الذي عنتِ الفرنجُ لبأســـــهِ ذلاً ومنها أدركتْ ثاراتُـــــهُ
أغلالُ أعناقِ العدا أسيافُـــــــهُ أطواقُ أجيادِ الورَى منّاتُــــــهُ
منْ في الجهادِ صفاحُهُ ما أُغمدتْ بالنَّصرِ حتى أُغمدتْ صفحاتُهُ
منْ في صدورِ الكفرِ صدرُ قناتـهِ حتى توراتْ بالصِّياحِ قناتُـــــهُ
مسعودةٌ غدواتهُ محمـــــــــودةٌ روحاتهُ ميمونةٌ ضَحَواتُــــــهُ[3]

ويؤكد الفكرة نفسها في رثائه لنور الدين، فيقول:

---

(1) العماد الأصفهاني، الديوان، ص 88 ـ 91.
(2) العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، ص 213.
(3) العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، ص 87.

مَنْ للفرنجِ مَنْ لأسرِ ملوكِهَـــا   مَنْ للهُدى يبغي فكاكَ أسيـرهِ
مَنْ للبلادِ ومَنْ لنصرِ جيوشِها   مَنْ للجهادِ ومَنْ لحفظِ أُمورهِ
مَنْ للفتوحِ محاولاً أبكارَهـــــا   برواحهِ في غزوهِ وبُـــــكورهِ[1]

ويتأسف المسلمون على أيام البطل، عندما يحل الفساد بعد موته، وتقوى شوكة أعدائهم، وتضطرب أمورهم، ومن ذلك قول العماد في نور الدين:

أنتَ الذي أحييتَ شرعَ محـــــمدٍ   وقضيتَ بعدَ وفاتهِ بنشـــورهِ
كمْ قد أقمتَ من الشريعةِ مَعلمــاً   هو منذُ غبتَ مُعرَّضٌ لدثـورهِ
كمْ قيصرٍ للرومِ رُمتَ بقــــسرهِ   إرواء بيض الهند من تامـورهِ
أُوتيتَ فتحَ حصونهِ وملكتَ عُقـ   ـرَ بلادهِ وسَبيتَ أهلَ قصـورهِ[2]

ومما يرتبط برثاء البطل، ذكر مناقبه المحمودة، والتي تمثل المُثل العليا في المجتمع الإسلامي، كالكرم والشجاعة والتقوى، وهو ما يملأ القلوب بحب البطل، واشتياقهم إليه، ومن ذلك قول العماد في رثاء صلاح الدين:

أينَ الذي مُذ لم يزل مخشيَّـــةً   مرجوَّةً رهباتهُ وهباتــــــــهُ
أينَ الذي كانتْ له طاعاتُـــنا   مبذولةً ولربِّهِ طاعاتــــــــهُ
باللهِ أينَ الناصرُ الملكُ الــذي   للهِ خالصةً صفتْ نيَّاتـــــــهُ
أينَ الذي ما زالَ سلطاناً لنــــا   يُرجى نداهُ وتُتّقى سطواتـــهُ
أينَ الذي شرُفَ الزَّمانُ بفضلـهِ   وسَمتْ على الفُضلاء تشريفاتهُ[3]

وفي رثائه لأسد الدين شيركوه، يصف العماد تقواه والتزامه بالشريعة الإسلامية، وكأن أيامه كانت مقسومة بين عبادة الله والتهجد له، وتلاوة كتابه العزيز، فيقول:

أيامُ عمرِكَ لم تزلْ مقسومةً   للهِ بيــن تعبّدٍ وتعـــــــرُّفِ
متهجّداً لعبادةٍ أو تالـــــياً   من آيةٍ أو ناظراً في مصحفِ
وقفوتَ آثارَ الشَّريعةِ كلّهـا   وقدْ اهتدى من للشَّريعةِ يقتفي[4]

---

(1) العماد الأصفهاني، الديوان، ص 213.
(2) العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، ص214 ـ 215.
(3) العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، ص87.
(4) العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، ص299.

ويشكّل موت البطل أمراً عظيماً لدى أبناء الأمة الإسلامية، هذا ما دفع العماد إلى مقارنته بغيره من الملوك، وتمييزه عنهم بما قدّمه وأسداه للإسلام من خدمات جليلة، فيقول في رثاء صلاح الدين:

هلْ للملوكِ مضاؤهُ في موقــفٍ   شدَّت على أعدائــهِ شدّاتـــــهُ
وإذا الملوكُ سعوا وقصّرَ سعيُهم   رجحتْ وقد نجحتْ به مسعاتهُ[1]

ويشكّل الدعاء للميّت نوعاً من الرغبة في الرحمة والمغفرة، مما يجعل الميّت حيّاً خالداً لا يموت، في دار أعدها الله للخلود، ومن ذلك قول العماد في رثاء صلاح الدين، حيث دعا له بالسُقيا وبرحمة الله ومغفرته، يقول:

فعلى صلاحِ الدِّين يوسفَ دائماً   رضوانُ ربِّ العرشِ بلْ صلواتهُ
لضريحهِ سُقيا السَّحاب فإنْ يغبْ   تُحضَرْ لرحمةِ ربّـــهِ سَقياتـــــهُ[2]

ويدعو العماد لنور الدين بحسن المقام في الآخرة، وأن تكون الجنة دار النعيم التي يستقر فيها، فيقول:

حيّاكَ معتَّلُ الصَّــبا بنسيمــــــهِ   وسقاكَ مُنهلُّ الحيا بدُرورهِ
ولبستَ رضوانَ المهيمنِ ساحبــاً   أذيال سندسٍ خزّهِ وحريـرهِ
وسكنتَ عِلِّيِّينَ في فردوســــــهِ   حلْفَ المسرّةِ ظافراً بأجورهِ[3]

ولكي يجلب الراحة والسكينة إلى قلوب الرعية، كان العماد في رثائه للبطل، يحاول أن يبيّن أن البطل هو من اختار الرحيل عن هذه الدنيا الزائلة، لذلك اختار ما هو خالدٌ، وفي ذلك يصور صلاح الدين وكأنه ضجر من هذه الدنيا، وفارق مُلكاً زائلاً، وطلب الخلود، فيقول:

أضجرتَ منّا أم أنفتَ فلم تكـــــنْ   ممَّن تصابُ لشدَّةٍ ضجراتهُ
أرضيتَ تحتَ الأرضِ يا من لم يزلْ   فوقَ السَّماءِ عليّةً درجاتـــهُ
فارقتَ مُلكاً غيرَ باقٍ متعبـــــــــاً   ووصلتَ مُلكاً باقياً راحاتــهُ[4]

---

[1] العماد الأصفهاني، الديوان، ص91 .

[2] العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، ص89، وانظر: ص 340 .

[3] العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، ص215 ـ 216 .

[4] العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، ص91 .

ومما يندرج أيضاً تحت باب رثاء البطل، التعزية والمواساة والتعبير عن مشاعر الحزن والأسى لفقدان البطل، ويشمل ذلك الوصية لمن بعده، وعقد الآمال عليهم، وحثهم على سلوك الدرب نفسها التي سلكها البطل، ومن ذلك قوله في رثاء نور الدين وتوصية من بعده:

وجاءَ الفرعُ بالمقصـــــــو دِ لمَّـا ذهبَ الأصـــلُ
وجودُ البعضِ كالكـــــلِّ إذا مـا فُقـدِ الكــــلُّ
وليثُ الغابِ إنْ غـــابَ حَمى موضعــه الشِّبـلُ[1]

ويعزّي العماد أبناء صلاح الدين ويوصيهم بأن يقتدوا بسُّنة أبيهم، وينهجوا نهجه، ويصف أبناءه بالهضاب التي تغني عن موت البطل الذي كان كالجبل، فيقول:

أبَني صلاح الدِّين إنَّ أباكـمُ ما زالَ يأبى ما الكرام أُباتُــهُ
لا تقتدوا إلَّا بسُّنةِ فضلـــــهِ لتطيبَ في مهدِ النَّعيمِ سناتُهُ
ورِدوا مواردَ عدلهِ وسماحـــهِ لتردَّ عن نهجِ الشَّمات شماتُهُ
ولئنْ هوى جبلٌ لقدْ بُنيتْ لنا ببنيهِ من هضباتهِ ذرواتـــهُ[2]

وكانت رسائل التعزية التي سطّرها العماد، تسجل مآثر البطل وفضائله، وتصور جلال الرزء بفقده، وتعزي بالفقيد وتحث من بعده على مواصلة الجهاد، ومن ذلك كتاب أنشأه العماد عن الملك الصالح إسماعيل بن نور الين زنكي، إلى صلاح الدين في تعزيته بنور الدين، يقول:" أطال الله بقاء سيدنا الملك الناصر، وعظّم أجرنا وأجره في والدنا الملك العادل، نَدَبَ الشام، بل الإسلام، حافظ ثغوره، وملاحظ أموره....، فما فُقد رحمه الله تعالى، إلاّ صورة والمعنى باق، والله تعالى حافظ لبيته واق، وهل غيره دام سُمُوُّه من مؤازر، وهل سوى السّيد الأجل الناصر من ناصر، وقد عرّفناه المقترح، ليروض برأيه من الأمر ما جمح، والأهم شغل الكفّار، عن هذه الديّار، بما كان عازماً عليه من قصدهم والنكاية فيهم على البدِار"[3].

---

(1) العماد الأصفهاني، الديوان، ص338 .

(2) العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، ص92 .

(3) أبو شامة المقدسي، الروضتين، 2/ 318 ـ 319، وانظر: سنا البرق الشامي، ص 32 .

وفي كتاب أنشأه العماد عن الملك الأفضل ابن صلاح الدين، بعث به إلى سيف الإسلام أخي صلاح الدين، يصور فيه مدى الفجيعة التي حلت بالمسلمين، ومدى الذهول الذي أصابهم لفقد الناصر صلاح الدين، وفيه يقول:" صدرت هذه المكاتبة معربة عن النبأ العظيم، والخطب الجسيم، والرزء العميم، والحادث الأليم، والكارث المقعد المقيم....، والغمة التي غامت بها الأيام، وغُمَّ لها الأنام، واعتل منها الإسلام، واختلّ النظام، فقد عدمت المطالع ضياءها، والمشارع صفاءها، والثغور سِدادها، والأمور سَدادها....، فقد فقدت الدنيا بهجتها، وضلّت العلياء محجتها، واهتدى الضلال إلى الهدى، وأقوى نادي الندى، وأقفرت مغاني الغنى....، وذلك بما أجراه الله من قضائه المحتوم، وأظهره من ستر قدره المكتوم، بمصاب مولانا الملك الناصر، روّح الله روحه، وروّض في جنان رضوانه وغُرفات غفرانه ضريحه، فقد عَظُم الخطب وجلّ، وحلّ عرا الجلد حين حلّ، وثلم غرب الصبر وفلّ، وأجرى غرب الدموع، وأزكى كرب الضلوع...." [1].

وفي الكتاب نفسه، يصور العماد زهد الفقيد وتقواه، وبذله ما يملك في سبيل الله، فيقول:" ولقد كان السلطان السعيد قدّس الله روحه، بحقيقتها عارفاً، ولطريقتها عازفاً، ولزخرفها عائفاً، ومن ملكها آنفاً، وعن مالها متعففاً، فاشتغل عن الدنيا بالدين، وخصّه الله بتأييده في علم اليقين....، ووقف حياته على إحياء معالم الهدى، والإعلان بشعار التقى، وإعلاء منار الجهاد، وإشاعة سنن العدل والإحسان في البلاد والعباد، وإفاضة سجال الفضل والأفضال، حتى كفل جوده بفيض الأرزاق ووفّى بنُجح الآمال، وأخلص لله عمله، ولا ملك ملكاً، ولا تموَّل مالاً، إلا في سبيل الله أنفقه وبذله"[2].

ويصور العماد أيضاً منجزات الفقيد وأعماله، التي عادت بالنفع على الأمة الإسلامية، فيقول:" فلا جرم أذل الله له الملوك والأعزة، ووهب لأعطاف الدولة للتباهي بملكه الهزة، وملّكه الأقاليم والأمصار، وأجرى بإقداره الأقدار، فأزال عن مشارع الشريعة الأكدار، وعطّل البدعة بمصر واليمن والشام، وقمع أعداء الإسلام، ومدّ الله في عمره حتى بلغ المراد، وفتح البلاد، ووفّى في حق الجهاد، الجد والاجتهاد، وقدر

---

(1) العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص 644 ـ 645.

(2) العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، ص 446.

على ما أعجز عنه الملوك، ونهج في نصرة الدين نهجاً أعوز من قبله فيه السلوك، وأخرج الفرنج عن الساحل وأبادها، وملك عليها ديارها وبلادها، وأوهى على الكفرة معاقد معاقلها، وطال بحقه على باطلها، وأقصى عن المسجد الأقصى مُدنِّسيه، وأزال عنه أيدي غاصبيه، وأصرخ الصخرة المطهرة وطهّرها من الأرجاس، وأبعد عنها أجناس الأنجاس، وقهر الكفر وخذله، ونصر الإيمان وأخذ له، وأحيا للكرم كل سُنة حسنة"[1].

ويصور العماد أيام صلاح الدين، وما عمّ فيها من خير وإحسان على الرعية، وبموته تبدلت أحوال الرعية، واضطربت أمورهم، يقول:" واستمرت محاسن أيامه سَنَةً بعد سنةٍ، وتعدّلت بعدله الجوانح، وتذللت ببأسه الجوامح، ودانت ودنت له الممالك القاصية، وأذعنت إذْ عنت لحكمه الأماني العاصية، وملكت القلوب والقبول مهابته ومحبته، وعمّت الخواص والعوام عارفته وعاطفته....، وما كان أبهج الأيام بأَيَامِنِه، والأعصار بمزاينه، والأمصار بمحاسنه، والإسلام بسلطانه، والآفاق بسنى إحسانه، وما كان أسعدنا بجدوده، وأجدنا بسعوده، وأغنانا بعدله وجوده، فقد فُقد الصباح فلا سنى، ودُفن السماح فلا جدى ولا جنى، وغاض البحر فلا غنى، وهوى الطود فلا ثبات، وذوى الروض فلا نبات، ووهى الركن فلا سند، وانتهى اليُمن فلا جدد، وغلب الكمد فلا جلد، وعزّ العزاء فلا عزّ ولا قوة ولا عضد"[2].

وفي كتاب أُرسل إلى الديوان العزيز في بغداد، يصور العماد أثر موت صلاح الدين على الدولة الإسلامية، وحال الذين حاولوا الخروج على الدولة، ويهدف العماد إلى إظهار هيبة البطل، فعندما كان حاكماً وقائداً للأمة الإسلامية، لم يجرؤ أهل الخلاف والشقاق على أن يأتوا بحركة، وهذا يبيِّن حجم الثغرة التي خلفها بموته، ولكن العماد يدعو ويبتهل أن تستمر المسيرة التي أرسى قواعدها البطل، وفي ذلك يقول:" وهذا الحادث أرجف المرجفون بحديثه وأثاروا كوامن الثار، وحركوا سواكن الأوتار

---

(1) العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص 446 ـ 447 .

(2) العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، ص647 .

بتأثيره وتأريثه، وأخرج أهل النفاق رؤوسهم من كل نفق، وعاد ثبات ثباتهم إلى نفارٍ وقلق...."[1].

[1] العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص 652 .

الفصل الرابع
صورة الصليبيين

1.4 الخطر الصليبي

تمثل الوجود الصليبي في البلاد الإسلامية بإمارات وممالك[1] شكلت خطراً حقيقياً على الإسلام والمسلمين، فكان لها الأثر الأكبر في إعاقة الوحدة الإسلامية، ولمّ الشمل بين الأقطار الإسلامية، إضافة إلى سيطرتها على البحر المتوسط الذي كان يمدها بما تحتاج إليه من مؤن وعتاد، فكانت أوروبا لا تتوانى عن مد يد المساعدة إليها؛ من أجل إتمام السيطرة على البلاد الإسلامية، والتوغل فيها شرقاً وغرباً.

وقد اتخذ الصليبيون هذه الإمارات قواعد للتوسع في البلاد الإسلامية، فكانوا من خلالها يشنون الهجمات المتلاحقة على المدن الإسلامية للسيطرة على خيراتها، والاستيلاء على الطرق التجارية وأخذ الإتاوات والمكوس من القوافل التجارية، فأصبحت هذه الإمارات كالشوكة في حلق الإسلام والمسلمين.

---

(1) تمكن الصليبيون من إنشاء عدة إمارات، وهي:

إمارة الرّها: وهي أول إمارة أقامها الصليبيون على أرض الشام، في سنة 491هـ، وتقع في أقصى الشمال، فيما بين أعالي دجلة والفرات.

إمارة أنطاكية: وتأسست في سنة 492هـ، وتقع في شمال الشام.

إمارة طرابلس: وبدأ تشكيلها منذ سنة 502هـ، وتقع بين البحر المتوسط في الغرب، وسلاسل لبنان الجبلية في الشرق.

مملكة بيت المقدس: وتأسست في سنة 492هـ، حين احتل الصليبيون بيت المقدس، وكانت أعظم الإمارات الصليبية، وتشمل معظم المدن والقرى الممتدة من البحر حتى نهر الأردن، انظر: المطوي، محمد العروسي، 1982م، الحروب الصليبية في المشرق والمغرب، دار الغرب الإسلامي ـ تونس، ط2، ص 56 ـ57.

وظهر في أدب العماد بشكل جلي، هذا الخطر الماثل والمتشكل بوجود هذه الإمارات والممالك، فقد اتخذه العماد دافعاً يستنهض الهمم والعزائم من خلاله، للوقوف في وجهه ودحره إلى الأبد عن الأمة والبلاد.

ويبدو أن الصليبيين كانوا يشكلون خطراً على البلاد الإسلامية جميعها ، وليس على مدينة بذاتها، فكل المُدن مهددة بالخطر، الذي يحيط بها من كل جانب، وهذا ما أظهره العماد، عندما وصف تعاون شاور مع الفرنج، فخطر هذا التعاون لا يعني تهديد مصر، وإنمّا تهديد البلاد الإسلامية كافة، يقول:

هوَ الذي أطمعَ الإفرنجَ في بلد الـ   إسلامِ حتى سعَوا للقصـدِ والطَّلَبِ[1]

فالخطر الصليبي كما يصوره العماد لا يهدد مدينة أو بلداً بذاتها، بل يشمل البلاد الإسلامية جميعها، ولذلك كان العماد في وصفه لحصن الكرك، يبيّن الخطر الذي يتهدد الأمة الإسلامية، ويشكل خطرا على مقدساتها، ومن ذلك حديثه عن صاحب الكرك المعروف بغدره، والذي حاول غزو المقدسات الإسلامية في الحجاز، وهدّد طرق القوافل التجارية، التي كان يمر بها المسلمون، وأخذ منهم الضرائب، وفي ذلك يقول مصوراً خطر هذا الحصن:"وكان إبرنس الكرك أرناط أغدر الفرنجية وأخبثها، وأفحصها عن الرَّدى والرداءة وأبحثها، وأنقضها للمواثيق المحكمة والأيمان المبرمة، وأنكثها وأحنثها، ومعه شِرذمة لها شَرُّ ذِمّة، وهي من شرٍّ أُمة، وهم على طريق الحجاز، ومن نهج الحج على المجاز....، وهو يمكس الجائي والذاهب، حتى لاحت له فرصة في الغدر، فقطع الطريق، وأخاف السبيل، ووقع في قافلة ثقيلة، معها نِعمٌ جليلة، فأخذها بأسرها، وكان معها جماعة من الأجناد، فأوقعهم في الشرك، وحملهم إلى الكرك ...." [2].

وبسقوط حصن الكرك في أيدي المسلمين، دخل الأمان إلى البيت الحرام، فهو حصن يشكل خطراً حقيقياً على المقدسات الإسلامية، وعلى المسلمين جميعاً؛ لأنه واقع في طريق الحج الشامي والمصري،وفي ذلك يقول العماد:" وهو الحصن الذي كان طاغيته يحدث نفسه بقصد الحجاز، وقد نصب أشراك إشراكه منه على طرق

---

[1] العماد الأصفهاني، الديوان، ص 81 .

[2] أبو شامة المقدسي، الروضتين، 3/ 274.

الاجتياز، فأذقناه عام أول كاس الحمام، وملكنا حصنه الذي كان يعتصم به في هذا العام، واضطر الكفر في إسلامه إلى الإسلام، وتمّ بحل هذا البيت الحرام"[1].

ولكي تكتمل صورة الخطر الصليبي الذي يتهدد الأمة الإسلامية، فقد ربط العماد البلاد الإسلامية بعضها ببعض، وجعل حماية أيٍّ بلد إسلامي، هو حماية لكل البلاد الإسلامية، ومن ذلك قوله في مدح أسد الدين شيركوه، ويصف حمايته لمصر بأنها حماية لجميع البلاد الإسلامية، يقول:

وبلادُ الإسلامِ أنقذتَها أنـ ـتَ من الشِّرك أيّما إنقاذِ[2]

وعندما حرر المسلمون بقيادة صلاح الدين الأيوبي بيت المقدس، أظهر العماد الخطر الحقيقي على الإسلام والمسلمين ببقاء بيت المقدس في أيدي الصليبيين، وهو مكان له خصوصيته الدينية عند المسلمين، لذلك فقد صور العماد القدس آمنة مطمئنة بعد تحريرها من الخطر الذي كان يهددها، وفي ذلك يقول:" وعاد الإسلام بإسلام بيت المقدس إلى تقديسه، ورجع بنيانه من التقوى إلى تأسيسه، وزال ناموس ناقوسه، وبطل بنص النصر قياس قِسِّيسه....، وشفى الله بسقيا هذا الفتح ما كان دهم القلوب لأجلها من تبار التباريح"[3].

ويؤكد أيضاً فكرة التطهير لبيت المقدس، بعد أن زال عنه الخطر الصليبي، فيقول:

نزعتَ لباسَ الكفرِ عن قدسِ أرضِها وألبستَها الدِّينَ الذي كشفَ اللَّبسا
وعادتْ ببيـتِ اللهِ أحكــامُ دينـــــهِ فلا بطركــاً أبقيـتَ فيها ولا قسّا[4]

وكانت الحرب التي خاضها الصليبيون تحمل أبعاداً دينية بحتة، تهدف إلى القضاء على الإسلام والمسلمين، وهذا واضح من تغيير الفرنجة لمعالم بيت المقدس حينما كان في أيديهم[5].

---

(1) العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص 266 ـ 267، وانظر: البرق الشامي، 5/ 153 .

(2) العماد الأصفهاني، الديوان، ص 148 .

(3) العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص 198 .

(4) العماد الأصفهاني، الديوان، ص 232 .

(5) انظر: الفتح القسي ص 116، 118، 147.

وقد لعبت تنظيماتهم الدينية دوراً مهماً في الدفاع عن الوجود الصليبي في البلاد الإسلامية، فقد كانت هذه المنظمات الدينية كالإسبتارية والداوية، تشكل خطراً على الإسلام والمسلمين، وقد عُرفت بعدائها الشديد للمسلمين، كما أنهم اتصفوا بالقوة والقسوة، وألحقوا بالمسلمين أذى شديداً[1]، فلا عجب أن يدعو العماد صلاح الدين إلى القضاء عليهم، وتخليص البلاد من خطرهم وكفرهم، فيقول:

فَسِرْ وافتحِ القدسَ واسفكْ بـهِ دماءً متى تُجرها ينظــفِ

وأهـدِ إلـى الأسبتـار البتّـار وهُدّ السُّقوفَ على الأسقفِ

وخلّص من الكفرِ تلكَ البـلادَ يخلِّصكُ اللهُ فـي الموقـفِ[2]

ويصور العماد خطر هذه الطوائف الدينية على المسلمين، فهم في قتالهم شجعان، مقبلون على القتال، متشوقون إليه، وفي وصف الداوية والإسبتارية يقول:" وفي كل قلب من الفئتين من نار حرصه التهاب، إذ الوجوه لقُبل النصال مكشوفة، والقلوب للوجد بالقتال ملهوفة، والأيدي على قوائم السيوف المفتوحة مضمومة، والنفوس لاستبطاء الهمم في الاهتمام مهمومة"[3].

وبسبب كرههم الشديد للمسلمين، وغدرهم وعدم التزامهم بالعهود، فقد أمر صلاح الدين الأيوبي بقتل الأسرى من هاتين الطائفتين، بعد الانتصار عليهم في معركة حطين، ووصف العماد هذه الخطوة بأنها تطهير لبلاد المسلمين من خطرهم ومن نجاستهم، وفي ذلك يقول:" طلب الأسارى من الداوية والإسبتارية، وقال: أنا أطهر الأرض من الجنسين النجسين، وجعل لكل من يحضر منهما أسيراً خمسين، فأحضر العسكر في الحال مئين، وأمر بضرب أعناقهم، واختار قتلهم على استرقاقهم"[4].

---

(1) انظر عن دورهم الحربي في الصراع مع المسلمين: عوض، محمد مؤنس، 2004م، التنظيمات الدينية الحربية في مملكة بيت المقدس اللاتينية، دار الشروق للنشر والتوزيع ـ عمّان، ط1، ص 111 ـ 116.

(2) العماد الأصفهاني، الديوان، ص 304 .

(3) العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص 125 .

(4) العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، ص 86 .

وكان الصليبيون قد بنوا العديد من القلاع والحصون، وزادوا في منعتها وقوتها، فقد كانت تشكل بدورها خطراً حقيقياً على البلاد الإسلامية، ويبدو أن العماد كان يستغل المعارك التي خاضها المسلمون لفتح هذه المعاقل وتحريرها، من أجل تصوير الخطر المحدق الذي يتهدد الأمة الإسلامية، فصّور قوتها ومنعتها، وبين خطرها الذي زال بفتحها وردها إلى ربقة الإسلام.

وكانت هذه القلاع والحصون تؤدي مجموعة مختلفة من الوظائف، كاستخدامها في الهجوم والدفاع، وترسيخ السيطرة على مناطق ذات أهمية استراتيجية، ومراكز للاستعمار والتطوير الاقتصادي، كما استُخدمت مقرات للإقامة ومراكز إدارية وثكنات للجند ومخافر للشرطة[1].

وقد اهتم الصليبيون بالتحصينات الدفاعية لهذه الحصون والقلاع، وبالغوا في منعتها وقوتها، ووصف العماد هذه التحصينات القوية، وما نال المسلمين منها من أذىً شديد، ومن ذلك قوله في حصن صهيون[2]، يصف مناعته، وما فيه من أعداء هم كالذئاب وكالأسود في تهديدهم للمسلمين، وفي ذلك يقول:" وأخذنا على سمت صهيون، وهو حصن يفوق الحصون، ويفوت العيون، وطلبناه كما يطلب الدائن المديون، ونحن للكفر مميتون، وللإسلام مُحيون، وكان الطريق إليه في أودية وشعاب، ومنافذ صعاب، ومضايق غير رحاب....، وهي قلعة على ذروة جبل في مجتمع واديين، بها محيطين من جانبين، والجانب الجبلي قد قُطع بخندق عميق، وسور وثيق، والقلعة ذات أسوار خمسة كأنها خمس هضاب، ممتلئة بذئاب سغاب، وأُسد غضاب....، وهي ممتنعة علينا بالركن الأمنع، والسمو الأمتع...." [3].

---

[1] سميل، ر. سي، 1985م، فن الحرب عند الصليبيين، ترجمة محمد وليد الجلاد، مركز الدراسات العسكرية ــ دمشق، ط1، ص 106 ــ 108 .

[2] حصن صهيون: حصن حصين من أعمال سواحل بحر الشام، من أعمال حمص، لكنه ليس بمشرف على البحر، وفيه قلعة حصينة مكينة في طرف جبل، ياقوت الحموي، معجم البلدان،3/ 436 ــ 437).

[3] العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص 241 .

وفي وصفه لحصن بغراس[1]، يصف العماد قوة هذا الحصن ومنعته، والمكان المهم الذي يحتله، وفيه طائفة الداوية، يتحصنون في قلعته ويهددون المسلمين، وفي ذلك يقول:" وتوجهنا بكرة يوم السبت إلى بغراس، وقد ضايقنا الأعداء وضيَّقنا منهم وعليهم النفوس والأنفاس، وهي قلعة من أنطاكية قريبة، وإنها في الشدائد لدعائها مجيبة، ورأيناها راسخة على رأس راس، شامخة على عاص عاس، أرضها في السماء، وجوازها على الجوزاء، متوغلة في الشعاب، متوقلة على الهضاب، منسحبة في السحاب....، ولا مطمع نحوها لطالع، ولا مطلع فيها لطامع، ولا مطمح لِلامح، ولا ملمح لطامح، وهي للداوية وجار ضباعها، وغاب سباعها، ودار دوائرها، وغار مغاورها، وغيل غوائلها، ومنزل نوازلها....، وكوّارة زنابيرها، ومغارة خنازيرها، ومرقب صقورها، ومرقد نسورها، ومكنس وحوشها، ومعرّس جيوشها"[2].

وعندما يتحقق النصر للمسلمين بفتح القلاع والحصون، كان العماد يدبّج رسائل البشرى بهذه الانتصارات، وزوال الخطر عن المسلمين، فكان يصور الخطر الحقيقي لهذه المعاقل الصليبية على بلاد المسلمين، ومن ذلك تصويره لفتح حصن بيت الأحزان في سنة 575هـ، هذا الحصن الذي كان يتخذه الداوية مقرا لإلحاق الأذى والبلاء بالمسلمين، وقد بذلوا في تحصينه كلّ ما ملكوه، فكان كالشوكة في حلوق المسلمين؛ لما له من خطر كبير عليهم، يقول العماد:" وقد أخرج الداوية عليه جميع ما ملكوه، وهم بقوتهم مستظهرون، وظنّوا أنهم به يحاصرون البلاد ويحصّلون المراد، ولو بقي الحصن لم يحصن البقاء، وَلَدَنَا من البلاد البلاء، ولأعضل بقرب الداوية الداء وأعوز الدواء، لكنّ الله نظر للإسلام ونصره، وقمع الكفر وقهره، ويسّر لنا ما ظنّناه عسيراً، ولم يزل للمؤمنين نصيراً"[3].

وفي معرض حديثه عن الخطر الماثل بهذه القلاع والحصون، صوّر العماد تحرك صلاح الدين الأيوبي على رأس جيشه، لفتح مدينة اللاذقية، يدفعه عزم على

---

[1] بغراس: مدينة على سفح جبل، بينها وبين أنطاكية أربعة فراسخ، وتطل على نواحي طرسوس، ياقوت الحموي، معجم البلدان،1/467.

[2] العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص 257 .

[3] العماد الأصفهاني، البرق الشامي، 3/180 .

إزالة خطرها، وقطع شأفة الأعداء، كيف لا، وهو سائر لتقويض أركان هذا الخطر الذي يتهدد المسلمين، يقول في ذلك:" ورحل ثالث عشرى الشهر يوم الأربعاء، منشور اللواء، منصور الأولياء، مشكور المضاء، عالي القدر قادر العلاء، ناجح الآراب راجح الآراء، وسار برعب إلى العدو يقدِّمه، وعزم على الغزو يصمِّمه، وأمر بإمرار الأحكام يحكمه، وجدّ على تدبير الدين يقفه، وحدّ في تدمير الماردين يرهفه، وسعادة تؤيده، وتأييد من الله يسعده، وسطوة على الكفار يرسلها، وجذوة في أهل النار يشعلها، وجيش للوثبات ينشطه، وجأشٍ للثبات يربطه، وهيبة تروع الخواطر، وهيئة تروق النواظر"[1].

ولا يرتبط الخطر الذي يهدد المسلمين بالوجود الصليبي في البلاد الإسلامية فقط، بل يتمثل أيضاً في كثرة الجيوش والإمدادات القادمة من أوروبا، هذه الإمدادات التي تهدف لتحقيق المزيد من المكاسب والانتصارات في بلادنا الإسلامية، والسيطرة على أكبر مساحة منها، وكان الغرب لا يتوانى عن إرسال المزيد من المساعدات والإمدادات لنصرة بني جلدتهم، والوقوف في وجه المسلمين.

وكان العماد في أدبه، يذكّر بخطورة الموقف المتمثل بإرسال أوروبا للحملات العسكرية، وتعزيزها بالإمدادات والمساعدات، ففي كتب الاستنفار والاستنجاد التي سطرها العماد، كان يوضح الخطر الصليبي الذي يتهدد الأمة الإسلامية، فكان على الدوام يصور الجيوش القادمة، ويصف قادتها وحرصهم على تحقيق المكاسب، ويصور كذلك حجم النجدات والإمدادات التي يقذف بها البحر، وما لها من أثر في شحذ همم الأعداء، وتقويتهم، في حربهم التي يخوضونها مع المسلمين.

وقد استغل العماد ذلك لتقوية عزائم المسلمين، وتوحيد الصف، وبذل الغالي والرخيص، للوقوف في وجه الخطر الداهم، الذي يهدد الإسلام والمسلمين، ومن ذلك وصفه للحملات الصليبية التي كانت ترسلها أوروبا إلى المشرق الإسلامي، وقد وصف العماد وصول ملك الألمان في عدد هائل من الجنود، وقصده العبور إلى البلاد الإسلام، فيصور الخطر القادم بقوله:" ونما الخبر بوصول ملك الألمان إلى قسطنطينية في عدد دَهمٍ دثر، ونظم من خيله ورجله ونثر، وهو على قصد العبور إلى بلاد الإسلام، وقطع بلد الروم والأرمن إلى الشام، وأنه في ثلاثمائة ألف مقاتل، من كل

[1] العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص 235 .

سالب باسل، وطالب باطل، وجهم جهنمي....، وكل ذئب عاسل، ذابٍ بعاسل، وأزرق لأبيض مشتمل، وأصهب لأسمر معتقل، وكل جحيمي جاحم، وجمري فاحم، وحربي بحري وبار بري، وقاطع في طريق الوصول، وراحل بقصد النزول..." [1].

وفي كتاب بعث به العماد إلى الديوان العزيز في بغداد، يصور فيه الخطر القادم على الأمة الإسلامية، ويصف فيه نزول الصليبيين على عكا، ويتحدث فيه عن الدافع الديني الذي يحركهم لغزو البلاد الإسلامية، ويحث فيه على المسارعة للوقوف في وجه هذا الخطر المحدق بأمتنا الإسلامية، فيقول:" قد تقدمت المطالعة بمنازلة العدو المنازل بالنوازل، ومجاولة أهل الغواية بالغوائل، ومقاتلة طواغيت الكفر الواصلة في البحر بعدد أمواجه إلى الساحل، وقد نزلوا على عكا المحروسة، براياتهم المنكوسة، وآرائهم المعكوسة....، فإنه لم يبق لهم مدينة، ولا بلدة ولا جزيرة، ولا خطة صغيرة ولا كبيرة، إلا جهّزت مراكبها، وأنهضت كتائبها، وتحرك ساكنها، وبرز كامنها، ونفضت خزائنها، وانفضت معادنها، وحملت ذخائرها، وبذلت أخايرها، وثار ثائرها، وسار سائرها، وطار طائرها، ونثلت كنائن كنائسها، واستخرجت دفائن نفائسها"[2].

ويتحدث العماد في الكتاب نفسه عن دافعهم الديني الذي خرجوا من أجله، وهو نصرة إخوانهم الصليبيين الذين تعرضوا للخطر من قبل الإسلام والمسلمين، وفي ذلك يقول:"وخرج بصلبانها أساقفها وبطاركها، وغصت بالأفواج فجاجها ومسالكها، وتصلبت للصليب السليب، وتغضبت للمصاب المصيب، ونادوا في نواديهم بأن البلاء دهم بلادهم، وأن إخوانهم بالقدس أبارهم الإسلام وأبادهم، وأنه من خرج من بيته مهاجراً، وبحرب الإسلام مجاهراً، ولمتعبده مسترداً، ولِجِدِّه في النخوة لدينه مستجداً، فقد وهبت له ذنوبه، وذهبت عنه عيوبه، ومن عجز عن السفر، سفَّر بعدته وثروته من قدر، وبذل البِدر لمن بَدر، فجاءوا لابسين للحديد بعد أن كانوا لابسين للحِداد، وتواصلت منهم الأمداد بالإمداد، وتوالت أنجاد الإنجاد، وهَم على النقص يزيدون، وعلى الأبد يبيدون، وبالمُهج يجودون، وعن اللجاج في خوض اللجج لا يعودون...." [3].

---

[1] العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص 330، وانظر: ص389، 413، 474، 477، 484 .

[2] العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، ص337 ــ 338.

[3] العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، ص 338.

ويصور العماد كثرة الحشود الصليبية، التي أتت لاسترداد بيت المقدس، واستعادته من المسلمين، ويتخذ العماد ذلك وسيلة لشحذ الهمم والعزائم في مواجهة هذه الحشود الجرارة، قبل فوات الأوان، فيقول:" هذا والكفر قد أناخ بكلكله، وحفل بجحفله، وبرز إلى الإسلام بكليته، وعراه ببليته....، وهؤلاء الملاعين قد أغذّوا لقصده، وأعدوا لورود ورده، وقد فُرض في هذا الأوان رفض التواني، واستدعاء ذوي الحمية من الأقاصي والأداني، وإن لم يتساعدوا في الربيع القابل، على إنهاض الجحافل، صَعُبَ الأمر واشتد، واحتدم الخطب واحتد"[1].

وفي كتب الاستنفار والاستنجاد التي سطرها العماد، يتضح مدى خطورة هذه الحشود والجموع، التي جاءت غازية لبلاد المسلمين، وما عليهم إلا عدم التواني والنهوض لمواجهته، فيقول:" قد عُرف أن العدو قد احتشد بجميع ملوكه، وغصّت مسالكه وطرقه بطوارق سلوكه، وهو حديد الشوكة، شديد الشكة، قد لجَّ في حصر الثغر ونصب آلاته، وركب عليه منجنيقاته، ووالى الضروب من الضرب، وأخذ منه مواضع في النقب، وقد أشفى على خطر عظيم، وخطب جسيم....، وهذا يوم الحاجة وأوان الضرورة، والنهوض بعسكره إلى نصرة عساكرنا المنصورة، فلا يجنح إلى عذر فللأعذار أوقات، ولا يلتفت إلى غير هذا المهم الذي ليس للمسلمين إلى سواه التفات"[2].

ويصف العماد سرعة إنجاد أوروبا للغزاة، وكثرة الإمدادات والنجدات التي كانت تأتيهم من البحر، ومن ذلك وصفه لكثرة الإمدادات والمساعدات التي بعثت بها أوروبا، والتي كان من شأنها المساهمة في سقوط مدينة عكا في أيدي الصليبيين سنة 587هـ، ويصف العماد كثرة هذه الإمدادات والتجهيزات الحربية بقوله:" كل عام تحمل مدود البحر من أمدادها بحاراً، ويرد الماء بأهل النار مستصبحين من ماء الحديد الجامد ناراً، وتتصل مراكبهم كأنها الأعلام السود والأمواج ناشرة بيض أعلامها، مالئة جبالها بآكامها، مازجة إصباحها بإظلامها، وتتنافس ملوكهم الباغية، وطواغيتهم الطاغية، في

---

(1) العماد الأصفهاني، الفتح القسي ، ص 578.

(2) العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، ص 500، وانظر: ص 400، 497، 498، 503.

الورود بنفوسها ونفائسها، والوصول بما نفضت فيه كنائن كنائسها، مستخرجة ضمائر خزائنها....، ويحدقون بها من برِّها وبحرها، ويجتمعون بين سحرها ونحرها"[1].

وفي موقف آخر يصور العماد أثر هذه الإمدادات على الأمة الإسلامية، فهي كالبلاء والمرض، يحتاج إلى تعاضد المسلمين فيما بينهم، ومن ذلك قوله:" وما دام البحر يمدهم والبر لا يصدهم، فبلاء البلاد بهم دائم، ومرض القلوب بأدوائهم وأسوائهم ملازم....، فانظروا إلى الفرنج أي مورد وردوا، وأي حشد حشدوا، وأية ضالة نشدوا، وأية نجدة أنجدوا، وأية أموال غرموها وأنفقوها، وجِدات جمعوها وتوزعوها فيما بينهم وفرقوها، ولم يبق ملك في بلادهم وجزائرهم، ولا عظيم ولا كبير من عظمائهم وأكابرهم، إلاّ جارى جاره في مضمار الإنجاد، وبارى نظيره في الجد والاجتهاد، واستقلوا في صون ملتهم بذل المهج والأرواح، وأمدوا أجناسهم الأنجاس بأنواع السلاح مع أكفاء الكفاح، وما فعلوا ما فعلوا، ولا بذلوا ما بذلوا، إلاّ لمجرد الحميّة لمتعبدهم والنخوة لمعتقدهم"[2].

2.4 الجيش الصليبي

كان الجيش الصليبي يمثل الوسيلة التي اتخذها الصليبيون لتحقيق أهدافهم في الاستيلاء على البلاد الإسلامية، كما أنه كان يغطّي عملية الانتشار والسيطرة على البلاد المحتلة، ونتيجة للصراع الطويل بين المسلمين وأعدائهم، فقد أظهر الأدب العربي صورة الجيش الصليبي، وتحدث عن تجهيزاته العسكرية، وعناصره، وتعبئته، وأسلحته ومعداته، وتحصيناته وخططه الحربية، كما تناول الأدب المعارك الحربية التي خاضها ووصف جنوده وقادته.

وقد رسم العماد في أدبه صورة لهذا الجيش، وصوّره من جوانب مختلفة، واتخذ ذلك وسيلة للاستثارة والتحريض للتصدي لهذا الجيش الغازي.

---

[1] العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص514 ــ 515، وانظر عن كثرة الإمدادات الصليبية: ص401، 521.

[2] العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، ص 316 ــ 317.

وكان الصليبيون في حروبهم مع المسلمين يطلبون النجدات والمساعدات من أوروبا، لذا فقد اشتركت معظم الدول الأوروبية في هذه الحروب، وتعددت الأجناس المشتركة في جيوشهم، وقد صوّر العماد معظم الأجناس والعناصر المشاركة في تكوين الجيش الصليبي، وكانت الفرق الدينية العسكرية كالإسبتارية والداوية، هي أشهر هذه الفرق الحربية، بل هي رأس الحربة المسمومة في نحر الإسلام.

وبسبب استمرار الحروب الصليبية وطول أمدها بين الطرفين، فقد كثرت الفئات والفرق المحاربة، وكثُر المشتركون فيها، لذا فقد تنوعت الأجناس والعناصر في الجيش الصليبي، ويذكر العماد بعضاً من هذه الفئات المشاركة في القتال ضد المسلمين، ومنها البيزانية والجنوية[1] والألمانية والفرنسيسية، ومن ذلك قوله في وصف معركة بحرية مع الفرنج:" فانشقت مرائر الفرنج، وأزاحت سفنها عن النهج، وقرنصت بزاة البيزانية، وتقلصت جناة الجنوية، وكرثت أدواء الداوية، وكثرت أسواء الإسبتارية، وزادت آلام الألمانية، وعادت أسقام الإفرنسيسية[2]".

ولم تكن هذه الفئات العسكرية هي وحدها من يقاتل في صفوف الجيش الصليبي، بل كانت هنالك طوائف أخرى تساعد الجيش في مهماته الحربية والقتال معه، كالعجائز [3] والنساء وحتى الأطفال[4]، ومن ذلك في وصفه للمرأة المقاتلة:" وفي الفرنج نساء فوارس، لهن دروع وقوانس، وكنَّ في زيِّ الرجال، ويبرزن في حومة القتال، ويعملن عمل أرباب الحجا وهنَّ ربات الحجال، وكل هذا يعتقدنه عبادة، ويخلن أنَّهن يعقدن به سعادة"[5].

---

(1) البيزانية : نسبة إلى مدينة بيزا الإيطالية، والجنوية نسبة إلى مدينة جنوة الإيطالية، وهي مدن اشتهرت بنشاطها التجاري، ونقل الحجاج والمحاربين، وقد اشتركت في بعض الحروب، انظر: الروضتين، 2/ 364.

(2) العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص161، وذكر العماد عدداً من الفئات الأخرى المقاتلة التي اشتركت في الحروب الصليبية، انظر: الفتح القسي، ص 125، 164، 403.

(3) انظر عن دور العجائز في التحريض: الفتح القسي، ص349.

(4) انظر عن مشاركة الأطفال في الحروب: الفتح القسي، ص306.

(5) العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص349، وانظر: ص406، 504.

ويظهر من ذلك أن الفرنجة في صراعهم مع المسلمين، قد حشدوا كل طاقاتهم الحربية، واشترك في صفوف جيشهم العديد من الطوائف والمنظمات والفئات الحربية، وتنوعت أجناس هذا الجيش وتعددت، وسخَّروا كلَّ طاقاتهم لاحتلال البلاد الإسلامية والسيطرة عليها.

أما عدد هذا الجيش، فكان العماد يميل إلى تصويره بالضخامة والكثافة العددية، وكان الفرنج في معاركهم يحشدون الجيوش الضخمة الجرارة، ولا يدخلون المعارك إلاّ بأعدادٍ كبيرة طلباً للنصر، ويصور العماد ضخامة الجيش الصليبي بقوله:

كمْ جحفلٍ بالعراءِ ذي لجــبٍ ... بالصَّفِّ منه يضيفُ صفصَفُها

كالبحرِ طامي العُبابِ لاعبـةٌ ... بموجــهِ للرِّيــاحِ أعْصَفُـــــها[1]

ويبدو أن العماد في تصويره لضخامة الجيش الصليبي ووصف كثرته العددية، كان يهدف إلى إظهار الخطر الحقيقي من جهة، وإلى تعظيم دور المسلمين في محاربته والانتصار عليه من جهة أخرى، لذا فقد صور هذا الجيش في ضخامته، وكأنهم عدد الحصى، وخرجوا عن العد والإحصاء، وذكر أنهم زادوا على خمسين ألف[2]، في استعدادهم لمعركة طبرية.

ومن تصويره لضخامة الجيش الصليبي، قوله في وصف جيشهم الذي كان متوجهاً إلى طبرية، ويشبهه في ضخامته وكثرته بالجبال والبحار، فيقول:" وقد ماجت خضارمهم، وهاجت ضراغمهم، وطارت قشاعمهم، وثارت غماغمهم، وسدَّت الآفاق غمائمهم، وشاقت ضاربيها جماجمهم، وهم كالجبال السائرة، وكالبحار الزاخرة، أمواجها ملتطمة، وأفواجها مزدحمة، وفجاجها محتدمة...." [3].

أما عن التعبئة الحربية لهذا الجيش، فقد وصفه العماد في حالة الثبات والاستعداد، وفي حالة الحركة والهجوم، وكان الجيش الصليبي في تعبئته الحربية

---

(1) العماد الأصفهاني، الديوان، ص309.

(2) العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص 74.

(3) العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، ص77، وانظر: ص 74، 164، 302.

مقسماً إلى ميمنة وميسرة وقلب، وعُرف عنهم التزامهم الدقيق أثناء المسير، فلا يمكن استدراجهم من خلال الاستفزازات، وكانوا في الغالب يتحكمون بمقادير المعركة[1].

وقد وصف العماد استعداد الجيش الصليبي وتعبئته الحربية، ومن ذلك وصفه للجيش الذي استعد لمعركة حطين، فوصفهم بالاستعداد والاحتشاد، وتنظيم الصفوف، فيقول:" والفرنج قد صفوّا راياتهم بصفّورية[2]، ولووا الألوية، ومدوا على مدود الضوامر الزواخر قناطر القنطاريات، وأوقدوا في ظلام القتام الثائر سرج السريجيات، وصوبوا إلى صوب قرا الأقران نياب اليزنيات، وأحاطوا حول مراكزهم بدوائرهم....، وجمعوا الأوشاب والأوباش، ورتبوا الجيش وثبتوا الجاش، وحشدوا الفارس والراجل، والرامح والنابل" [3].

وعندما يتحرك هذا الجيش، فإنه يندفع بعزم وقوة، لا يتردد في بذل ما في وسعه من أجل تحقيق النصر، ومن ذلك وصفه لتحرك هذا الجيش وخروجه للقتال، يقول:" وخرجوا يوماً قبل العصر، في عدة كالليل خارجة عن الحصر، قد التأموا واستلأموا، وانضموا وانتظموا وتقدموا، وأقدموا للطوارق حاملين..." [4].

وفي موضع آخر، يصور العماد زحف الجيش الصليبي، وهو على أتمّ الاستعداد، وبكامل جهوزيته الحربية، قد استصحب معه كلَّ ما يلزم للقتال، فيقول:" زحف العدو إلى البلد، بالجد والجلد، والعُدد والعَدد، والمدى والمَدد، والجمع المحتشد، والجمر المتقد....، والحديد والعديد، والقريب والبعيد، والأتباع والعبيد، والأوباش والأوشاب، والكلاب والذئاب....، ودبوّا وذبوّا، وشبّوا وسبوا، وصابوا وصبوا، ونابوا ونبوا، وعَبوا وعُبوا، وجابوا وجبوا، وزحموا ورجموا، وأقدموا وتقدموا"[5].

---

(1) ر. س. سميل، فن الحرب، ص 288 ـ 289.

(2) صفورية: بلدة من نواحي الأردن بالشام، وهي قرب طبرية، ياقوت الحموي، معجم البلدان، 414/3.

(3) العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص 73 ـ 74.

(4) العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، ص164.

(5) العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، ص478.

وفي أثناء مسيرهم، كانوا يلتزمون بتشكيلاتهم العسكرية، فلا يتجاوبون مع الاستفزازات، كنوع من الخطط الحربية المتبعة لديهم، ويصفهم بقوله:" فإنهم إذا نزلوا صعب نزالهم، وأتعب قتالهم، وإذا نبتوا تعذر حصدهم، وإذا ثبتوا تعذر قصدهم، وإذا لصقوا ببطن الأرض صاروا كالقراد، وإذا حلّقوا في جوّ الدوِّ طاروا كالجراد، فعند الانتشار يمكن التقاطهم، وعند الانحصار يمكن احتياطهم"[1].

ويحافظ الجيش الصليبي على وحدة تماسكه وتنظيمه في الأحوال كافة، ففي حالة الهزيمة، كان الجنود يحافظون على وحدتهم وترتيبهم، وفي وصفهم يقول:" وأدبروا مُوَّلين، وأرخصوا من مهجهم ما كانوا له مغلين، وعسكرنا يتبعهم، ويعلق بهم ويقلعهم، وهم مجتمعون في مسيرهم، محتمون في تقديمهم وتأخيرهم، يتحركون في سكون، ويتظاهرون في كمون"[2].

ويصور العماد مدى استعدادهم للمعركة، فكانوا يلبسون الزرد للحماية، فيصبح الفارس منهم كأنه قطعة حديد، فيقول في تصويره الفارس الصليبي:" أن فارسهم ما دام فرسه سالماً لم يدلّ للصَّرعة، فإنه من لبُسه الزردي من قرنه إلى قدمه كأنه قطعة حديد، ودِراك الضرب إليه غير مفيد"[3].

ويرسم العماد صورة طريفة للفارس الصليبي المحتمي بدرعه وترسه، فشبهه بالقنفذ نتيجة للسهام الكثيرة التي نشبت به، وهذا يدل على اهتمام الصليبيين بوسائل الحماية في أثناء خوضهم المعارك، يقول:" وذُكر أنه وقف في ثغره من تلك الثغر إفرنجي، كأنه جني مستشيط للشيطان نجي، وهو يدافع ويمانع، ويكافح على تلك الثغرة ويقارع، قد اتخذ طارقته لجسمه صدفاً، وصار لسهام المنية هدفاً، وهو كأنه مما نشب فيه من النشاب القنفذ، وتلك السهام من لبس الحديد لا تنفذ"[4] .

أما القائد الصليبي فقد وصفه العماد بصفات تدل على الخبث والكفر والنجاسة والغرور والخيانة، ومن ذلك قوله في صاحب صور:" وكان من أكبر طواغيت الكفر

---

(1) العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص297.

(2) العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، ص444.

(3) أبو شامة المقدسي، الروضتين، ص 285/3.

(4) العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص 504.

وأغوى شياطينه، وأضرى سراحينه، وأخبث ذئابه، وأنجس كلابه، وأنهش صلاله، وأفحش ضلاَّله، وأعوى أعوانه، وأخون إخوانه، وأبغى بغاته، وأجفى جفاته، وأرعى حماته، وأحمى رعاته، وشر شراره، وأنكر نُكاره، وأفجر فجّاره، وأروغ ثعالبه، وألسب عقاربه، وأحنث معاهديه، وأنكث معاقديه، وهو الطاغية الداهية، الذي خُلقت له ولأمثاله الهاوية"[1].

ويبدو من هذا الوصف الذي نُعت به القائد الصليبي، أن المشاعر كانت تنبع من حقد وكراهية واحتقار لهذا العدو الغازي، ومن باب الإنصاف كان العماد يذكر شجاعتهم وقوة عزيمتهم وإقدامهم في القتال، إلاّ أن مشاعر الكره المتأصلة في نفسه، نتيجة لهذا الصراع العسكري الذي اتخذ طابعاً دينياً، جعلته يصل إلى حد السبّ والشتم، خاصة عندما يكون الحديث عن القائد الصليبي.

ووصف العماد الأسلحة والمعدات الحربية التي كان يستخدمها الجيش الصليبي، وهي تقسم إلى قسمين: القسم الأول ويشتمل على الأسلحة الخفيفة التي كان يستخدمها أفراد الجيش، كالسيف والرمح والقوس والدرع وما هو ضروري لكل مقاتل، وأما القسم الثاني فيشتمل على الأسلحة الثقيلة التي استخدمها الصليبيون في معاركهم مع المسلمين، سواء التي أحضروها معهم من بلادهم، أو التي احتاجوا إلى صنعها في أرض المعركة.

وأما الأسلحة الخفيفة، فلا يكاد يخلو وصف للعماد لأي معركة منها، وعلى سبيل المثال قوله:" ذلك أن ملك الإفرنج حشر حشود ضلاله، وأبطال باطله، وحشد جيوشه من برّه وبحره وساحله، وقدم بفارسه وراجله، وقناه وقنابله، وظباه وعوامله، وذؤبانه وذوابله....، وزحف في ألف رمح وعشرة آلاف مقاتل، وحامل عدّة للموت حامل، وشارع عامل بالشر عامل، وكلّ درّاع داعر، ومراوغ مغاور، وفارس فارس، وسبع عابس، وذي طوارق بالأذى طوارق، وسوابق إلى الموت سوابق"[2].

وقد مرّ معنا في حديثنا عن الجيش الإسلامي، أنواع من الأسلحة الفردية التي كان المحارب يستخدمها، والتي يشترك في استخدامها المسلمون والصليبيون على حد

---

(1) العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص 109.

(2) العماد الأصفهاني، البرق الشامي، 167/3.

سواء؛ لأن المسلمين تأثروا بأعدائهم من الفرنجة، كما تأثروا هم بالمسلمين، ويشمل هذا التأثر الصراع العسكري بما فيه من أسلحة ومعدات حربية، استخدمها الطرفان.

أما الأسلحة الثقيلة التي استخدمها الجيش الصليبي، فقد صورها العماد وأبرز خطرها ونكايتها بالمسلمين، فصوّر أبراجهم ودبَّاباتهم ومجانيقهم وحتى قطعهم البحرية التي كانوا يستخدمونها لنقل الجنود والسلاح والذخائر والمؤن.

وقد وصف العماد السفن الحربية الضخمة، التي رافقت وصول ملك الإنجليز، وقد أحدثت روعة في قلوب المسلمين، لضخامتها ولما تحمل في داخلها، فيقول:" وكانت معه من الشواني خمس وعشرون قطعة، كل واحدة منها تضاهي تلعة، وتوازي قلعة، وأحدث في القلوب روعة، وأرّث في النفوس لوعة"[1].

ومن الآلات الثقيلة التي استخدمها الصليبيون الأبراج، وكانوا يستخدمونها للارتقاء على الأسوار، كما حدث في حصارهم لمدينة عكا، وقد وصف العماد هذه الأبراج وكيفية صناعتها، وشدة أثرها ونكايتها على المسلمين، فيقول في ذلك:" وكان الفرنج منذ نزلوا للحصار، شرعوا في عمل الأبراج الكبار، وركبوها من الأخشاب الطوال، والعمد الثقال، وبنوها وقدموها، ونصبوها وأحكموها، وسقفوها طباقاً، وسمَّروها بالحديد وجعلوا لها منه أطواقاً، ووثَّقوها شداً، وشدوها وثاقا، ولبسوها بالسلوخ، وملأوها بالجُروخ، وزحفوا بها إلى السور، وكشفوا بالرمي منها بعض سقوف الدور"[2].

وقد استخدم الصليبيون في معاركهم مع المسلمين أنواعاً عدة من الأسلحة الثقيلة، منها الدبابة التي تتكون من أربعة طوابق، تحمل الجنود في داخلها، وتستخدم في معارك الأسوار، ومن ذلك وصف العماد للدبابة في حصار الصليبيين لعكا، فيقول:" وكان الفرنج قد اتخذوا دبابة عظيمة هائلة، قد أظهرت لها في الشر غائلة، ولها أربع طباق ، شدها على الارتباط باق، ولها من الإحكام باس ولباس، وهي خشب ورصاص وحديد ونحاس، وقرَّبوها إلى أن بقيت بينها وبين البلد أذرع خمس، وفي طباقها سباع ضوار وذئاب طلس، وبُلي البلد منها بكل بلية، ورزى بكلِّ رزية"[3].

---

(1) العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص 484 .

(2) العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، ص367 .

(3) العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، ص487.

ونتيجة للظروف الحربية السائدة، فقد طوّر الصليبيون الدبابة وأضافوا إليها رأساً كبيراً يسمى الكبش، الغاية منه نطح الأسوار وهدمها، وقد قام المسلمون بعد ذلك بحرقه، وقد وصف العماد هذا السلاح بقوله:" واستأنف الفرنج عمل دبابة هائلة، وآلة للغوائل غائلة، في رأسها شكل عظيم يقال له الكبش، وله قرنان في طول رمحين كالعمودين الغليظين، أقفال الأسوار المعلقة بها تفش، فكم سور إذا نطحته طحنته، وكم معقل حصّنه الدهر حصته وصحنته....، وقد سقفوها مع كبشها بأعمدة الحديد، وكملوا لها أسباب الإحكام الشديد، ولبَّسوا رأسي الكبش بعد الحديد بالنحاس، وكسوها حذراً عليها من النار سائر لباس الباس، فلم يبق للنار فيها سبيل، ولا للعطب عليها دليل"[1].

ومن الأسلحة الثقيلة الأخرى التي استخدمها الصليبيون، المجانيق والسلالم والجسور، وكانوا يبذلون الأموال الكثيرة، في صناعتها وإحكامها، ووصف العماد حجم خسارتهم في هذه الأسلحة التي أنفقوا عليها أموالهم، فيقول:" استنفد الفرنج أموالهم في عُدد أعدوها، وآلات أجدوها، وأحكموا أبراجاً شامخات، ومجانيق شادخات، وزاد غرامهم بالغرامات، واستقلوا على عمل الأبراج كثرة الخسارات"[2].

ومهما بلغت هذه الآلات والمعدات من قوة وتدمير، إلّا أن العماد كان على الدوام يحطّ من شأنها، من خلال تصويره للمصير الذي آلت إليه، وتفوق المسلمين عليها وإحراقها، ويصف هذه الآلات بأنها غير نافعة، فيقول:" وعلم الفرنج حين حبطت أعمالهم، وهبطت آمالهم، أن الشقاء أدركهم، والشقاق أهلكهم، وأن مدبرهم مُدبر، وان ترتيبهم مدمر، وأن آلاتهم غير نافعة، وأن نهلاتهم غير ناقعة"[3]، فهذه الآلات والمعدات مهما بلغت من قوة إحكامها وتشييدها، لا يمكن لها الوقوف في وجه عزائم المسلمين، وهذا ما كان يركز عليه العماد في وصفه لها.

وقد كان الجيش الصليبي يتخذ من التحصينات الدفاعية وسيلة لرد أي هجوم إسلامي، وكان اعتمادهم على هذه التحصينات كبيراً، لأنهم ليسوا من أهل البلد، وقد

---

(1) العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص432.

(2) العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، ص377.

(3) العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، ص434.

عرفوا هذا تماماً، ولذلك كان الصليبيون يبالغون في تحصيناتهم الحربية، ويظهر ذلك في اهتمامهم بتشييد القلاع والحصون، والتفنن في مناعتها ضد أي هجوم، وكانوا يبنون حولها الأسوار العالية، ويحفرون الخنادق، وقد وصف العماد حصانة مدينة صور، واهتمام الصليبيين في تحصينها، فيقول:" هذا بلد حصين، ومكانه في الأرض مكين، في البحر ثلاثة أرباعه، وفي السماء ارتفاع يفاعه، وطريقه الذي يسلك من البر إليه، قد أحاط به البحر من جانبيه، وقد قطعوه بخندق في عرضه، وعمقوه ونزلوا في أرضه"[1].

ويصف العماد هذه التحصينات الدفاعية التي كان يتخذها الصليبيون، ويصور صلابتها ومناعتها، حتى إن الطير في السماء لا يستطيع اجتيازها، فهي خنادق حُفرت بعناية، وصُمِّمت للحماية، ومن ذلك قوله في الخندق الذي حفره الصليبيون حول معسكرهم في مدينة عكا، يقول:" وشرع الفرنج في حفر خندق على معسكرهم حوالي عكا من البحر إلى البحر، وأخرجوا ما كان في مراكبهم من آلات الحصر.....، حتى عمّقوا الحفور، ووَّثقوا من ترابها السور، وملأوه بالستائر، ومنعوه من الطير الطائر، وبنوه وأسَّسوه، وستروه وترسوه، ورتَّبوا عليه رجالاً، لم يتركوا إليه لواغل مجالاً، وتركوا فيه أبواباً وفروجاً، ليظهروا منها إذا أرادوا خروجاً"[2].

وكان العماد على الدوام يحاول التقليل من شأن معداتهم وتحصيناتهم الحربية التي أعدوها، وأنها لهم تغن عنهم شيئاً، أمام الجيوش الإسلامية، ويصور هذه الخنادق التي أعدها الصليبيون، بالقبور التي ستضمهم، وتمتلىء بأشلائهم، وفي ذلك يقول:" وما خنادقهم لهم، إلاّ رموس دوارس، وما حفروا إلاّ قبورهم، وما دبّروا إلاّ ثبورهم، ومتى قصدناهم كذبت ظنونهم، وصدقتهم منونهم، وامتلأت بأشلائهم خنادقهم، وأظلمت عليهم بغربنا مشارقهم، وبيَّتتهم بوائقهم، وتبت علائقهم"[3].

وبالنسبة للخطط العسكرية التي كان يتّبعها الصليبيون في صراعهم مع المسلمين، فقد تعددت وتنوعت بحسب المقتضيات التي تفرضها عليهم المعارك التي

---

(1) العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص157.

(2) العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، ص325.

(3) العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، ص326.

خاضوها، وكانوا دائماً يغتنمون الفرصة للإيقاع بالمسلمين، ويصف العماد استغلالهم لفرصة تفرق العساكر الإسلامية، للهجوم على المسلمين، فيقول:" لما عرف الفرنج انفصال جماعة من الأكابر، ومفارقة عدة كثيرة من العساكر، خرجوا متجاسرين وامتدوا متقاطرين، وانتشروا متغاورين...." [1].

وقد استغلّ الصليبيون الفرص التي كانت تواتيهم في أعمالهم العسكرية، واعتمدوا عدّة طرائق في القتال، بما يتناسب مع قدراتهم القتالية، ومن هذه الطرائق الكمائن، التي تعتمد على الهجوم المفاجئ، ففي مدينة صور، كبس الفرنج السفن الإسلامية، بعد أن تأكدوا من نوم المسلمين الذين قاموا على حراستها، يقول العماد:" فحفظ أصحابنا إلى السحر الحرس، وسهروا إلى أن شارفوا الغلس، وكلّ منهم لما استأنس نعس، وغاص في النوم وما تنفس، فما انتبهوا إلاّ وسفن الفرنج بهم محدقة، ونيرانهم محرقة...." [2] .

وكان الصليبيون ينوّعون في أساليبهم الحربية، فمن الخطط التي اتبعوها، فتح عدّة جبهات في آن معاً، لتشتيت العساكر الإسلامية، ومن ذلك خطتهم في جذب السلطان صلاح الدين إلى بيروت، بعد أن عجزوا عن احتلال بيت المقدس، ويصف العماد ذلك بقوله:" لمّا تعذر على الفرنج قصد القدس، وعرفوا أن مرضهم به في النكس، ورأوا أن ثغر بيروت قد براهم، وعرَاهم من القوة ما منه عراهم، وأنه قد قطع عليهم طريق البحر بمراكبه، وقد فُجعوا بمصائبه ونوائبه، فقالوا: أخذ هذا البلد هيّن، وقصده متعين، وإذا حاصرناه جذبنا السلطان وعساكره إلى جانبه، وخلا القدس من جمة كتائبه"[3] .

كما اعتمدوا على الحرب النفسية، كنوع من الخطط الحربية التي طبّقوها، واعتمدوا على إثارة الفتن والخلافات، والتهديد بكثرة جيوشهم الزاحفة، وإظهار قوتهم وشدة بأسهم، واتخذوها وسائل لتثبيط همم المسلمين وعزائمهم، وإدخال الخوف إلى نفوسهم، ويتضح ذلك من رسائل التهديد التي كانوا يبعثونها، ويصور العماد ذلك بقوله

---

(1) العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص408.

(2) العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، ص161.

(3) العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، ص597.

على لسان ترجمانهم، موجهاً كلامه لصلاح الدين الأيوبي، بأن يرفع يده عن اللاذقية، فيقول:" وإن أبيت غير الغيرة والإباء، ودُمت على إرهاق الدهماء وإهراق الدماء، جاء من وراء السبعة البحار من يسد فضاء السبع الطباق، وأفاق للتناصر على دفع هذا الخطب نصارى الآفاق، وثار الروم لروْم الثار، وخرج الفرنج أنفاراً للاستنفار...." [(1)].

واعتمد الصليبيون من باب الحرب النفسية إخفاء خسائرهم في المعارك التي كانوا يخوضونها، فكانوا يعمدون إلى دفن قتلاهم، وعدم إبقاء جثث القتلى في أرض المعركة، كي لا يُظهروا حجم خسائرهم، وفي ذلك يقول العماد:" وكلما صُرع منهم قتيل حملوه وستروه، وطمّوا مدفنه وطمروه، حتى يخفى أمرهم، ولا يصح لدينا كسرهم"[(2)].

وقد خاض الجيش الصليبي معارك عديدة، في صراعه مع المسلمين، انتصر في بعضٍ منها، وانهزم في بعضها الآخر، وكان العماد في وصفه لهذه المعارك، يركز على التهوين من نصر الصليبيين في حالة انتصارهم، والسخرية والاستهزاء منهم، حين تكون الغلبة للمسلمين، ومن المعارك التي وصفها العماد معركة مرج عيون[(3)]، في سنة 575هـ، فيصور فيها لحظة اللقاء بين الجيشين، وشدّة القتال فيها، فيقول:" حتى تراءى الجمعان، ودنا الرعان من الرعان، وعنا العنان للعنان، وحنا السّنان على السنان، ونشطت أيمان الإيمان، وقرب قران الأقران، واحترب حزب الله وحزب الشيطان، وحلا ضرب الضرب وطعم الطعان، بعذب القضب ومرّ المرّان....، فخفّ رجالتهم إلى الأثقال، وفارقوا خيل النزال وفوارس القتال....، وكادوا يكسفون الأنوار، ويكشفون الأستار، ويشقّون الغبار، ويسبقون المضمار، فثبت السلطان أمامهم، وردّهم وراءهم، وميّل بهم عن استوائهم إلى أسوائهم، وترادف المدد، وتضاعف العدد، وكلما رُدّوا رَدّوا، وكلما تصدّوا صُدّوا، وسدّت الملحمة عليهم فما ألحموا ولا أسدوا، فحملوا حملة كادت تتم، وبسرّ الشرّ تنم...." [(4)].

---

(1) العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص240.

(2) العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، ص444.

(3) مرج عيون: موضع بسواحل الشام، ياقوت الحموي، معجم البلدان، 101/5.

(4) العماد الأصفهاني، البرق الشامي، ص163/3 ـ 164.

ويبدو أن العماد في تصويره للجوّ العام للمعركة، كان يركز على نتيجة المعركة أكثر من تفاصيلها الدقيقة، وكان يقدم صورة خاطفة لالتقاء الجيشين، وحالة الصدام بينهما، وما ينطبق على المعركة البرية، ينطبق أيضاً على المعركة البحرية، مع اختلاف الظروف في كلٍّ منهما، من حيث المكان والأسلحة المستخدمة، ومن ذلك تصوير العماد لمعركة بحرية، فيقول:" فصدمتها مراكبنا بمناكبها، وملأت معاطنها بمعاطبها....، وأقبلت سواريها بالرواسي، مبرمة الأمراس محكمة المراسي، وقطعت اللجَّة بأشباه أمواجها، وسدت فجاجها بأفواجها، ونكَّست أعلام الأعلاج عن أثباجها، ووافت أساودها السود بالأسود، وسدّت عقبانها الآفاق بأجنحة الرايات والبنود....، فصدتها وصدعتها، وردّتها وردعتها، فكأنما نعبت غربانها ببين أحبة الكفر أعاديها، وأناخت ظعائن الضغائن على شواني شوانيها....، وتفرقت سفن الفرنج أيدي سبا، وأصلد زندهم وكبا، وعادوا محصورين محسورين قد دُفعت مراكبهم التي دافعت عن مباركهم، وأيقنوا أنهم تورطوا في مهالكهم"[1].

3.4 تصوير هزائم الصليبيين

استمرت الحرب بين المسلمين والصليبيين فترة طويلة، قاربت قرنين من الزمان، ألحق فيها المسلمون بالصليبيين خسائر فادحة، وهزائم كثيرة، ولا بد للأدب العربي أن يصوّر هذه الهزائم التي تكبدها الصليبيون في معاركهم مع المسلمين.

ومما يرتبط بصورة الصليبيين عند العماد الأصفهاني، صورة الهزائم التي لحقت بهم وبجيوشهم التي جاءت غازية ومعتدية على البلاد الإسلامية، وتعبر هذه الصورة عن مناظر القتل والأسر والفرار التي كانت تلحق بالصليبيين، في أثناء وصف معاركهم المحتدمة، والتي خاضوها مع المسلمين.

ولا ننسى مناظر الخراب والدمار التي حلّت بجيوشهم وحصونهم وقلاعهم؛ لأن الصراع كان على أشدّه، فكانت مظاهر التغني بانتصارات المسلمين، وإلحاق الهزيمة

---

[1] العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص 340 ـ 341.

بأعدائهم، تتجلى بشكل واضح في الأدب العربي، الذي صوّر مرحلة الصراع تلك، ولا سيما أدب العماد الأصفهاني.

وقد صوّر العماد الوضع النفسي الذي مرّ به الصليبيون في حال هزيمتهم، وهو وضع ينبئ عن خوف وذعر، بل عن رعب تمكن من قلوبهم، ومن ذلك صورتهم خائفين مرتعدين، يقول العماد في وصف فرارهم:

ولّوا وقلبُ شجاعهمْ في صـدرِهِ   كالسَّيفِ يُرعدُ في يمينِ جبانِ
ولّى وجوهَهُم سوادُ وجوهِــــهمْ   نحوَ السَّوادِ وآذنُوا بهـــــــوانِ[1]

ويرسم العماد صورة أخرى، للخوف والذعر الذي تمكن من قلوب الأعداء، وانتشر فيهم بسرعة كبيرة، كالنّار عند انتشارها في الفحم، يقول:

تمكّنَ الرُّعبُ في قلبِ العدوِّ بها   تمكّن النَّارِ بالإحراقِ في الفحمِ[2]

ويصور العماد الحالة النفسية للصليبيين الذين تحصنوا بحصن الأكراد، وقد استشعروا الهزيمة، فيقول:" وطار الرعب، وثار العجم والعرب، وخاف الكفر، وطاف الذعر، وقال نفرُ الشِّرك نفرُّ ولا نستقر، وتشوّروا وتشاوروا، وحاروا وتحاوروا، كأنهم في قبور حصونهم أموات، لا ترتفع لهم من الوهل والوله أصوات"[3].

وكان الخوف والهلع والفرار من أمام المسلمين في المعارك، من الصفات التي وصف العماد الصليبيين بها، فقدّم صورة الهاربين الخائفين، لقادة جيوشهم، فهم يفرّون من ساحة المعركة مذعورين لحجم مصيبتهم التي لحقت بهم، ومن ذلك تصويره لكبار قادتهم في المعارك، فيقول:

لمَّا رأى الدَّاويُّ راوُنـــداءَهُ   ولّى بطاعونٍ بغير طعـــانِ
طلبَ الفِريريُّ الفرارَ بطُلبــهِ   متباعداً مـن هُلكهِ المتدانِــــي
والهنْفَرَي مُذ هانَ فرَّ مُؤمِّـلاً   لسلامةٍ والهُونُ شأنُ الشَّانـــي[4]

---

[1] العماد الأصفهاني، الديوان، ص 413.
[2] العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، ص 381.
[3] العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص225 ـ 226.
[4] العماد الأصفهاني، الديوان، ص415 ـ 416.

وللتقليل من شأن الصليبيين، كان العماد يركز على فرارهم من أرض المعركة، ومن ذلك قوله فيهم يصف هزيمتهم:

لاقتْ غواةُ الفرنــجِ خيبتَها   فزادَ مــن حسرةٍ تأسُّفُها
فــرّ فريرِيُّهـــا وأزعَجهـــا   نِــداء داويِّهـــا تلهفُهـــا[1]

ويصور العماد كثرة القتلى والصرعى من الصليبيين، وكأنه يوثّق للهزائم التي لحقت بهم، ومن ذلك قوله:

تركتَ مصارعَ للمشركيـــن   بطونُ القشاعمِ فيها قبورُ[2]

ولا يكتفي العماد بصورة الصليبيين المنهزمين المخذولين، وقد أصبحت بطون النسور قبورهم، بل نجده يكرر الفكرة، ويجعل هزيمتهم النكراء ترجّ الأرض من تحتهم، وتصبح بطون الذئاب قبورهم، فيقول مصورا هزيمتهم في حطين:

كسرتَهــمْ إذْ صحَّ عزمُـك فيهـــم   ونكَّستهم إذْ صارَ سهمهم نَكـــــسا
بواقعةٍ رجَّت بها الأرضُ جيشَهـــم   دماراً كما بُسَّت جبالهـــمُ بسَّـــــا
بطونُ ذئابِ الأرضِ صارتْ قبورهم   ولمْ ترضَ أرضٌ أن تكون لهم رَمسا
وطارتْ على نارِ المواضي فراشُهُم   صلاءً فزادتْ من خمودِهم قَبْســـــا[3]

وبعد تصوير العماد لفرار الصليبيين وهروبهم من أرض المعركة، ومقتلهم وكثرة صرعاهم في المعارك، نجده يعرّج على تصوير السبايا والأسرى، كي تكتمل صورة الهزيمة من قتل وفرار وأسر وسبي ، ويصور العماد كثرة الأسرى والسبايا بعد فتح القدس، فيقول:

تُقادُ بدأماءِ الدِّماءِ ملوكُـــــــهم   أسارى كسُفنِ اليمِّ نطّتْ بها القَلســـا
سبايا بلادُ اللهِ مملــوءةٌ بهـــــــا   وقد شُريتْ بخساً وقد عُرضتْ نَخسا
يطافُ بها الأسواقُ لا راغبٌ لها   لكثرتِها كم كثيرةٍ توجبُ الوَكســــــا[4]

---

[1] العماد الأصفهاني، الديوان، ص309 ـ 310.
[2] العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، ص192.
[3] العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، ص234 ـ 235.
[4] العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، ص235.

ويصف العماد منظر الأسرى، وهم في حالة من الذلّ والمهانة، يقادون إلى الأسواق لبيعهم، فيقول:" وجاءوا بالأسارى بين يديه، مقرنين في الأصفاد، مقودين في الأقياد، مسوقين إلى السوق، والحديد منهم في الأعناق والسوق"[1].

وفي تصويره للهزائم التي حلّت بهم، يبيِّن العماد مصير قادتهم، وقد تنوّع هذا المصير بين قتيل وجريح وأسير، كلٌّ بحسب حظه، ومن ذلك قوله:" وجعل الله لنا عليهم الكرّة، وصحح فيهم الكسرة، ومنحنا أكتافهم، وأعدنا بالقتل والأسر إلى الآحاد آلافهم، ومهّدنا في بطون القشاعم أكنافهم، ومزّقناهم في المأزق كلّ ممزق، وما تركنا جمعاً لهم في المفرّ غير مفرّق، ولجأوا إلى أودية ومضائق، وأدواء وبوائق، ومطرتهم في مطارهم بوارق بوارهم، وجرت أنهار نهارهم بدماء دمارهم، ولم يزلْ الضرب يفريهم، والطعن يقريهم....، فما نجا إلّا من أمهله الأجل، وأجّله المهل، وعدته العاديات، وعافته العافيات....، واشتمل بعد ذلك حبل الأسار على مئين من كبار الكفّار، فأسر كل مقدام مقدّم، وهمام معلم...." [2].

وفي موقف آخر، يصف العماد هزيمتهم المنكرة، وصوّر فيها حالتهم ومصيرهم الذي آلوا إليه، وكيف تبدلت أحوالهم، فيقول في وصف هزيمتهم:" ثم سقطت مهابتهم من النفوس، وتبدل بشرهم بالعبوس، وحصلوا في دائرة البوس، فما صدقوا كيف يرحلون، وعرفوا أنهم كانوا يجهلون، فكسعت أدبارهم، وكسحت آثارهم، ونفرت أنفارهم، وكثر قتلهم وإسارهم، وسلب قرارهم، وعميت من رماة الحدق لبصائرهم أبصارهم، وسالت سيولهم في الهزيمة وجرت أنهارهم، وثقلت عليهم أوزارهم، وغابوا وانقطعت أخبارهم، ولم تعرف أسرارهم، وانطفأ شرارهم، ولزمهم عارهم، وأغرقهم بحّارهم، وبودنا دام دمارهم"[3].

وكان العماد في حديثه عن هزائم الصليبيين، يذكر أعداد قتلاهم، كي يؤكد على أهمية الدور الذي اضطلع به القائد المسلم، في محاربة هذه الفئة الباغية، هذا من جانب، ومن جانب آخر كان يهدف إلى التقليل من شأن العدو والحطِّ من قدره،

---

[1] العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص93.

[2] العماد الأصفهاني، البرق الشامي، 3/ 168.

[3] العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، 3/ 54.

فمهما بلغت جيوشهم من قوة ومن عدد، سيكون مصيرهم القتل والفناء، لأنهم جاءوا معتدين، وفي ذلك يقول العماد:" فعكروا على ميسرة الفرنج فشلّوها، وأنهلوها من دمائها وأعلّوها، ولفّوها وفلّوها، ولقوها وأقلّوها، ووضعوا فيه السيوف، وأوضعوا إليها الحتوف، وأوسعوها قتلاً ذريعاً، وما أبطأ الوقت حتى صار مقدامها صريعاً سريعاً، فلم يفلت من الأعداء إلاّ أعداد، ولم ينج من آلافها إلاّ آحاد، وأمست لنار الحرب فَراشا، ولأرض المعركة فِراشاً..." [(1)].

ويعقد العماد مقارنة بين حال الصليبيين، قبل المعركة وبعدها، فهم قبل حطين طغاة يتمادون في طغيانهم، لا تعرف الرحمة إلى قلوبهم طريقاً، خرجوا للقتال مستعدين، مجتمعين من كل صوب على قتال المسلمين، وفي ذلك يقول:" والكفار قد خشنت عرائكهم، واتسعت ممالكهم، واستبصروا في الضلال، واستبضعوا للقتال، وخرجوا من ديارهم يخطبون غاشية الموت، ونفروا من وراء البحر يطلبون أمامهم من البرِّ ناشية الصوت، وقاتلوا جنداً ورعية....، قد نزع الله الرقة من قلوبهم، ونقلها إلى غروبهم....، فظاظ غلاظ، جهنميون كلامهم شرر وأنفاسهم شواظ...." [(2)] .

هذا حالهم قبل المعركة، أما حالهم بعد المعركة، فهو هزيمة كبرى زلزلت الأرض من تحتهم، وتوزعوا بين قتيل وجريح وأسير، وامتدت جثث قتلاهم على مد البصر، وعادوا ضعافا كالغنم بعد أن كانوا مستأسدين، وفي وصفهم يقول:" فكانوا أسوداً فعادوا من النَّقَد، فما أفلت من تلك الآلاف إلاّ آحاد، وما نجا من اولئك الأعداء إلا أعداد، وامتلأ الملأ بالأسرى والقتلى، وانجلى الغبار عنهم بالنصر الذي تجلَّى، وقيدت الأسارى بالحبال واجفة القلوب، وفرشت القتلى في الوهاد والجبال واجبة الجنوب"[(3)] .

ويرسم العماد صورة لمنظر القتلى من الصليبيين في معركة حطين، وقد تشوَّهت هذه الجثث من كثرة الضرب والطعن، وفي ذلك يقول:" وحطت حطين تلك الجيف على متنها، وطاب نشر النصر بنتنها، وعبرتُ بها فلقيت أشلاء المشلولين في الملتقى ملقاة، بالعراة عراة، ممزَّقة بالمازق، مفصَّلة المفاصل مفرَّقة المرافق، مفلّقة المفالق

---

(1) العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص311.

(2) العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، ص 51

(3) العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، ص 81.

محذوفة الرقاب، مقصوفة الأصلاب، مقطّعة الهام، موزعة الأقدام، مجدوعة الآناف، منزوعة الأطراف.... عديمة الأرواح، هشيمة الأشباح، كالأحجار بين الأحجار، عبرة لأولي الأبصار"[1] .

وفي كتاب بعث به العماد إلى الخليفة العباسي في بغداد، على لسان صلاح الدين الأيوبي، يصور فيه الهزيمة التي لحقت بهم، ويحدد الفترة الزمنية التي ذاقوا فيها طعم الهزيمة، وهي من يوم الخميس، الثالث والعشرين من ربيع الآخر، إلى يوم الخميس منسلخه، وفي ذلك يقول:" ويورد البشرى بما أنعم الله به من يوم الخميس الثالث والعشرين من شهر ربيع الآخر، إلى يوم الخميس منسلخه، وتلك سبع ليال وثمانية أيام حسوما، سخّرها الله على الكفار﴿فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾[2]، وإذا رأيت ثم رأيت البلاد على عروشها خاوية، ورأيتها إلى الإسلام ضاحكة، كما كانت من الكفر باكية، فيوم الخميس الأول فُتحت طبرية وفاض ريّ النصر من بحيرتها، وقضت على جَسرها الفرنج فقضت نحبها بحيرتها، وفي يوم الجمعة والسبت كُسر الفرنج الكسرة التي مالهم بعدها قائمة...."[3].

ويبدو أن العماد في هذا الكتاب، يعيّن الفترة الزمنية التي مرَّ بها الصليبيون في هزيمتهم، ويصف هذه الأيام والليالي التي مرت عليهم، ويتسلسل في وصف الهزيمة التي لحقت بهم يوماً بعد الآخر، إلى أن ساء مصيرهم، وأصبحوا صرعى كأعجاز نخل خاوية.

ولم يكتف العماد بتصوير القتلى والجرحى والأسرى من الصليبيين، ليظهر حجم خسائرهم الفادحة، بل صور أيضاً دماءَهم، والتي اعتبرها مادة لتطهير الأرض من الخبث والرجس الذي لحق بها من الصليبيين، ومن ذلك قوله مصوراً خروج الصليبيين من عكا:" وطبرية قد رُفعت أعلام الإسلام عليها، ونكصتْ من عكا ملّة الكفر على عقبيها، وعمّرت إلى أن شهدت يوم الإسلام وهو خير يوميها، بل ليس من أيام الكفر

---

(1) العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص 82.

(2) سورة الحاقة، الآية 7.

(3) القلقشندي، صبح الأعشى، 6/ 519، وقد أورد صاحب الروضتين مقتطفات من هذا الكتاب،انظر: الروضتين، 3/ 319 ـ 320.

يوم فيه خير، وقد غُسل عن بلاد الإسلام بدماء الشرك ما كان يتخللها، فلا ضرر ولا ضير"[1] .

وتتكرر فكرة التطهير عند العماد في أكثر من موقف، ومن ذلك قوله مخاطباً صلاح الدين الأيوبي، بضرورة المسارعة في تطهير بيت المقدس من رجس الصليبيين، يقول:

فسِــرْ وافتحِ القدسَ واسفكْ بـهِ دماءً متى تُجرهــــا ينظـــفِ[2]

وقوله أيضاً بعد فتح بيت المقدس:

وطهَّرتهُ مـــن رجسهـــمْ بدمائهـــم فأذهبتَ بالرِّجسِ الذي ذهبَ الرِّجسا[3]

وفي كل هزيمة يلحقها المسلمون بالصليبيين، كان العماد يتغنى بالنصر، من خلال تحقير العدو والتشفي بهزيمته، وقد اتخذ السخرية والاستهزاء وسيلة لتحقير العدو، الذي حشد كل إمكانيته لحرب المسلمين، يدفعه الغرور والطمع، ولكنه وقع في حبال الهزيمة النكراء، ونجده يرسم صوراً تموج بالسخرية والازدراء، لهذا العدو المتغطرس، ومن هذه الصور التي تقوم على السخرية والتهكم بالعدو، تشبيهه للسيوف بالصوالج، التي ترمي الرؤوس وتنثرها أمامها، فيقول:

صوارمهُ صوالجـهُ إذا مـــا رؤوسُ عداهُ كانتْ كالكُريــــنِ[4]

ومن صور السخرية أيضاً، تصويره للعدو بالذباب وفعل حد السيف فيه، وهي صورة تقوم على وصف منظر القتل، وتعتمد على التفصيل فيه، فيقول:

عدوّكَ كالذُّبابِ لـــه طنيـنٌ وفيه ذُبابُ سيفكَ ذو طنيـنِ[5]

ويرسم العماد صورة لمقتل القائد الصليبي، تحمل في ثناياها السخرية والشماتة من هذا القائد، الذي اتصف بالغدر وبالغرور، فقد رسم له صورة تفصيلية، وصوّر رأسه

---

[1] القلقشندي، صبح الأعشى، ص 6/ 519.

[2] العماد الأصفهاني، الديوان، ص 304.

[3] العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، ص232.

[4] العماد الأصفهاني، المرجع نفسه ، ص427.

[5] العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، ص429.

الطائر وكأنه ضفدع غطس في الماء، ولأنه اتصف بالغدر فقد كان دائم العطاس، وكان القتل تشميتاً له وهي صورة تتسم بالغرابة والطرافة، يقول:

يا طهرَ سيفٍ برى رأسَ البرنسِ فقد أصابَ أعظمَ من بالشِّرك قد نجَسا
وغاصَ إذْ طارَ ذاكَ الرأسُ في دمهِ كأنَّه ضفدعٌ في الماءِ قد غطَسا
مازالَ يعطسُ مزكوماً بغدرتـهِ والقتلُ تشميتُ من بالغدرِ قد عطَسا[1]

ومن الصور الطريفة أيضاً، والتي تموج بالسخرية، صورة السيف يلحس دم القائد الصليبي، فيقول:

تبوّغَ في أوداجهِ دمُ بغيـهِ فصالَ عليهِ السّيفُ يلحسهُ لحسَا[2]

وكثيرة هي الصور التي يرسمها العماد لهزائم الصليبيين، وتوحي بنوع من السخرية والاستهزاء، بل تصل إلى حد التشفي من هذا العدو الغاصب، ومن ذلك تصويره لإحساسهم بالذل والمهانة عقب هزيمتهم، وقد تبدلت أحوالهم، ومن ذلك قوله:" واستبدلوا من تطاولهم وقدرتهم العجز والقصور، ورأوا عزّهم في ذلِّهم، وصونهم في بذلهم، وسلامتهم في سلمهم، وغناهم في عدمهم، ولانوا بعد الاشتداد، ودانوا للانقياد، وهانوا بعد الاعتزاز، وهابوا بعد الاغترار، واقرّوا بعد الإنكار لتعود جفونهم إلى الغرار، وأمورهم إلى القرار...." [3].

وكان الصليبيون في حال استشعارهم للهزيمة، يسارعون في طلب الأمن والأمان، رغبة منهم في النجاة بأرواحهم، ويصور العماد ذلك بقوله:" فلما عرفوا أنهم مُدرَكون، وأنهم يؤخذون ولا يتركون، صاحوا الأمان، واستماحوا الأيمان....، وسلّموا القلاع بما فيها من عدة وذخيرة، وأسلحة وخيل ودواب كثيرة، وأمَّنوا على أنفسهم وأموالهم، وانصرفوا بنسائهم ورجالهم، وذريتهم وأطفالهم، وخفُّوا من أثقالهم، ودخل جماعة منهم في عقد الذمة، وتمسكوا بحبل العصمة"[4].

---

[1] العماد الأصفهاني، الديوان، ص229.
[2] العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، ص235.
[3] العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص608.
[4] العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، ص237.

ومن مظاهر الهزيمة التي لحقت بالصليبيين، تخريب المعاقل والحصون وتهديمها من قبل المسلمين، ومن ذلك وصف العماد للدمار والخراب الذي لحق بقلعة اللاذقية بعد فتحها، فيقول:" ورأيتها بلدة واسعة الأفنية، جامعة الأبنية، متناسبة المعاني، متناسقة المغاني، قريبة المجاني، رحيبة المواني، في كل دار بستان، وفي كل قطر بنيان، وقد أبى الله أن يكون للكفرة منها جنان....، لكن العسكر شعث عمارتها، وأذهب نضارتها، وأزعج ساكنيها، وأخرج قاطنيها، وملّك دور المشركين للموحدين، وطهَّرها من رجس الكفر وأظهر الدين، ووقع من عدة من الأمراء الزحام على الرخام، ونقلوا منه أحمالاً إلى منازلهم بالشام، فشوَّهوا وجوه الأماكن، ومحوا سنى المحاسن"[1].

كما وصف العماد الخراب والتدمير الذي لحق بمعالمهم الدينية، ومن ذلك وصفه لخراب كنيسة اللاذقية، يقول:" وبظاهر اللاذقية كنيسة عظيمة، نفيسة قديمة، بأجزاء الأجزاع مرصعة، وبألوان الرخام مجزعة....، ولما دخلها الناس أخرجوا رخامها، وشوَّهوا أعلامها، وحسروا لثامها وكسروا أجرامها، وأهدوا الأسى لهدِّ أساسها، وأفاضوا عليها لباس إبلاسها، وحكموا بعد الغنى بإفلاسها، وافتقرت وأقترت، وخربت وتربت"[2].

وكان الخراب والدمار يصل إلى حد الهدم، فقد أمر القائد صلاح الدين الأيوبي بهدم حصن بيت الأحزان؛ لما يشكل من خطر على المسلمين، حتى أنهم احتاجوا إلى جثث الموتى من الصليبيين، واستخدموها في طمِّ بنيانهم، وفي وصف ذلك يقول:" وأنتنت أشلاء القتلى، وذكرت آيات الاستعاذة تتلى، وسيّر من أبقاه الإسار إلى دمشق للعرض، والإعلام ببشارة أداء الفرض، وأقام السلطان في مخيمه، والأموات قد جافت، والأحياء قد عافت، وقال: لا أبرح حتى أهدم الموضع من أساسه، وأعيد الرجاء في تصور إعادته إلى ياسه، فقسَّمناه أذرعاً على الناس، حتى هدّوه إلى الأساس....، وكانوا قد احتفروا فيه جبّاً واسعاً على التل نبع معينه، وأحكم بالحجارة من أسفله إلى أعلاه طيّه وترصيفه وترصينه، فأمر بطمّه والجدّ في هدمه، فاحتيج في ذلك إلى جثث القتلى وجيف الهلكى"[3].

---

[1] العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص238

[2] العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، ص238 ـ 239.

[3] العماد الأصفهاني، البرق الشامي، 181/3.

وقد اعتمد العماد في تصويره المدن المفتوحة، على صورة المرأة المستباحة، والتي تُفترع عنوة، وتؤخذ غصباً وقهراً، من أجل بث روح النصر والنشوة بين المسلمين، على هذه الانتصارات المؤزرة، وتلك الهزائم المنكرة التي لحقت بالعدو الصليبي، ومن ذلك قوله مخاطباً صلاح الدين:

وافترعَها بكراً لها في مدى الدّهــ ـرِ رواحٌ في مدحِكـم وبكورُ [1]

وتتكرر صورة المدينة المحررة وتشبيهها بالمرأة المستباحة عند العماد الأصفهاني، وهي صورة تؤكد على القوة والبطش بالأعداء، ومن ذلك تصويره لفتح طبرية، يقول:" وعدنا إلى طبرية فتسلمنا قلعتها، وحللنا عقدتها، وفرعنا ذروتها، وافترعنا عذرتها"[2].

4.4 الصراع الحضاري

تركت الحروب الصليبية التي جرت في البلاد الإسلامية آثاراً بعيدة المدى على الشعوب الإسلامية، ثقافية واجتماعية ونفسية، فهذه الحروب لم تكن مجرد كرٍّ وفرٍّ، وقتال ودماء، ومعارك ونزال، فالصليبيون الذين يضمون أجناساً شتى يؤمن أكثرها بالمسيحية، طال مقامهم في بلاد المسلمين سنوات طويلة، وكان بعضهم مقيماً بصفة مؤقتة، ولكن الغالبية العظمى منهم استقروا في بلادنا، وخالطوا أهلها، وتأثروا بهم وأثّروا فيهم[3].

ولم تكن الصلة بين المسلمين والصليبيين صلة عداء دائم، طوال العصر الذي شهد الحروب الصليبية، فقد استتر هذا العداء في فترات متقطعة، واختلط المسلمون والصليبيون بعضهم ببعض، وعرف المسلمون كثيراً من عوائد الفرنجة، وأثنوا على ما

---

(1) العماد الأصفهاني، الديوان، ص183.

(2) العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص197.

(3) الهرفي، محمد علي، 1979م، شعر الجهاد في الحروب الصليبية في بلاد الشام، دار النصر للطباعة الإسلامية ــ القاهرة، ، ص 47.

رأوه فيهم من فضائل، وعابوا نقائصهم [1]، وخلفت هذه الحروب آثاراً بين الطرفين المتحاربين، وأقامت بينهم علاقات اجتماعية وثقافية، كانت عاملاً هاماً في تطوّر الشعبين[2].

ولا يخفى أن الصراع المحتدم بين المسلمين والصليبيين، قد خلق وضعاً حضارياً جديداً، تمثل في جوانب الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية على حدً سواء، وإن كان الجانب الحربي قد طغى على الجوانب الأخرى، لأن الصراع لا يتمثل في صراع بين جيشين متحاربين، بل صراع بين حضارتين مختلفتين، لكلٍّ منها خصائصها وما يميزها عن الأخرى.

وقد أظهر العماد الأصفهاني في أدبه جانباً مهماً من معالم الحياة التي عاشها الصليبيون في بلادنا الإسلامية، وصوّر عديداً من مظاهرها، وأبرزَ وجوه الاتفاق والخلاف بين الحضارتين، وأهمّ جوانب التأثر والتأثير بينهما، لا سيّما الجانب العسكري.

وقد مرّ سابقاً ذكر أنواع عديدة من الأسلحة والآلات الحربية التي استخدمها الطرفان، كما تم ذكر بعضٍ من الخطط الحربية المتبعة عندهما، ووصف عناصر كل جيش وتعبئته العسكرية، حتى إنه ذكر أنواعاً من الأسلحة تم تطويرها لمواجهة الأسلحة المُعدة من الطرف الآخر، وفي هذا المقام سيتم تسليط الضوء على أهم معالم حياة الصليبيين، كي تتضح جوانب الصراع الحضاري بين الطرفين.

وأول ما يستوقفنا الحياة السياسية ومعالمها عند الصليبيين في المشرق الإسلامي، فقد أقام الصليبيون كيانهم السياسي من خلال تأسيسهم للإمارات والممالك الصليبية، والتي اتخذوها نقاطاً للتوسع والسيطرة على المزيد من الأرض الإسلامية، واعتمدوا في ذلك على نجدات الغرب المتوالية لهم.

وقد طبق الصليبيون كثيراً من النظم الإقطاعية التي خبروها وعاشوها في الغرب الأوروبي، وكان الملك على رأس الهرم الإقطاعي، أما الأمراء فعليهم الاعتراف بالتبعية

---

(1) انظر: أحمد بدوي، الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية، ص21.

(2) النقاش، زكي، 1958م، العلاقات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية بين العرب والإفرنج خلال الحروب الصليبية، دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر، ، ص133 ــ 134.

لسيّدهم الإقطاعي، وعليهم أن يقدموا له الخدمة العسكرية من فرسان ومحاربين، وفقاً للقواعد والأصول الإقطاعية[1].

ويمثل الملك رأس السلطة، وهو الذي يصدر التعليمات والتشريعات، ويعقد مجالس الشورى، لكن القرار السياسي يكون بيده، فعندما اجتمع الصليبيون قبل معركة حطين، حدث بينهم خلاف حول محاربة صلاح الدين والتعرض له، فكان قرار الملك بشنِّ الهجوم، وهذا يظهر مدى السلطة السياسية التي يتمتع بها الملك في إدارته للحكم، وفي ذلك يقول العماد :" وقد كان بينهم حينئذ خلف منبعث، وحلف منتكث، ووقوع نفار بين الأنفار، ووقود شرار بين الشِّرار....، وتزاور الفرنج وتوازروا، وتآمروا ما بينهم وتشاوروا....، فقال له الملك: "أنت قد قلبتك الآفة، وفي قلبك المخافة، وأنت للخور رخو، وللخشية حشو، وأنا لا بد أن أصدمه وأصده، وأكدمه وأكدّه...."[2].

وكان الملك الصليبي يحظى بنظرة إكبار وإجلال عند الصليبيين، لما يتمتع به من صفات قيادية وحرص على مصلحة الأمة الصليبية، وقد وصف العماد هذا التقدير حينما وصل أحد ملوكهم، حاملا معه النجدة لهم، فيصف أثر ذلك عليهم، ويقول:" وهو عندهم عظيم القدر، فكمل بمن وصل معه نقصهم، وأحيا بعد موت نفوسهم حرصهم، وأفاض عليهم الأموال، وحلّى منهم بعد عطلها الأحوال...." [3].

وكان نظام الحكم عندهم بالوراثة، فعند موت الملك ينتقل الحكم إلى ولده، سواء كان ذكراً أم أنثى، وفي ذلك يقول العماد:" وعادتهم أنه إذا مات ملك ينتقل ملكه إلى ولده، وسواء في هذا الميراث بين الذكور والإناث، فيكون المُلك بعد الابن إذا لم يخلف ابناً للكبرى، فإذا توفيت عن غير عقب كان للصغرى"[4].

---

[1] سعيد عاشور، الحركة الصليبية، 1/ 466.

[2] العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص65 ـ 66.

[3] العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، ص413.

[4] العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، ص494.

وكان هذا النظام مطبقاً، حتى لو كان الملك مريضاً، غير مؤهل للحكم، وفي ذلك يقول العماد:" لما هلك الملك أماري[1] بن أفلك في آخر سنة تسع وستين وخمسمائة خلف ولداً مجذوماً، وكان مع الوجود معدوماً، قد أعضل داؤه، وأَيس شفاؤه، وسقطت أعضاؤه، وطال بلاؤه، فوضع الفرنج التاج على رأسه، وتمسكوا مع أمراضه بأمراسه....، وبقي بينهم زهاء عشر سنين ملِكاً مطاعاً، معاراً من إشفاقهم واتفاقهم مراعى" [2].

كما كان للفرق العسكرية كالداوية والإسبتارية دورٌ في الحياة السياسية عند الصليبيين؛ ذلك أنها تشكل اليد الضاربة للملوك والأمراء، فالملك لا يستغني عنهم، حتى أنه يحتاج إلى موافقتهم عند استلام الحكم، ومن ذلك ما حدث عندهم بعد وفاة ملكهم المجذوم، ملك مملكة بيت المقدس، فقد حاول أحد الأمراء الاستقلال بالمُلك، ولكن الداوية رفضوا ذلك، ملتزمين العمل بشرط الوصية[3]، وهو ما يؤكد مبدأ الوراثة في الحكم عندهم.

أما عن الجانب الاجتماعي، فقد حرص العماد على إظهار التناقض بين الحضارتين، فهم قوم طارئون على البلاد الإسلامية، بينما المسلمون أصحاب حق في الدفاع عمّا يملكون، وقد بيّن العماد أوجه الاختلاف بين الحضارتين، من خلال تصويره لمظاهر حياتهم اليومية، ووصف عاداتهم وتقاليدهم، وذكر صفاتهم وطبائعهم، والعلاقات الاجتماعية التي قامت بين الطرفين.

وعندما تدفقت الحملات الصليبية على المشرق الإسلامي، كان هدفها الأول السيطرة على خيرات هذه البلاد، ولذلك كانت هذه الحملات تشتمل على جموع غفيرة من شتى أنحاء أوروبا، من مختلف الأعراق والشعوب، وبسبب هذا الهدف فقد اتخذت حياتهم في المشرق الإسلامي صبغة عسكرية، للمحافظة على كيانهم وتواجدهم، فبنوا

---

[1] أماري: هو الملك أموري ومري، ملك مملكة بيت المقدس، توفي سنة 569هـ/ 1174م، انظر: سعيد عاشور، الحركة الصليبية، 708/2.

[2] العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص67.

[3] انظر عن ذلك: العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، ص 68.

القلاع والحصون، وأحكموا تشييدها، وزوّدوها بالمؤن والأسلحة القادمة إليهم من الغرب.

ولكن طبيعة الحياة الحربية التي عاشها الصليبيون، لم تجعلهم يتناسون حياتهم، فقد اهتموا بعمارة البلاد، واستغلوا مواردها، وأقاموا شتى أنواع المعاملات والعلاقات الاقتصادية والاجتماعية.

ولأن الصراع بين الحضارتين، هو صراع عقائدي في جوهره، فقد كان العماد يبرز دينهم ومعتقداتهم وعاداتهم الدينية كذلك، ومن ذلك تعظيمهم للصليب، الذي يسجد النصارى له بل ويركعون، ويسخر العماد منهم، ويصف مدى تقديسهم لهذا الصليب، فيقول:" ولم يؤسر الملك حتى أخذ صليب الصلبوت، وأهلك دونه أهل الطاغوت، وهو الذي إذا نصب وأقيم ورفع، سجد له كل نصراني وركع، وهم يزعمون أنه من الخشبة التي يزعمون أنه صُلب عليها معبودهم، فهو معبودهم ومسجودهم....، فإذا أخرجته القسوس، وحملته الرؤوس، تبادروا إليه، وانثالوا عليه....، وأَخْذُه أعظم عندهم من أسر الملك، وهو أشد مصاب لهم في ذلك المعترك، فإن الصليب السليب ماله عوض، ولا لهم سواه غرض، والتألّه له عليهم مفترض، فهو إلههم وتُعفر له جباههم، وتسبِّح له أفواههم"[1].

وكان الصليبيون يحرصون على بناء الكنائس والتأنق في ذلك، وقد وصف العماد كنيسة بناها الصليبيون على الصخرة، وأظهر مدى اهتمامهم بزخرفتها وتزيينها، وفي ذلك يقول:" وأما الصخرة فقد كان الفرنج قد بنوا عليها كنيساً ومذبحاً، ولم يتركوا فيها للأيدي المتبركة ولا للعيون المدركة ملمساً ولا مطمحاً، وقد زيَّنوها بالصور والتماثيل، وعيَّنوا بها مواضع الرهبان ومحطَّ الإنجيل، وكمَّلوا بها أسباب التعظيم والتبجيل...." [2].

كما كان الصليبيون يعظِّمون أماكنهم المقدسة، كتعظيمهم لكنيسة قمامة التي تحتوي على مجموعات من صورهم الدينية، واعتقادهم بأن المسيح صلب فيها، ومنها ينشرون ويقومون، وفي ذلك يقول العماد على لسانهم:" فهذه قمامتنا، فيها مقامتنا، ومنها تقوم قيامتنا، وتصيح هامتنا، وتصح ندامتنا....، ففيها المصلب والمطلب،

---

[1] العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص84.

[2] العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، ص141.

والمذبح والمقرب، والمجمع والمعبد، والمهبط والمصعد، والمرقى والمرقب، والمشرب والملعب....، وفيها صور الحواريين في حوارهم، والأحبار في أخبارهم، والرهابين في صوامعهم، والأقسّاء في مجامعهم، والسحرة وحبالها، والكهنة وخيالها، ومثال السيدة والسيد، والهيكل والمولد....، قالوا: وفيها صُلب المسيح، وقرب الذبيح...." [1].

وقد أشار العماد إلى اتخاذهم مواسم معينة، يزورون خلالها أماكنهم المقدسة، ومن ذلك وصفه مشهد زكريا عليه السلام، حيث اتخذوه كنيسة[2]، يزورونها في موسم معين، وفي وصفه لهذا المشهد يقول:" وقد اتخذه الأقسّاء كنيسة منذ فارقه الإسلام، وهو متعبدهم المعظم، والمشهد المكرم، وقد حجبوه بالأستار، وحلّوه بالفضة والنّضار، وعيّنوا له مواسم الزوّار، وقومته من الرهابين فيه مقيمة، ولا يؤذن في الزيارة إلا لمن معه هدية لها قيمة"[3].

ومما يرتبط بعقيدتهم، دفنهم للموتى في أماكنهم المقدسة، فحينما مات ملك الألمان، كان قد أوصى بدفنه في القدس، فما كان منهم إلاّ أن سلقوه في قدر، ثم جمعوا عظامه لتدفن في كنيستهم في القدس، وقد وصف العماد ذلك بقوله:" وقيل إنهم سلقوا ذلك الهالك في قدر حتى تخلّص عظمه، وتهرّى لحمه، ثم جمعوا في كيس عظامه، وراموا بذلك إكرامه وإعظامه، ليحملوه إلى كنيستهم بالقدس قمامة، ويدفنوه على ما كان أوصى به ورامه"[4].

كما تحدث العماد عن عادات أخرى ارتبطت بمعتقداتهم الدينية، كحلقهم اللحى[5]، والتصليب على الوجه[6]، وعدم الزواج من المسلمين، الذي اعتبروه جريمة لا تغتفر، فحينما جرت المفاوضات بين ملك الإنكليز والملك العادل، على أن يتزوج العادل من أخت ملكهم، وكانت ردة الفعل عنيفة، فقد وجهوا إليها اللوم وعنَّفوها، ووافقت هي

---

(1) العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص118 ـ 119.

(2) العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، ص95.

(3) أبو شامة المقدسي، الروضتين، 316/3، وانظر: سنا البرق الشامي، ص303.

(4) العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص391.

(5) العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، ص417.

(6) العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، ص240.

بشرط أن يتنصر زوجها، ويدخل في ملتها، وهي صورة حيّة للصراع العقائدي آنذاك، يقول العماد:" فجبّهوها بالعذل واللذع....، وقالوا لها: كيف تفجئيننا بأفجع ملمٍّ مؤلم، وتسلمين بضعك لمباضعة مسلم، فإن تتصّر تبصّر، وإن تسرع فما تعسر....، ثم تصلبت في القسم وأقسمت بالصليب، أنها مجيبة إلى التقرير والتقريب، وأنها مسارعة إلى التمكين، لكن بشرط الموافقة على الدين"[1].

وقد تعدى العماد وصف معتقداتهم وعاداتهم الدينية إلى السخرية والاستهزاء، خاصة فيما يختص بوصف هزائمهم وانتصار الدين الإسلامي على معتقداتهم، فعندما أحرق المسلمون أبراجهم الثلاثة، وصف العماد هزيمتهم وبنوع من التوبيخ والاستهزاء، فوصفهم بالكفار، خائبة آمالهم، ضالاً سعيهم، قد أحاط بهم مكرهم وكيدهم، وفي ذلك يقول:"﴿فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ﴾[2]، وأسف على نَصَبهِ في نصْبها، وخمد الكفار بذلك الضرام، وسلوا عما كانوا فيه من غرام العُرام، وحبطت أعمالهم، وخابت آمالهم، وركدوا بعد جريهم، وركنوا إلى خزيهم، وضلوا في سعيهم، وتورطوا في بغيهم"[3].

وكان الصليبيون يعظّمون رجال دينهم، لما لهم من دور في هذه الحرب العقائدية، فكان دورهم يتمثل بالتحريض على القتال والصبر عليه[4]، علاوة على دورهم في تعليم أمور الدين، وعندما فتح صلاح الدين بيت المقدس، ذكر العماد عودة الدين إلى البيت المقدس، وخذلان رجال دينهم، يقول:

وعادتْ ببيتِ اللهِ أحكامُ دينـــهِ فلا بطركاً أبقيتَ فيها ولا قسّـا[5]

ولا عجب أن يصف العماد الصليبيين بأنهم أهل شرك وكفر، كنوع من تصوير الصراع العقائدي بين الطرفين، ومن ذلك مدحه لأسد الدين شيركوه، يقول:

في حلقِ ذي الشِّرك من عدوى سُطاك شجاً والقلبُ في شجنٍ والنفسُ في شجبِ[6]

---

[1] العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص556 ــ 557.

[2] سورة البقرة، الآية 258.

[3] العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص371 ـ 372.

[4] انظر: الفتح القسي، ص288، 338.

[5] العماد الأصفهاني، الديوان، ص232.

[6] العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، ص80.

وقوله أيضاً في مدح تقي الدين، فيصفهم بعصية الشرك، يقول:

إذا ما تقيُّ الدِّين صالَ تساقطتْ لأقدامهِ من عصبةِ الشِّرك أرؤسُ[1]

ووصفهم كذلك بأمة النار، يقول مادحاً صلاح الدين الأيوبي:

بعثتَ إمامَ أمَّةِ النَّار نحوَهـــا فزارَ إمامُ أرناطِها ذلكَ الحبسَا[2]

وكثيراً ما كان العماد يصفهم بأهل الشرك والكفر، وأهل الضلال والتثليث، ومن ذلك قوله أيضاً في تصوير الجيشين المتقابلين:" وبات الإسلام للكفر مقابلاً، والتوحيد للتثليث مقاتلاً، والهدى للضلال مراقباً، والإيمان للشرك محارباً، وهيئت دركات النيران، وهنئت درجات الجنان"[3].

وقد نقل العماد في حديثه عن مظاهر الحياة الاجتماعية للصليبيين صوراً متفرقة لعاداتهم وتقاليدهم التي ظهرت عندهم ومارسوها، ومن هذه العادات الزواج، فقد كان شائعاً عندهم أخذ الزوجة المتزوجة من زوجها، وغصبها على الزواج، حتى لو كانت حاملاً، حيث يقوم رجال الدين بعقد القران، وفي ذلك يقول العماد:" وغصبها منه، وصرفها عنه، واتَّخذها عروساً، وأحضر لنكاحها قسوساً، وقيل إنها كانت حبلى ولم تخرج من حبالة الحبل، فما شغلتهم حرمة الرحم المشتغل"[4].

وكان العماد ينكر مثل هذه العادات في الزواج، ويرى فيها استباحة وشركاً، ومن ذلك زواج المرأة بعد وفاة زوجها مباشرة، حتى لو كانت حاملاً، وفي ذلك يقول العماد مستهجناً ما فعله أحد ملوكهم:" ودخل بالملكة زوجة المركيس في ليلته، وادعى أنه أحق بزوجته، وكانت حاملاً فما منع الحمل من نكاحها، وذلك أفظع من سفاحها، فقلت لبعض رسلهم: إلى من يُنسب الولد، فقال: يكون ولد الملكة، فانظر إلى استباحة هذه الطائفة المشركة"[5].

---

(1) العماد الأصفهاني، الديوان، ص239.

(2) العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، ص236.

(3) العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص78، وانظر: ص 239، 246، 308.

(4) العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، ص494.

(5) العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، ص590.

ونظراً لطبيعة الحياة الحربية التي عاشها الصليبيون، فقد حظي القائد والفارس الصليبي بتقدير بالغ، لذلك كانوا يبالغون في مظاهر الحزن والبكاء على فقدانه، فتجدهم يندبونه ويتأثرون لموته، وقد صوّر العماد ذلك بقوله:" وأُسر منهم خلق كثير، من جملتهم أربعة من المعروفين فيهم فارس كبير، فما أمهلوه حين أخذوه، حتى قتلوه ونبذوه، فطلبه الفرنج بالأموال، ولم يعرفوا بالحال، فأخرجوه إليهم قتيلا، فأكثر الفرنج عليه بعد التعويل عويلاً، فباتوا يندبونه نوحاً، ويذيعون سرَّ تقدمه فيهم بوحاً"[(1)].

وتحدث العماد عن كثير من العادات المستنكرة عند الصليبيين، كالزِّنى وشرب الخمور والتجارة بها، حتى وصل الأمر إلى إنشاء أسواق خاصة لذلك، فقد ذكر العماد أن جند السلطان صلاح الدين الأيوبي قد استولوا على سوق الخمارات والعواهر في مدينة عكا، " وسبوا منه عدة من المستحسنات الفواجر"[(2)].

وذكر العماد في فصل وصف فيه حال نساء الفرنجة، هذه الظاهرة وانتشارها لديهم، فقد كان الغرب يرسل كثيراً من النسوة للترفيه عن الجنود المحاربين، وكنّ يبنين الخيام خصيصاً لذلك الغرض، اعتقاداً بأن ذلك يقربهن إلى الله، ويصف ذلك بأسلوب يفيض بالسخرية، فيقول:" وصلت في مركب ثلاثمائة امرأة فرنجية مستحسنة، متحلية بشبابها وحسنها متزينة، قد اجتمعن من الجزائر، وانتدبن للجزائر، واغترين لإسعاف الغرباء، وتأهبن لإسعاد الأشقياء، وترافدن على الإرفاق والإرفاد، وتلهبن على السفاح والسفاد، من كل زانية نازية، زاهية هازية، عاطية متعاطية....، وأنهنَّ لا يمتنعن من العزبان، ورأين أنهنَّ لا يتقربن بأفضل من هذا القربان، وتفردن بما ضربنه من الخيم والقباب، وانضمت إليهن أترابهن من الحسان الشواب، وفتحن أبواب الملاذ....، وزعمن أن هذه قربة ما فوقها قربة، لا سيما فيمن اجتمعت عنده غربة وعزبة، وسقين الخمر، وطلبن بعين الوزر الأجر، وتسامع أهل عسكرنا بهذه القضية، وعجبوا كيف تعبدوا بترك النخوة والحمية"[(3)].

---

(1) العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص415.

(2) العماد الأصفهاني، المرجع نفسه ، ص345.

(3) العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، ص347 ـ 348.

وكما ذكر العماد تركهم للنخوة والحمية، ذكر أيضاً جفاء أخلاقهم وقسوتهم، وذكر بعضاً من طبائعهم وصفاتهم التي اتصفوا بها، فقد عُرف عنهم الغلظة والقسوة، وهذه الخشونة احتاجت إلى التهذيب من قبل صلاح الدين كما يرى العماد، يقول فيهم:

أتوا شكسَ الأخلاقِ خشناً فليَّنـتْ حدودُ الرِّقاقِ الخشنُ أخلاقها الشُكسا[1]

وترتبط بهذه الطبائع لديهم صفة الغدر ونكثهم للعهود، فهم قوم "لا يفون، وعلى عهدهم لا يقفون"[2]، وكثيرة هي الدلائل والشواهد على غدرهم وعدم التزامهم بالعهود والمواثيق، ومن ذلك قتلهم الأسرى في عكا، يقول العماد:" وكان الملاعين قد أحضروا أسارى المسلمين في الحبال واقفين، وحملوا عليهم وقتلوهم بأجمعهم، وألقوهم على مصرعهم"[3].

على أن العماد أبرز لديهم صفة الشجاعة والإقدام، التي كانوا يتحلون بها، فكانوا يقاتلون أشد قتال، ويدافعون عن دينهم بكل ما أوتوا من قوة، وقد وصفهم العماد بقوله:" وقاتلوا أشد قتال، وناضلوا أحد نضال، ونازلوا أجد نزال....، وقالوا: كل واحد منا بعشرين، وكل عشرة بمئتين، ودون القمامة تقوم القيامة، ولحبِّ سلامتها تقلى السلامة"[4].

ولم ينس العماد تصوير صفاتهم الخَلقية، وما يمتاز هؤلاء القوم به من صفات وسمات مغايرة عما هو مألوف في المشرق الإسلامي، ومن ذلك وصفه لمن جاء مع ملك الألمان، يقول:" وأنه في ثلاثمائة ألف مقاتل، من كل سالب باسل، وطالب باطل، وجهمٍ جهنمي، وأشقري سقري، وأنمش أفعواني، وصلٍّ صليبي صلائي، وأرقش حنشي"[5].

---

(1) العماد الأصفهاني، الديوان، ص234.

(2) العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص604.

(3) العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، ص528، وانظر: ص390، 608.

(4) العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، ص124 ـ 125.

(5) العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، ص330.

ويقول فيهم أيضاً:"شقراً كأنما لفحت النار وجوههم﴿وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ﴾[1]، زرقاً كأنما عيونهم من حديدهم فهم بقلوبهم وعيونهم يكافحون"[2].

وبالنسبة للمرأة الصليبية في مجتمعها، فقد أورد العماد صوراً عدة لها، وبيّن مساهمتها ودورها في الصراع القائم بين الطرفين، وقد صورها امرأة حاكمة، وراهبة، ومحرِّضة، ومقاتلة، تساهم بشكل جلي في الحملات الصليبية المتتابعة على المشرق الإسلامي.

واضطلعت المرأة بدور كبير في أحداث الصراع، من خلال دورها في بثِّ الحماسة لدى الجند، والتحريض على القتال، يقول العماد:" وأما العجائز فقد امتلأت بهن المراكز، وهنّ يشددن تارة ويرخين، ويحرضن وينخين، وقلن إن الصليب لا يرضى إلا بالإباء، وأنه لا بقاء إلاّ بالفناء، وأن قبر معبودهم تحت استيلاء الأعداء، فانظر إلى الاتفاق في الضلال بين الرجال منهم والنساء"[3].

وقد لعبت المرأة الصليبية دوراً مهماً في الصراع المحتدم بين الطرفين، تمثَّل في مشاركتها في القتال إلى جانب الجنود[4]، ودعمها للحملات العسكرية التي كانت تبعث من قبل الغرب[5]، ودورها في الترفيه عن الجنود المقاتلين[6]، علاوة على دورها الديني في هذه الحرب، فقد ذكر العماد في فتح بيت المقدس، أن ملكة مترهبة أقامت في القدس، وكان حزنها شديداً على فقدان المدينة المقدسة، وقد عفا السلطان صلاح الدين الأيوبي عنها، وسمح لها بالخروج هي وأتباعها وممتلكاتها، وفي ذلك يقول:"وكانت في القدس ملكة رومية مترهبة، في عبادة الصليب متصلبة، وعلى مصابها به متلهبة، وفي التمسك بملتها متصعبة متعصبة، أنفاسها متصاعدة للحزن، وعبراتها متحدرة تحدر القطرات من المزن، ولها حال وسال وأشياء وأشياع، ومتاع وأتباع، فمنّ عليها

---

(1) سورة المؤمنين، الآية 104.

(2) العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص51.

(3) العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، ص349.

(4) العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، ص349.

(5) العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، ص349.

(6) العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، ص347 ــ 348.

السلطان وعلى كل من معها بالإفراج، وأذن في إخراج كلّ مالها في الأكياس والأخراج"[1].

ومن الصور التي رسمها العماد للمرأة الصليبية، صورة المرأة الفرنجية السَّافرة، المتحللة من القيود الاجتماعية، فهي امرأة متأنقة متبرجة، تهتم بشكلها وبمظهرها الخارجي، وفي ذلك يقول:" متغنية متغنجة، متبرزة متبرجة، نارية ملتهبة، متنقشة متخضبة، تائقة شائقة، فائقة رائقة....، تسحب غفارتها، وتسحر بنضارتها نظّارتها، وتتثنى كأنها غصن، وتتجلى كأنها حصن، وتميس كأنها قضيب، وتزيف وعلى لبتها صليب"[2].

وقد رسم العماد صورة للمرأة الصليبية في الأسر، والمصير الذي آلت عليه، فيقول في وصف السبي بعد فتح بيت المقدس:" فكم محجوبة هتكت، ومالكة ملكت، وعزباء نكحت، وعزيزة منحت، وبخيلة تسمحت، وحيية توقحت....، فكم تسرى منهن سريّ، وتجرأ عليهن جريّ....، وكم غانية استخلصت وغالية استرخصت، ووالية اعتزلت وعالية استنزلت"[3].

ولعل العماد أراد رسم هذه الصورة للمرأة الصليبية في الأسر، من باب التشفي والثأر، لما لحق بعشرات الآلاف من الأسيرات المسلمات، اللواتي ساقهن الفرنج إلى بلادهم، وامتهنوا كرامتهن الإنسانية[4] .

ونتيجة للاحتكاك بين الطرفين، فقد نشأت علاقات اجتماعية بين المسلمين والصليبيين، ونُظمت بينهما المهادنات والاتفاقيات التي تحفظ لكل طرف حقه، وكثيراً ما يتردد الرُسل بين الطرفين لعقد الهدنة[5]، ويتم خلال ذلك التباحث والاتفاق على نص الهدنة.

---

[1] العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص128.

[2] العماد الأصفهاني، المرجع نفسه ، ص347.

[3] العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، ص135 ـ 136.

[4] عن سوء معاملة الأسيرات المسلمات، انظر: رحلة ابن جبير، دار صادرـ بيروت، ص280، 296.

[5] انظر: الفتح القسي، ص501، 542، 555، 560.

ومن الهُدن التي عقدت بين المسلمين والصليبيين، تلك الهدنة التي عُقدت بين السلطان صلاح الدين الأيوبي والصليبيين في سنة 588هـ، وكان العماد قد كتب بنفسه نص الهدنة، وفي ذلك يقول:" فحضرت لإنشاء عقد الهدنة وكنت نسختها، وعيَّنت مدتها وبيَّنت قضيتها....، وعُقدت هدنة عامة في البر والبحر، والسهل والوعر، والبدو والحضر، وجعل لهم من يافا إلى قيسارية إلى عكا إلى صور، وأبدوا بما تركوه من البلاد التي كانت معهم الغبطة والسرور، وأدخلوا في الصلح طرابلس وأنطاكية، والأعمال الدانية والنائية"[1].

وبعد هذه الهدنة كان حجّاج الصليبيين يذهبون لزيارة كنيستهم في القدس، وكان السلطان يرحب بهم ويكرمهم، يقول العماد:" وفسح للفرنج كافة في زيارة قمامة، فجاؤا ووجدوا الأمن والسلامة....، فإنهم يصلون إلينا وافدين، ولزيارة الكنيسة قاصدين، وما يقتضي كرمنا أن نرد الوفود، ولا نبلّغ من يقصدنا المقصود"[2].

وقد قامت بين المسلمين والصليبيين علاقات اجتماعية تقوم على الود والمساكنة، فانتظموا فيما بينهم، وتبادلوا فيما بينهم عادات وتقاليد، وقد وصف العماد هذا التآلف الاجتماعي بقوله:" وأما نابلس فإن أهل ضياعها ومعظم أهلها كانوا مسلمين، وفي سلك الرعية مع الفرنج منتظمين، وفيها إفرنج ونصارى مقيمون مدبرون، وقد أقروا منذ استولوا عليها المسلمين على عوائدهم في قضائهم وحكمهم ومشاهدهم ومساجدهم، وهم يجبون كلّ عام منهم قراراً، ولا يغيرون لهم شرعاً ولا شعاراً"[3].

وظهرت مظاهر التأثر بالآخر، في العلاقات الاجتماعية بين الطرفين، فقد دخل بعض الصليبيين في الإسلام، واعتنقوه ديناً لهم[4]، ووصف العماد هذه الفئة من الصليبيين بالمستأمنين، الذين كانوا يقدمون خدمات جليلة للمسلمين، فكان السلطان صلاح الدين يرسلهم للغزو في البحر، واستخدمهم كجواسيس للمسلمين، وقد أسلم منهم قسم، تنعموا بكرم السلطان عليهم، وفي وصفهم يقول العماد:" عاد المستأمنون من

---

[1] العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص605،

[2] العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، ص610.

[3] البنداري، سنا البرق الشامي، ص302، وانظر: الفتح القسي، ص108.

[4] انظر: الفتح القسي، ص 440، 461، 493.

الفرنج الذين أنهضهم السلطان في براكيس، ليغزوا في البحر ويكونوا لنا جواسيس، فرجعوا وقد غنموا وغلبوا، وكسروا وكسبوا....، فوفر السلطان عليهم هذه الأكساب، ولم يحرمهم حيث حرموا لكفرهم الثواب، وأظهروا لهذه النهضة أنهم مناصحون، وليمين الإيمان مصافحون، فلما أكرموا بتلك المكرمة، أثنوا على اليد المنعمة، وأسلم منهم شطرهم، وحسُن بيننا ذكرهم، وببركات الكرم السلطاني كرموا، وأنسوا وأسلموا"[1].

وذكر العماد نوعاً آخر من العلاقات التي سادت بين الطرفين، وهذا النوع يختص بتردد بعض الجند من المسلمين إلى أماكن اللهو عند الصليبيين، كما فعل بعضهم عندما ذهب إلى الأماكن التي أُعدت من قبل الصليبيين للترفيه عن الجنود، ووصفهم العماد بقوله:" وأبق من المماليك الأغبياء، والمدابير الجهلاء، جماعة جدّ بهم الهوى، واتبعوا من غوى، فمنهم من رضي لِلذّة بالذلة، ومنهم من ندم على الذلة فتحيل في النقلة"[2].

وفي معرض حديثه عن الصراع الحضاري وعن حياة الصليبيين في المشرق الإسلامي، فقد عرض لجانب من حياتهم الاقتصادية، ووصف مظاهر تتعلق بها، كالتجارة والصناعة والزراعة، وقد مرّ معنا في الحديث عن حصار مدينة عكاً، أنواع من الأسلحة المستخدمة في الحصار، والتي قام الصليبيون بصناعتها وتطويرها، إضافة إلى ما يحتاجونه في حياتهم اليومية من صناعات وأدوات.

وكانت التجارة من بين الروافد التي تدر عليهم دخلاً، وقد ذكر العماد بعضاً من المواد التي كان الصليبيون يتاجرون بها، كالآنية والحلي والآلات والمعادن والأسلحة وغيرها[3]، كما أنهم اهتموا بتجارة الآثار، ونقلوا بعضاً منها إلى مدن أوربية وباعوها[4].

وفي حملاتهم العسكرية كانوا يحتاجون إلى الأسلحة والأقوات والأعلاف، فكانوا يتبادلون مع السكان المحليين أنواعاً من البضائع، وقد وصف العماد حاجة ملك الألمان أثناء زحفه إلى ما يحتاجه الجيش، وقد أقيمت لذلك الأسواق للبيع والشراء،

---

(1) العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص460 ـ 461، وانظر: ص474.

(2) العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، ص348.

(3) العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، ص460 ـ 461.

(4) العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، ص142.

يقول:" وأمر الناس بمبايعتهم على ما يسومونه، وأن يعاوضونهم من الخيل والعدة بما يرومونه، وأقام لهم الأسواق، وعرض عليهم الأمتعة والأعلاق"[1] .

وكان الصليبيون أيضاً يعتمدون على الزراعة، التي تشكل لهم دخلاً ، عزَّز حملاتهم العسكرية، فهم يحتاجون إلى المزروعات لتغذية جنودهم ودوابهم، وعندما اجتاحت جيوش صلاح الدين قلعة الكرك، قامت بحرق غلاتها وقطع ثمارها[2]، كي يمنعوا العدو من هذا العنصر الحيوي في الحروب.

كما أن الصليبيين كانوا يهتمون بزراعة الأرض واستغلالها، وقد وصف العماد البساتين المثمرة عندما فتح المسلمون مدينة صيدا، يقول:" وهي مدينة لطيفة على الساحل، موروده المناهل، ذات بساتين، وأزهار ورياحين، وأشجار النارنج والاترنج، تعرب مسراتها لجُناتها عن أشجان الفرنج، فجسنا خلالها، وكل قلب مشغول خَلا لها، وراقتنا وشاقتنا تلك الحالة والحلية، وقرتنا بما اشتهينا من فواكهها تلك القرية"[3].

أما عن العملة التي استخدمها الصليبيون في معاملاتهم، فقد ذكر العماد استخدامهم للدنانير الصّورية[4]، وذكر أن أحد مقدميهم قد افتكته أمه بخمسة وخمسين ألفاً من الدنانير الصورية[5].

وبسبب طول أمد القتال، فقد ساءت لديهم الأوضاع الاقتصادية في بعض الأحيان، وصور العماد ما يتعرضون له من أزمات اقتصادية يكون لها الأثر الكبير عليهم، ومن ذلك وصفه لغلاء الأسعار وتأثير ذلك عليهم، يقول:" وغلت الأسعار عند الفرنج واستعرت الغلل، وأعلَّهم ما عراهم وعرتهم العلل، وباؤوا بالوباء، وبلوا من البلاء، وغلوا من الغلاء، وتضوروا من الضراء، وشق مرائرهم استمرار الشقاء، وعمّت

---

(1) العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص390.

(2) العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، ص191.

(3) العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، ص103.

(4) الدنانير الصورية: هي دنانير يؤتى بها من البلاد الإفرنجية والروم، معلومة الأوزان، وهذه الدنانير مشخَّصة، على أحد وجهيها صورة الملك الذي تضرب في زمنه، وعلى الوجه الآخر صورتا بطرس وبوليس الحواريين، صبح الأعشى، 3/ 437.

(5) العماد الأصفهاني، البرق الشامي، 166/3.

المجاعة الجماعة، وعدموا الطاعة والاستطاعة، وزاد جوعهم، وزال هجوعهم، وقصرت عن القرار بوعهم، وأمحلت ربوعهم، واستحال رتوعهم"[1].

ويبدو أن ارتفاع الأسعار، كان يدفع الفرنجة للهروب إلى المسلمين، طلبا للطعام وخوفا من الهلاك، وفي وصف ذلك يقول العماد:"وهرب إلينا منهم عصبة بعد عصبة، وقد بادوا من الضعف البادي، وأعداهم الضر العادي، فمن سألناه عن مقتضى فراره، ومقض قراره، يخبر أنه طواه الطوى، فنوى النوى حين التوى....، وكانت الغرارة من الغلة قد بلغت أكثر من مائة دينار، والسعر من الزيادة لديهم في استعار....، فقبلناهم وأنفقنا فيهم، وألفناهم بما يكف ضررهم ويكفيهم"[2].

---

[1] العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص439.

[2] العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، ص440، وانظر: ص259.

الفصل الخامس

الدراسة الفنية

1.5 الشعر

1.1.5 البناء الفني

يرى النقّاد والأدباء أن القصيدة العربية تتشكل من هيكل محدد، يقوم على عدد من المقومات، تتلاقى وتتكامل فيما بينها لإقامة ذلك البناء، ولعل أبرز هذه المقومات، المطلع والمقدمة والخاتمة[1]، واشترطوا على الشاعر أن يجتهد في تحسين الاستهلال والتخلص وبعدهما الخاتمة، فإنها المواقف التي تستعطف أسماع الحضور وتستميلهم إلى الإصغاء[2].

وأول مقومات هذا البناء في القصيدة العربية المطلع أو الابتداء، وحريّ بالشاعر أن يحسن ابتداء قصيدته، لأنه أول ما يقع في السمع من الكلام[3]، فإذا كان حسناً بديعاً ومليحاً رشيقاً، كان داعية إلى الاستماع لما يجيء بعده من الكلام، ولأن حسن الافتتاح داعية الانشراح ومطيّة النجاح، فإن الشعر قفل أوله مفتاحه[4]، لذا فقد اهتم الشعراء بمطالع قصائدهم، وتأنقوا في تدبيجها، كي تكون متناسبة مع موضوع القصيدة.

وفيما وصلنا من شعر العماد الأصفهاني، الذي يصور الصراع بين المسلمين وأعدائهم، لا يخفى أن شعر العماد الحربي، من وصف للحروب الدائرة وما نتج عنها،

---

(1) بكّار، يوسف، 1979م، بناء القصيدة العربية، دار الثقافة ــ القاهرة، ص267.

(2) الجرجاني، علي بن عبد العزيز(ت 392هـ)،الوساطة بين المتنبي وخصومه، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم وعلي محمد البجاوي، دار القلم ــ بيروت، ص47.

(3) العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله(ت 395هـ)، 1952م، الصناعتين، تحقيق علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية ــ القاهرة، ط1، ص431.

(4) القيرواني، أبو الحسن بن رشيق(ت 456هـ)، 1972م، العمدة في محاسن الشعر، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل ــ بيروت، ط4، ج1، ص217.

قد ارتبط بالمدح والرثاء والوصف، فجاء الحديث عن الحرب في سياق مدح أبطال الجهاد، والتهنئة بانتصاراتهم والتغني ببطولاتهم، ورثائهم وتعداد مناقبهم.

وعند النظر في قصائد العماد الأصفهاني، تطالعنا افتتاحياته لهذه القصائد، ويظهر مدى ترابطها مع موضوع القصيدة، ومن الأمثلة على مطالعه الحسنة وحسن الاستهلال، قوله في تهنئة نور الدين زنكي بملك مصر، حيث يتناسب المطلع مع مدح القائد وتهنئته بهذا الملك، والإشادة بالوحدة الإسلامية التي ستحقق النصر للمسلمين، يقول العماد:

بملكِ مصر أهنِّي مالكَ الأُمَـمِ   فاسعدْ وأبشرْ بنصرِ اللهِ عن أَمَمِ[1]

ومن ذلك أيضاً مدحه أسد الدين شيركوه، والإشادة بدوره في توحيد مصر، يقول:

بلغتَ بالجـدِّ مـا لا يبلغُ البشـرُ   ونلتَ ما عجزتْ عن نيلـهِ القُـدرُ[2]

ومن المطالع الموفقة التي تتناسب مع مقتضى الحال، قوله في مدح صلاح الدين الأيوبي، والإشادة بالنصر الذي حققه، بفتحه لمدينة بعلبك، يقول:

بفتوحِ عصركَ يفخرُ الإسلامُ   وبنورِ نصركَ تشرقُ الأيَّامُ[3]

وقوله أيضاً في انتصارات نور الدين:

عقدتْ بنصركَ رايـةُ الإيمان   وبدتْ لعصرك آيةُ الإحسانِ[4]

وقوله كذلك في التهنئة والبشارة بفتح قلعة منبج، مادحاً نور الدين:

بُشرى الممالكِ فتحُ قلعةِ منبجٍ   فلْيَهنِ هذا النصرَ كلّ مُتوَّجِ[5]

ومن حسن الابتداء عند العماد الأصفهاني، ما قاله في رثاء أبطال الجهاد الإسلامي، حيث أظهر حاجة الأمة لهؤلاء الأبطال، وعبّر بصدق عن مصاب الأمة الجلل لفقدان بطلها، يقول في رثاء نور الدين زنكي:

---

[1] العماد الأصفهاني، الديوان، ص380.

[2] العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، ص169.

[3] العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، ص377.

[4] العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، ص410.

[5] العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، ص102.

الدِّيــنُ في ظلمٍ لغيبةِ نــورهِ   والدَّهرُ في غمٍّ لفقدِ أميـرهِ[1]

وقوله في رثاء صلاح الدين الأيوبي:

شملُ الهُدى والملكِ عمَّ شتاتُــه   والدَّهرُ ساءَ وأقلعتْ حسناتُــهُ[2]

وقوله في رثاء أسد الدين شيركوه:

ما بعدَ يومـكَ للمعنَّى المُدنـفِ   غيرُ العويلِ وحسرةِ المتأسِّـفِ[3]

ويبدو أن العماد في مقدمات قصائده، قد راوح في مطالعها وفقاً لما يقتضيه الحدث، فكان يبدأ بعض قصائده ويستهلها بالغرض الأساسي، متخلصاً من المقدمات التقليدية، ولعل ذلك جاء تعبيراً عن الأحداث، وإثارة للعواطف المشحونة الخاصة بها.

أما النوع الآخر من القصائد، فكان يستهله بمقدمة غزلية ترتبط بالموضوع الأساسي للقصيدة، ومن هذه المقدمات الغزلية عند العماد، ما مدح به السلطان صلاح الدين الأيوبي كرمز للبطولة الإسلامية، وهجا المتخاذلين والمتعاونين مع الأعداء أمثال شاور، يقول:

كيـفَ قلتـمْ في مقلتيــهِ فتـورُ   وأراهـا بـلا فتـورٍ تجـورُ

لو بصرتمْ بلحظهِ كيفَ يسبي   قلتمْ ذاكَ كاسرٌ لا كسيرُ[4]

واستهل مقدمة قصيدته التي قالها في مدح صلاح الدين، وتهنئته بفتح بيت المقدس، والإشادة بالنصر الذي حققه الجيش الإسلامي على عدوه وفتكه به، بمقدمة غزلية يقول في مطلعها:

أطيبُ بأنفاسٍ تطيبُ لكمْ نفساً   وتعتاضُ من ذكراكمُ وحشتي أُنسا

وأسألُ عنكـم عافيــاتٍ دوارسٍ   غدتْ بلسانِ الحـالِ ناطقـةً خَرسَـا[5]

وكذلك قوله في فتح القدس، مخاطباً حسام الدين عمر بن محمد بن لاجين، ابن أخت صلاح الدين، يقول:

---

[1] العماد الأصفهاني، الديوان، ص212.

[2] العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، ص86.

[3] العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، ص298.

[4] العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، ص177.

[5] العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، ص230.

استوحشَ القلبُ مذْ غبتم فما أنِســا وأظلمَ اليومُ مُذ بنتم فمــا شَمسَــا

ما طبتُ نفساً ولا استحسنتُ بعدكمُ شيئاً نفيساً ولا استعذبتُ لي نَفَسا[1]

وقد أحسن العماد التخلص من مقدماته الغزلية إلى غرضه الرئيس، ومن هذه المواقف التي أحسن العماد التخلص فيها وانتقل إلى المدح، قصيدته التي قالها في مدح نور الدين، حيث انتقل من المقدمة الغزلية من خلال ذكره لسبب ابتعاده عن الأحبة في العراق، وانشغاله بخدمة نور الدين، وفي ذلك يقول:

ما اعتياضي عن حبِّهم يعلمُ الَّــ ــهُ تعالى إلّا بحبِّ الجهادِ

واشتغالــي بخدمــةِ الملــكِ العـــا دلِ محمود الكريــمِ الجــوادِ

أنــا منــهُ علـــى سريــرِ سُــرُوري راتعُ العيشِ فــي مَراد مُرادي[2]

ويتخلص العماد من المقدمة الغزلية في القصيدة التي مدح بها السلطان صلاح الدين الأيوبي وهنأه فيها بفتح القدس، من خلال إظهاره للحب الكبير الذي يكنّه لصلاح الدين، يقول:

فلا تحبسُوا عنّــي الجميــلَ فإنَّنــي جعلتُ على حبِّي لكم مُهجتي حَبسَا

رأيتُ صلاحَ الدِّين أفضلَ من غدا وأشرفَ من أضحى وأكرمَ من أمسَى[3]

ومن المواقف الأخرى التي يحسن العماد التخلص فيها من الغزل إلى المدح، قوله في مدح محمد بن شيركوه، ابن عمّ صلاح الدين، فقد ربط بين المُحب العاشق والممدوح، ويربط بذلك بين الغزل والمدح، فيقول:

صبٌّ بصبِّ الدَّمــعِ محترقُ الحشـا خطرتْ ببالِ بلائــهِ الأخطــارُ

يـذري الدُّمــوعَ كأنَّهـــنَّ عـــوافٌ لابْـنِ المُمَلَّــكِ شيركـوه غـزارُ[4]

أما حسن الانتهاء أو الخاتمة، فهي آخر ما يطرق الأسماع ويعلق بالأذهان، ويجب أن يكون حسن الانتهاء محكم الصياغة، بديع المعنى، مؤذناً بخواتم الكلام[5].

---

(1) العماد الأصفهاني، الديوان ، ص227.

(2) العماد الأصفهاني، المرجع نفسه ص125.

(3) العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، ص231.

(4) العماد الأصفهاني، المرجع نفسه ، ص163.

(5) ابن رشيق، العمدة، 1/ 239.

ومن خواتيم العماد الموفقة، ما ختم به قصيدة في مدح نور الدين، فاختتمها بالدعاء له بطول البقاء والعمر المديد، يقول:

فابقَ لنَـا يـا ملكـاً بقـاؤهُ   في كلِّ عامٍ للرَّعايا عيدُها

في نعمةٍ جديدةٍ سعودُهــا   ودولـــةٍ سعيــدةٍ جدودُهــا[1]

وقد تكون الخاتمة متعلقة بروح النصر، كما في خاتمة قصيدته التي مدح بها صلاح الدين وهنأه بفتح القدس، يقول:

وقـدْ طابَ ريّانـاً على طبريَّةٍ   فيا طيبَها رِيَّاً ويا حُسنها مرسَى[2]

وعندما يموت البطل، كان العماد يرثيه بدموع غزار، وفي خاتمة قصيدة الرثاء، يدعو العماد بالرحمة والمغفرة، والتّصبر على فقدان البطل، ومن ذلك قوله في رثاء نور الدين:

وسكنتَ عِلِّيِّين في فردوســهِ   حلْفَ المسرَّةِ ظافراً بأجـورِهِ[3]

وقوله في رثاء صلاح الدين:

فسقاكَ رضوانُ الإلــهِ لأنَّني   لا أرتضي سُقيا الغمامِ الهاطلِ[4]

وقوله في رثاء أسد الدين شيركوه:

لا تستطيعُ سوى الدّعاءِ فكلُّنا   إلَّا بما في الوسعِ غيرُ مُكلَّفِ[5]

أما فيما يختص بالوحدة الموضوعية في القصيدة عند العماد الأصفهاني، فيبدو أنه كان يحافظ على الوحدة الموضوعية من خلال الربط بين عناصر القصيدة، من حسن استهلال ومقدمة وحسن التخلص وخاتمة، فهذه العناصر تجتمع فيما بينها لتشكل البناء العام للقصيدة العربية.

---

(1) العماد الأصفهاني، الديوان، ص146، وانظر: ص418.

(2) العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، ص236.

(3) العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، ص216.

(4) العماد الأصفهاني، المرجع نفسه ، ص340.

(5) العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، ص300.

وعندما يستهل العماد قصيدته بمقدمة، يتحدث فيها عن القائد المسلم، ويصور جيشه وفتكه بالأعداء، ويدعو إلى الوحدة الإسلامية وطرد المحتل، كان يرمي إلى إبراز البطولة الإسلامية والتغني بانتصاراتها، فهو الغاية التي كان يهدف إلى إبرازها.

وأما الوزن الشعري الذي اعتمد عليه العماد في بناء قصيدته، فقد التزم أوزان البحور العربية التي وضعها الخليل، والتي نظم على أوزانها الشعراء، فنظم شعره على البحور والأوزان الطويلة[1]، وكذلك الأوزان القصيرة في بعض الأحيان[2].

ولم يخرج العماد عن ذلك إلّا في نظمه للرباعيات أو الدوبيت، تلبية لطلب القائد نور الدين زنكي، ورغبة منه في تجديد النشاط، ودفع النفس إلى خوض غمرات الجهاد، فهي أشبه بالأناشيد التي تؤثر في النفس وتحفزها على حب الجهاد والتعلق به[3]، كقوله:

لا راحةَ في العيشِ سوى أنْ أغزُو　　　سيفي طرباً إلـى الطُّلـى يهتزُّ

فـي ذلِّ ذوي الكفـرِ يكـونُ العـزُّ　　　والقدرةُ في غيـرِ جهادٍ عَجزُ[4]

2.1.5 اللغة والأسلوب

اهتمَّ النقّاد بلغة الشعر، وربطوا بين اللفظ والمعنى؛ لأن كلاً منهما متمم للآخر في العمل الأدبي، " فاللفظ جسم وروحه المعنى، وارتباطه به كارتباط الروح بالجسم، يضعف بضعفه، ويقوى بقوته"[5]،" وعلى الشاعر الحاذق أن ينتقي أرقى الألفاظ وأفضلها حتى تساعده في أداء المعنى وإتمامه، فلا يصح أن يكون المعنى صائباً، واللفظ فاتراً ركيكاً، وفي ذلك مدعاة إلى استهجانه وذمه ورفضه"[6].

---

(1) انظر الأمثلة في الديوان: ص79، 86، 123، 159، 169، 230.

(2) انظر الأمثلة في الديوان: ص114، 173، 334.

(3) أحمد بدوي، الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية، ص536.

(4) العماد الأصفهاني، الديوان، ص223.

(5) ابن رشيق، العمدة، 1/ 124.

(6) العسكري، الصناعتين، ص59.

وعلى الشاعر أن يتقن الربط بين أسلوبه وموضوعات شعره، لأن أسلوب الشاعر "هو الطريقة الخاصة التي يصوغ فيها الكاتب أفكاره، ويبين بها ما يجول في نفسه من العواطف والانفعالات"[1]، كما اشترط النقاد حسن الربط بين الأسلوب وغرض القصيدة، فلكل مضمون ألفاظه الخاصة به، فألفاظ المديح الجزلة لا تستعمل في غرض الغزل الذي يحتاج إلى ألفاظ رقيقة سهلة[2].

وبما أن الأسلوب هو الطريقة التي يعبر بها الشاعر عن مشاعره وأحاسيسه، ضمن ما يناسبها من ألفاظ وعبارات تؤدي المعاني، فقد كان العماد الأصفهاني يجتهد في اختيار ألفاظه للوصول إلى درجة عالية من التوافق والتناسب بين الألفاظ والمعاني، لكن انصرافه إلى اللفظ على حساب المعنى، أغرق شعره في بحر من المحسنات اللفظية والمعنوية، وهي سمة ظهرت بشكل جلي في عصره، حتى سمي هذا العصر عصر البديع[3].

ويبدو أن العماد كان حريصاً على انتقاء ألفاظه، في مدحه للأبطال ورثائهم، ووصف المعارك والتغني بالانتصارات، ليحقق بذلك أعلى درجة من التأثير في نفس السامع.

ولا عجب أن يتسم أسلوبه بالقوة والجزالة في هذا النوع من القصائد، حتى لو ابتدأ بمقدمة غزلية رقيقة، فهو شعر يصور صراعاً، وعليه أن ينهض بالدور الذي أنيط به، ومن ذلك تصويره لمعركة بين نور الدين والفرنجة، فنجده يقول:

وعلى غناءِ المشرفيَّةِ في الطُّلى   والهامِ رقصُ عوامـلِ المُرَّانِ
وكأنَّ بيـنَ النَّقعِ لمعُ حديدِهـــا   نارٌ تألَّق من خلالِ دخـــانِ
في مأزقٍ وردُ الوريـــد مكفَّـــلٌ   فيــه بريِّ الصَّارمِ الظَّمـــآنِ
غطَّى العجاجُ بهِ نجومَ سمائــهِ   لتنوبَ عنها أنجُمُ الخُرْصـانِ

---

[1] بدوي، أحمد أحمد، 1994م، أسس النقد الأدبي عند العرب، دار نهضة مصر ـ القاهرة، ص451.

[2] ابن رشيق، العمدة، 1/ 116.

[3] موسى باشا، عمر، 1989م، الأدب في بلاد الشام، دار الفكر ـ بيروت، ط1، ص675، وانظر: أحمد بدوي، الحياة الأدبية ، ص111.

يمتاحُ من قلبِ القلوبِ دماءها   بالسُّمرِ مَتحَ الماءِ بالأشطانِ[1]

وكان العماد في تصويره للصراع المحتدم مع العدو المحتل، يميل إلى استخدام الألفاظ التي تتعلق بأجواء الحرب وما يتصل بها من ذكر للأسلحة وأدوات الحرب، ووصف للجيوش وخططها الحربية، وكل ما يتعلق بالجو العام للمعركة، وهو ما يتناسب مع جو الحرب، فعلى سبيل المثال، كان يختار الأفعال التي توحي بضرورة الاستمرار في تحرير البلاد والمقدسات، مثل(سِر، افتح، هُد، خلّص)[2] و(طهر)[3]، و(اقصد، دمر، اجتث)[4]، وتلك الأفعال التي تصور هزيمة الأعداء، مثل(طردتهم، كسرتهم، عكستهم، نكستهم)[5]، ولو تتبعنا الألفاظ التي تتعلق بالجو العام للحرب، لطال بنا المقام، كيف لا، والحديث عن شاعر عاصر الحرب وعايشها ولازم أبطالها.

وكثيراً ما كان العماد يصف بطله بألفاظ تتصل بالحرب وتصوير الصراع القائم، فهو ورع ومجاهد وعادل وقاهر الشرك وفاتح القدس ومحررها، أما العدو فهم عبَّاد الصليب وأهل الشرك وأمة النار، وكلّها ألفاظ تعبر عن الحرب، وتثير الحماسة في النفوس وتستنهض الهمم.

وكان العماد يميل إلى التنويع في أساليبه الشعرية، عندما يتناول الحديث عن أطراف الصراع العسكري، فيظهر شخصية البطل المسلم ودوره في تحقيق النصر، ويظهر الخطر الصليبي المحدق بالأمة، ومن هذه الأساليب استخدامه لصيغة الخطاب، فكان يخاطب البطل والقائد والفارس والجندي، مما يثير حماس المجاهد ويحثه على ضرورة التصدي للعدو، ومن ذلك مدحه لأسد الدين شيركوه، فيخاطبه قائلاً:

بالجدِّ أدركتَ مـــا أدركتَ لا اللّعبِ   كـــمْ راحةٍ جنيتْ مـــن دوحةِ التَّعبِ[6]

---

(1) العماد الأصفهاني، الديوان، ص412.

(2) العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، ص304.

(3) العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، ص382.

(4) العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، ص233.

(5) العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، ص234.

(6) العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، ص79.

وقوله مخاطباً نور الدين:

اسلـمْ لبكـرِ الفتـوحِ مُفترِعـاً   ودمْ لملـكِ البـلادِ منتزِعـا[1]

وقوله مخاطباً صلاح الدين:

افخرْ فإنَّ ملوكَ الأرضِ أذهلهـمْ   ما قـد فعلـتَ فكـلٌّ فيـكَ مفتكـرُ

سهرتَ إذْ رقدوا بلْ هجتَ إذ سَكنوا   وَصُلتَ إذ جبنوا بلْ طلتَ إذ قصُروا[2]

ويبدو أن العماد قد أكثر من التكرار في شعره؛ تأكيداً للكلام وتعظيماً له، فكان يقلّب الفكرة الواحدة في قوالب لفظية متعددة، وهذا ما كان يدفعه للمجانسة والمماثلة بين الحروف، ومن ذلك تكراره لكلمة القدس، وهو ما يوحي بالمكانة العظيمة التي تحتلها مدينة بيت المقدس في النفوس[3]، وفي ذلك يقول:

فلا يستحقُّ القدسَ غيرُكَ في الوَرى   فأنتَ الذي من دونِهم فتحَ القدسَا

ومـنْ قبلِ فتحِ القدسِ كنتَ مقدَّسـاً   فلا عدمتْ أخلاقُكَ الطُّهرَ والقدسَا[4]

وعندما شعر العماد بالمصاب الجلل نتيجة لموت البطل، نجده يكرر أداة الاستفهام غير مرة؛ ليؤكد على حجم هذه الفادحة، ومن ذلك قوله في رثاء نور الدين:

منْ ينصرُ الإسلامَ في غزواتِـهِ   فلقدْ أُصيبَ بركنهِ وظهيـرِهِ

منْ للفرنجِ ومنْ لأسرِ ملوكِـها   منْ للهُدى يبغي فَكاكَ أسيرِهِ

منْ للبلادِ ومنْ لنصرِ جيوشِـها   منْ للجهادِ ومنْ لحفظِ أُمورِهِ

منْ للفتوحِ محـاولاً أبكارَهـا   برواحـهِ فـي غـزوهِ وبكورِهِ[5]

وقد تجاوز العماد التكرار في الألفاظ إلى المعاني، ومن ذلك تكراره لوصف رعب الأعداء وخوفهم من البطل، يقول:

أخفتَ الشِّركَ حتى الذُّعرُ منهمْ   يُرى قبلَ الوِلادةِ في الجَنيـنِ[6]

---

(1) العماد الأصفهاني، الديوان، ص285.

(2) العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، ص170.

(3) عبد الجليل عبد المهدي، بيت المقدس في أدب الحروب الصليبية، ص260.

(4) العماد الأصفهاني، الديوان، ص232.

(5) العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، ص213.

(6) العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، ص429.

وقوله أيضاً:

أماتَهـا رعبُـكَ فـي حصونِهـا كأنَّمـا حصونُهـا لحودُهـا[1]

وقد يعمد العماد إلى تكرار حروف بعينها، ليحدث تناغماً صوتياً، يضفي على القصيدة جرساً موسيقياً خاصاً، ومن ذلك تكراره لحرف السين في قصيدته التي مدح بها السلطان صلاح الدين، وهنأه فيها بفتح القدس، ومنها:

وإنَّ سروري كنـتُ أسمـعُ حسَّـهُ فمذْ سرتُ عنكمُ ما سمعتُ له حِسَّا

نزعتَ لباسَ الكفرِ عن قدسِ أرضِها وألبستَها الدِّيـنَ الذي كشفَ اللّبسَـا

كسرتهـم إذْ صحَّ عزمـكَ فيهـمُ ونكسْتَهُـم إذْ صارَ سهمُهُـم نَكسـا[2]

وقوله كذلك يمدح صلاح الدين، مكرراً حرف الحاء:

حمى حوزةَ الدِّيـنِ الحنيفِ بحوزِهِ من الخالقِ الحسنى ومن خلقهِ الشُّكرا[3]

ومن أجل التنويع في طرائق التعبير، وتحقيق المزيد من التأثير في السامعين، كان العماد يميل إلى التنويع في الظواهر الأسلوبية، فجاءت لتخدم أغراضه الشعرية، ومن هذه الظواهر المبالغة، فكان يبالغ في أوصافه، خاصة عندما يكون الحديث عن تعظيمه لشخصية البطل، أو عندما يصف المعركة، ويصور هزيمة الأعداء، ومن ذلك قوله في مدح صلاح الدين:

رأيتُ صلاحَ الدِّينِ أفضلَ من غدا وأشرفَ من أضحى وأكرمَ من أمسَى[4]

وقوله في وصف المعركة:

وسالَ بحـرُ نجيعٍ فـي مقامِ وغىً بـهِ الحديـدُ غمـامٌ والـدَّمُ المطـرُ[5]

وقوله في وصف هزيمة الفرنج:

جيشُ الفرنـجِ إذا لاقى سوابقَهـم كأنَّـهُ جبـلٌ بالرِّيـحِ منسـوفُ[6]

---

(1) العماد الأصفهاني، الديوان، ص145.

(2) العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، ص230 ـ234.

(3) العماد الأصفهاني، المرجع نفسه ، ص160.

(4) العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، ص231.

(5) العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، ص171.

(6) العماد الأصفهاني، المرجع نفسه ، ص297.

واستخدم العماد الأسلوب الخبري، لتصوير البطولات والمعارك الإسلامية، وتثبيتها في ذاكرة السامع، ومن ذلك قوله يمدح نور الدين:

كـمْ ظهـرِ شـركٍ قصمنَـــا   وعطـــفِ عـــزٍّ هززْنَــــــا
وكـــمْ مراكـــزِ ملـــكٍ   فيهـا الرِّمـــاحَ ركزنَــــا
وكـــمْ عـــدوٍّ سلبنَـــا   هُ ملكَـــهُ وابتززْنَـــا[1]

وعند رثائه للأبطال، كان يلجأ إلى أسلوب الاستفهام للتعبير عن فجيعة الأمة الإسلامية، ومن ذلك قوله في رثاء صلاح الدين الأيوبي:

باللهِ أيـنَ الناصرُ الملكُ الذي   للهِ خـالصـةً صفـتْ نيّـاتــهُ
أينَ الذي شرفَ الزَّمانُ بفضلهِ   وسمتْ على الفُضلاءِ تشريفاتـهُ
أينَ الذي عنتِ الفرنجُ لبأسهِ   ذلاً ومنهـا أدركـــتْ ثاراتــهُ
منْ للثغورِ وقدْ عداهَا حفظـهُ   من للجهادِ ولم تعدْ عاداتـهُ
أضجرتَ منَّا أم أنفتَ فلم تكنْ   ممَّن تصابُ لشدَّةٍ ضجراتهُ[2]

أما إذا كان الحديث عن الحثّ على الجهاد وتحرير المقدسات، فإن العماد يميل إلى الطلب والالتماس، ومن ذلك طلبه من صلاح الدين أن يفتح القدس، ويطهرها ويخلصها من الكفر، يقول:

فسرْ وافتحِ القدسَ واسفكْ بـهِ   دماءً متى تجرهـا ينظـفِ
وأهـدِ إلى الأسبتـارِ البتّـار   وهُدّ السُّقوفَ على الأسقفِ
وخلّص من الكفرِ تلكَ البلادَ   يخلِّصكَ اللهُ فـي الموقـفِ[3]

ومن ذلك أيضاً، حثه لنور الدين على غزو الفرنج وتطهير القدس من رجسهم، يقول:

أُغزُ الفرنــجَ فهـذا وقـتُ غزوهِــم   واحطِـم جموعَهـمُ بالذَّابـلِ الحطِمِ
وطهِّر القدسَ من رجسِ الفرنجِ وثبْ   على البغاثِ وثوبَ الأجدلِ القَطِمِ[4]

---

[1] العماد الأصفهاني، الديوان، ص407.

[2] العماد الأصفهاني، المرجع نفسه ، ص87 ـ 91.

[3] العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، ص304.

[4] العماد الأصفهاني، المرجع نفسه ، ص382.

أما أسلوب النداء، فنجد أن العماد استخدمه فيما يختص برثاء البطل المسلم، بما يعبر عن الحسرة والتفجع، ومن ذلك ما قاله في رثاء صلاح الدين الأيوبي:

يا وحشتاً للبيضِ في أغمادِهـا　　　لا تنتضيها للوَغى عزماتــهُ

يا وحشةَ الإسلامِ يـومَ تمكنـتْ　　　في كلِّ قلبٍ مؤمنٍ روعاتــهُ[1]

ويقول أيضاً مخاطباً حملة نعش نور الدين:

يا عابرينَ بنعشِــهِ أنشقتُـــم　　　من صالحِ الأعمالِ نشرَ عبيرهِ[2]

وعندما تفقد الأمة بطلها، كان العماد يرثيه بدموع غزار، ويستخدم أسلوب الدعاء، الذي يشمل المغفرة والرحمة، ومن ذلك قوله في رثاء نور الدين:

حيّاكَ معتَّلُ الصَّبا بنسيمــهِ　　　وسقاكَ مُنهلٌّ الحيــا بدُرورهِ

وسكنتَ علِّيِّينَ في فردوســهِ　　　حلفَ المسرّةِ ظافـراً بأجورهِ[3]

وقوله في رثاء صلاح الدين، ويدعو له بالسّقيا، يقول:

فسقاكَ رضوانُ الإلــه لأنَّني　　　لا أرتضي سقيا الغمامِ الهاطلِ[4]

ومن المظاهر الأسلوبية التي شاعت في شعر العماد، استخدامه للمصطلحات، ومنها المصطلحات البلاغية، فقد استخدم كلمتي الإسهاب والإيجاز، ليصور عظمة الفتح والنصر الذي حققه صلاح الدين الأيوبي، يقول:

نصرٌ أعادَ صلاحُ الدِّينِ رونَقهُ　　　إيجازهُ ببليـغِ القـولِ إسهـابُ[5]

واستخدامه للمصطلحات التي تتعلق بالدين الإسلامي، مثل الشفع والوتر، كقوله في تهنئة نور الدين:

رومٌ بـــــهِ وفرنـــــجٌ　　　في شَفعهـــمْ لـكَ وتـرُ[6]

---

(1) العماد الأصفهاني، الديوان، ص89.

(2) العماد الأصفهاني، المرجع نفسه ، ص215.

(3) العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، ص215 ــ 216.

(4) العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، ص340.

(5) العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، ص75.

(6) العماد الأصفهاني، المرجع نفسه ، ص175.

ومن المصطلحات الإسلامية أيضاً، الأسانيد والمتون، وهي خاصة بالحديث النبوي الشريف، ومن ذلك مدحه لتقي الدين عمر، يقول في بني أيوب:

أسانيدُ السِّيادةِ عن عُلاهم   معنعةٌ مُصحّحـة المُتـونِ[1]

ومنها أيضاً، بيت الله، وأحكام الدين، وملائكة الرحمن، يقول

وعادتْ ببيـتِ اللهِ أحكـامُ دينـهِ   فلا بطركاً أبيقـتَ فيها ولا قسَّـا

جرى بالّذي تهوى القضاءُ وظاهرتْ   ملائكةُ الرَّحمـنِ أجنادَكَ الحُمسا[2]

كما استخدم العماد مصطلحات زراعية، كالحصاد والزرع، ومن ذلك تمجيده لهمة تقي الدين عمر، وشدة بأسه على أعدائه، فقد تركهم في أرض المعركة أشلاءً، كالزروع عند حصادها، يقول:

وقدْ غادرتَ أشلاءَ الفرنـجِ   كمحصودِ الزروعِ على الجريـنِ[3]

ولأن الصراع بين المسلمين وعدوهم الغاشم صراع عقائدي، فإن العماد كان يميل إلى ألفاظ غير عربية، تتعلق بديانتهم النصرانية، وبفرقهم العسكرية، وبألقاب ملوكهم وقادتهم، ومن ذلك ذكره لرجال الدين عندهم ، مثل البطرك والقس والأسقف، ومن ذلك قوله:

وعادتْ ببيـتِ اللهِ أحكـامُ دينـهِ   فلا بطركاً أبقيـتَ فيها ولا قُسَّـا[4]

وقوله أيضاً:

وأهـدِ إلى الأسبتـارِ البتّـار   وهُدّ السُّقوفَ على الأسقفِ[5]

ومنها أيضاً ما يتعلق برموز ديانتهم النصرانية، كالنقس والصليب، يقول:

وقدْ شاعَ في الآفاقِ عنك بشارةٌ   بأنَّ أذانَ القدسِ قد أبطلَ النقسَا[6]

---

(1) العماد الأصفهاني، الديوان، ص427.

(2) العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، ص232.

(3) العماد الأصفهاني، المرجع نفسه ، ص429.

(4) العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، ص232.

(5) العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، ص304.

(6) العماد الأصفهاني، المرجع نفسه ، ص232.

وقوله أيضاً:

نفى من القدسِ صلباناً كما نُفيت   مـن بيتِ مكـةَ أزلامٌ وأنصابُ[1]

وأورد العماد ألقاباً لقادتهم، كالبرنس والداوي والفريري والبارون، يقول:

يا طهرَ سيفٍ برى رأسَ البرنسِ فقد   أصابَ أعظمَ من بالشِّركِ قد نجسَـا[2]

وقوله: لمَّـا رأى الداويّ راوُنـداءَه   ولّى بطاعونٍ بغيرِ طعـانِ

طلبَ الفريريّ الفرارَ بطُلبِهِ   متباعداً من هلكهِ المتداني

بارُوا فبارونيُّهـــم بفنائـــهِ   مُودٍ وسيّدهـم أسيرٌ عــانِ[3]

كما ذكر العماد أسماءً لقادتهم، مثل" أرناط" و" هنفري"، يقول:

بعثتَ إمامَ أمّةِ النارِ نحوهـا   فزارَ إمامُ أرناطها ذلكَ الحبسَا[4]

ويقول: والهنفري مُذ هانَ فـرَّ مؤملاً   لسلامةٍ والهُونُ شأنُ الشَّاني[5]

3.1.5 الصنعة الفنية والبديع

البديع هو العلم الذي يعرف به وجوه تحسين الكلام، بعد رعاية المطابقة ووضوح الدلالة[6]، وقد شاع في عصر العماد الإسراف في استخدام المحسنات البديعية، وتبارى الشعراء في استخدامها، وظهر في هذا العصر ما يعرف بفن البديعيات[7].

وقد عُرف العماد بأنه من معلمي الصنعة[8]، وشارك أدباء عصره اهتمامهم بالبديع، فَراح يحشد في شعره ما استطاع من ألوانه[9]، حتى غدا لوحة من الزخرف.

---

(1) العماد الأصفهاني، الديوان، ص76.

(2) العماد الأصفهاني، المرجع نفسه ص229.

(3) العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، ص415 ـ 416.

(4) العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، ص236.

(5) العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، ص416.

(6) سلّام، محمد زغلول، 1964م، تاريخ النقد العربي، دار المعارف ــ مصر، ص26.

(7) عمر موسى باشا، الأدب في بلاد الشام، ص675.

(8) عبد الجليل عبد المهدي، بيت المقدس في أدب الحروب الصليبية، ص303.

(9) أحمد بدوي، الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية، ص111.

وأكثر ألوان البديع التي اشتهر بها العماد هو الجناس، فلا تكاد قصيدة من قصائده تخلو منه، حتى أن الصفدي وصفه بأنه قد رُزق السعادة في الجناس[1]، فكان غالباً على شعره وظاهراً فيه بشكل جلي، وورد في شعره بكل أشكاله وصوره، بل إنه برع في اشتقاقه من الأسماء والأفعال على حدٍّ سواء.

ويبدو أن شعر العماد يزخر بهذا اللون من المحسنات، فالأمثلة عليه أكثر من أن تحصى، ومن هذه الأمثلة، قوله في رثاء صلاح الدين:

لو كانَ في عصرِ النَّبي لأنزلتْ   فــي ذِكرهِ مـــن ذِكرهِ آيــاتُ[2]

وقوله: منْ في صدورِ الكفرِ صدرُ قناتهِ   حتى تـوارتْ بالصِّيـاحِ قناتُـهُ

لذَّ المتاعبَ في الجهادِ ولــم تكنْ   مـذْ عـاشَ قـطّ لذِاتِــه لذَّاتُـهُ[3]

وقوله في مدح نور الدين:

وجيــشٍ بـــــاغٍ هزمنــــــا   ورأسٍ عــــاتٍ همزنــــــا[4]

ومن أجل المجانسة، كان العماد يعمد إلى الاشتقاق، ومن ذلك قوله في مدح صلاح الدين: فــرَّ فريريُّـــــها وأزعجَـــــها   نــداءُ داويِّـــها تلهفــــــها

يمطرُ مطرانُهــا العذابَ كمـا   يرُدَى بهدِّ السُّقوفِ أسقُفُـها[5]

وكثيراً ما كان يلجأ العماد إلى الطباق، خاصة إذا كان الحديث عن تمجيد البطل ومقارنته بغيره من المتخاذلين عن الجهاد، أو في تصويره الصراع بين أمة الإسلام والصليبيين، ومن ذلك قوله يمدح نور الدين:

يُمسي ويُصبح في الجهادِ وغيرُه   يضحي رضيعَ سلافةٍ وضجيعَ دنْ

وبعـزةِ الإســلامِ منتصــراً حَـــــرٍ   وبذِلَّـــةِ الإشــراكِ منتقمــاً قمَـــنْ[6]

---

[1] الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك(ت 764هـ)، 1975م، الغيث المنسجم في شرح لامية العجم، دار الكتب العلمية ـ بيروت، ص192.

[2] العماد الأصفهاني، الديوان، ص89.

[3] العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، ص87.

[4] العماد الأصفهاني، المرجع نفسه ، ص407.

[5] العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، ص310.

[6] العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، ص421.

وقوله يمدح صلاح الدين:

فـرحَ العـدوُّ بجمعـهِ ولقيتـــهُ فتحولـــتْ أحزانُـــهُ أفراحُـــــهُ[1]

وقوله في رثاء صلاح الدين:

طلبَ البقاءَ لملكـهِ في آجـــلٍ إذْ لـم يثـقْ ببقـاءِ مُلـك العاجـــلِ
بحـرٌ أعـادَ البّـرَ بحـراً بـــرّه وبسيفــهِ فُتحـتْ بـــلادُ السَّاحـــلِ
منْ كان أهلُ الحقِّ في أيَّامــهِ وبعـزّه يـردون أهـــلَ الباطـــلِ[2]

ومما يرتبط بالطباق المقابلة، عندما يقارن العماد بين بطله وغيره من أمراء المسلمين، الذين تركوا الجهاد وانصرفوا عنه من أجل لذاتهم، ومن ذلك قوله في مدح نور الدين:

يـا أعظـمَ النَّـاسِ قـدراً وهـــلْ لغيـــركَ قـــدرُ
وساهـراً حيـنَ نامـــوا وقائمـــاً حيـــن قـــرُّوا
مـا اعتـدتَ إلّا وفـــاءً وعـــادةُ القـــومِ غـــدرُ
وفعـــلكَ الدَّهـــرَ غـــزوٌ للمشركـــينَ وقهـــــرُ[3]

ومن مظاهر البديع الأخرى، التي شاعت في شعر العماد التقسيم، فكان يقسم عباراته إلى أجزاء قصيرة متعادلة، طلباً للتناغم الموسيقي في شعره، ومن ذلك قوله في مدح صلاح الدين:

رأيتُ صلاحَ الدِّينِ أفضلَ من غدا وأشرفَ من أضحى وأكرمَ من أمسى
سجيتــهُ الحسنى وشيمتــهُ الرِّضــا وبطشتـــهُ الكبـرى وعزمتـهُ القعسَــا[4]

ومن ألوان البديع التي وردت في شعر العماد ما يسمى بالترصيع، وهو أن تكون كل لفظة من ألفاظ الفصل الأول مساوية لكل لفظة من ألفاظ الفصل الثاني في الوزن والقافية[5]، ومن ذلك قوله في رثاء صلاح الدين:

---

(1) العماد الأصفهاني، الديوان، ص109.

(2) العماد الأصفهاني، المرجع نفسه ،ص340.

(3) العماد الأصفهاني، المرجع نفسه ، ص175.

(4) العماد الأصفهاني، المرجع نفسه ، ص231.

(5) ابن الأثير، ضياء الدين نصر الله (ت 637هـ)، 1959م، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق أحمد الحوفي وبدوي طبانة، دار نهضة مصرـ القاهرة، ، القسم الأول، ص277.

والبشـــرُ منـــهُ تبجلـتْ أنـــــوارهُ   والوجـــهُ منـــهُ تـلألأتْ سَبَحاتُـــهُ[1]

وقوله: مسعــودةٌ غدواتـــــهُ محمـــودةٌ   روحاتــــهُ ميمونـــــــةٌ ضحواتـــــهُ[2]

وقوله في مدح صلاح الدين:

كـــرمٌ سابـــغٌ وجـودٌ عميـــمٌ   ونــدىً سائــــغٌ وفضــلٌ غزيـــرُ[3]

وإذا أراد العماد تعظيم بطله، فإنه كان يميل إلى استخدام التورية في شعره، فكان يربط بين شخصية بطله وشخصيات عظيمة في التاريخ الإسلامي، كما فعل حين ورّى بين شخصية صلاح الدين الأيوبي، وشخصية النبي يوسف عليه السلام، فقد التقى صلاح الدين مع أبيه وإخوته في مصر، كما حدث لسيدنا يوسف حين اجتمع مع أهله، وفي ذلك يقول:

عادَ من مصرَ يوسفٌ وإلى يعـ   ـقوبَ بالتهنئاتِ جاءَ البشيـرُ

عادَ منها بالحمدِ والحمدُ لِلّـــــ   ـــهِ تعالــى فإنَّــه المشكـورُ

فلأيوبَ من إيابِ صلاح الـــدِّ   يــنِ يــومٌ بــهِ تُـوفَّى النّــذورُ

وكـــذا إذْ قميصُ يوسفَ لاقـــى   وجــهَ يعقـوبَ عادَ وهو بصيرُ[4]

وقد يستخدم العماد التورية للتحقير والذم، ومن ذلك توريته للخليفة الفاطمي بفرعون، ومن ذلك قوله في مدح صلاح الدين الذي أنهى الوجود الفاطمي في مصر:

وعصرُ فرعونِـها انقضَى وغـدا   يوسُفُــها في الأمورِ محتكِـما[5]

وقوله كذلك في ذم الفاطميين، وقد استخدم التورية في ذمهم ووصفهم بأهل الضلال، يقول:

وظــلَّ أهــلُ الضّلالِ في ظللٍ   داجيـــةٍ مــن غيابــةٍ وعَمَـى[6]

---

(1) العماد الأصفهاني، الديوان، ص90.

(2) العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، ص87.

(3) العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، ص180.

(4) العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، ص183.

(5) العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، ص376.

(6) العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، ص377.

وهنالك ألوان أخرى من البديع، ترد في شعر العماد الذي يصور فيه الصراع بين المسلمين وأعدائهم، ولعل الحديث عنها سيطول، وذلك لكثرتها في ذلك العصر، وارتأيت اقتصارها على المشهور منها، ولأن الشعر الذي قاله العماد في تصويره للصراع الدائر آنذاك يصدر عن عاطفة جيّاشة، فقد ساهم استخدامه لألوان البديع، في توضيح المعنى وتأكيده، خاصة إذا ما عرفنا أن الحرب تحتاج إلى لغة خطاب قوية، يتفنن الشاعر في رسم كلماتها، متكئا على البديع، والذي يعدّ سمة من سمات العصر آنذاك.

4.1.5 التناص

التناص هو تأثر نص بنص آخر سبقه، ويعني أن يتضمن نصٌ أدبي ما، نصوصاً أو أفكاراً أخرى سابقة عليه، عن طريق الاقتباس أو التضمين أو التلميح أو الإشارة، أو ما شابه ذلك من المقروء الثقافي لدى الأديب[1].

وتعدّ مسألة التأثر بالنصوص الأخرى ظاهرة قديمة في الشعر العربي، فلطالما تأثر اللاحق بالسابق، سواءً باللفظ نفسه أو بالمعنى، ودخلت مسألة التأثر في مسميات عدة كالاقتباس والتضمين والسرقة.

ويبدو أن العماد الأصفهاني وكشعراء عصره، قد ارتبط ارتباطاً وثيقاً بتراث أمته، وظهر هذا الارتباط جلياً في شعره الذي يصور فيه الصراع بين أمتين متحاربتين، ولعل ثقافته الواسعة واطلاعه على مصادر التاريخ والأدب، قد أتاح له أن ينهل من هذا الموروث الأدبي، ويوظفه في شعره، للارتقاء به وربطه بالماضي المجيد للأمة الإسلامية.

ولأن القرآن الكريم يعدّ المثل الأكمل والأعلى في البلاغة العربية، فقد أفاد منه العماد، واقتبس من آياته الكريمة، ما يجوّد به صوره الشعرية، ومن هذا التأثر، تصويره المصير الذي آل إليه العدو الصليبي، فيقول:

بواقعةٍ رجّتْ بها الأرضُ جيشهمْ   دمـاراً كما بسَّتْ جبالهمُ بَسّـا[2]

---

[1] الزعبي، أحمد، 1995م، التناص نظرياً وتطبيقيا، مكتبة الكتّاني، إربد ـ الأردن، ط1، ص9.

[2] العماد الأصفهاني، الديوان، ص234.

وهو ينظر إلى قوله تعالى:﴿ إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا، وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا، فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا ﴾[1].

وقوله يمدح بني أيوب، ويصف شدة بأسهم في الحرب:

بسطوةِ بأسِهـم في كلِّ أرضٍ جبالُ الشِّـركِ عادتْ كالعهون[2]

وهذا المعنى مأخوذ من قوله تعالى:﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ﴾[3].

وحين يمدح صلاح الدين يقول:

فاشكر اللهَ حين أولاكَ نصـراً فهوَ نعمَ المولى ونعمَ النصيرُ[4]

وهو يقتبس قوله تعالى:﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾[5].

ويظهر تأثر العماد بالقرآن الكريم، من خلال ذكره بعضاً من القصص القرآني، ومن ذلك ربطه بين ذهاب صلاح الدين إلى مصر ولحاق أهله به، وبين قصة سيدنا يوسف عليه السلام واجتماعه بأهله، وذلك للتشابه بين الموقفين، وفي ذلك يقول:

ويستقرُّ بمصرَ يوسفُ وبهِ تقرُّ بعد التَّنائي عينُ يعقوبِ

ويلتقي يوسفُ فيها بإخوتهِ واللهُ يجمعهم من غيرِ تثريبِ[6]

ويربط العماد في مدحه لنور الدين، بين انتصار نور الدين على أعدائه، وبين قصة سيدنا داوود عليه السلام في صراعه مع جالوت وقضائه عليه[7]، والتشابه واضح في القضاء على أهل الضلال، يقول:

وإن بغى جالوتهـــا ضلالة فأنت في إهلاكه داوودهـــا[8]

---

[1] سورة الواقعة، الآيات 4 ــ 6.

[2] العماد الأصفهاني، الديوان، ص428.

[3] سورة المعارج، الآية 9 .

[4] العماد الأصفهاني، الديوان، ص182.

[5] سورة الأنفال، الآية 40.

[6] العماد الأصفهاني، الديوان، ص84، وانظر: سورة يوسف، الآيات 21 ــ 56).

[7] سورة البقرة، الآية 251.

[8] العماد الأصفهاني، الديوان، ص145.

ولم يكتف العماد بالتأثر بالقرآن الكريم والاقتباس منه، فنجده يتأثر أيضاً بالحديث النبوي الشريف، ومن ذلك قوله في مدح أسد الدين شيركوه:

وحينَ سرتَ إلى الكفّارِ فانهزمـوا نُصرتَ نصرَ رسولِ اللهِ بالرُّعبِ(1)

والعماد هنا ينظر إلى الحديث الشريف:" أُعطيت خمساً لم يعطهن أحدٌ من قبلي، نُصرت بالرعب مسيرة شهر...." (2).

وقد استفاد العماد من صور ومعاني الشعراء السابقين، فضمَّنها بعض أشعاره، ومن ذلك ما قاله في مدح نور الدين:

وهزمتَهـم باللأيِ قبـلَ لقائِهـم والرأيُ قبلَ شجاعـةِ الشُجعـانِ(3)

وهو مأخوذ من بيت المتنبي:

الرَّأيُ قبلَ شجاعــةِ الشجعــانِ هي أولٌ وهــو المحلُّ الثَّانـــي(4)

وفي مدحه لأسد الدين شيركوه، يحثه على القضاء على الدولة الفاطمية، وإحياء الخلافة العباسية، طلباً لتوحيد الأمة الإسلامية، يقول:

لا تقطعنْ ذنـبَ الأفعى وتُرسِلها فالحزمُ عندي قطعُ الرأسِ كالذَّنبِ(5)

وهو مأخوذ من بيت الشاعر الأسود بن يعفر النهشلي، الذي يقول فيه:

لا تقطعنْ ذنـبَ الأفعى وتُرسِلها إنْ كنتَ شهماً فأتبعْ رأسها الذَّنَبـا(6)

ويصف العماد كرم بطله نور الدين، فيشبهه بالبحر، يقول:

قدْ وردتُ البحرَ الخضَمَّ وخلّفـ ـتُ ملوكَ الدُّنيـا بهِ كالثِّمـــادِ(7)

وينظر العماد هنا إلى بيت المتنبي في مدح كافور الإخشيدي، والذي يقول فيه:

---

(1) العماد الأصفهاني، الديوان، ص81.

(2) البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري، باب الجهاد، ج4، ص 65.

(3) العماد الأصفهاني، الديوان، ص413.

(4) المتنبي، أبو الطيب أحمد بن الحسن(ت 354هـ)، الديوان، تحقيق عبد المجيد دياب، دار المعارف ــ القاهرة، ج3، ص257.

(5) العماد الأصفهاني، الديوان، ص81.

(6) البصري، صدر الدين علي بن الحسين، الحماسة البصرية، تحقيق مختار الدين أحمد، عالم الكتب ــ بيروت، ط3، ج1، ص88.

(7) العماد الأصفهاني، الديوان، ص125.

قواصِـــد كافــورٍ تــوارِك غيـــرِهِ   ومن قصدَ البحرَ استقلَّ السَّواقيا[1]

ويبدو أن شيوع ظاهرة المعارضات في أدب هذا العصر[2]، قد دفع العماد إلى معارضة غيره من الشعراء، ومن ذلك قوله في مدح أسد الدين شيركوه:

بالجدِّ أدركتَ ما أدركتَ لا اللعبِ   كـم راحةٍ جنيتْ من دولةِ التّعبِ[3]

وفيها يعارض قصيدة أبي تمام في فتح عمورية، والتي يقول في مطلعها:

السيفُ أصدقُ أنباءً مـن الكتـــبِ   فـي حدِّه الحدُّ بيـن الجدِّ واللعبِ[4]

وقد يلجأ العماد إلى المثل العربي، من أجل تأكيد فكرته في البيت الشعري، ومن ذلك وصفه لصاحب قلعة منبج، والذي وقف في وجه الوحدة الإسلامية، لكن البطل صلاح الدين الأيوبي حررها، وانتزعها منه، وفي ذلك يقول العماد:

ومـــن كـــانَ فـــي حصنِـــهِ   ومـــن قبـــلُ لـــم يخـــرُجِ

يقـــالُ لـــــهُ ليـــــسَ ذا   بِعُشِّـــــكَ قـــــمْ فادرُجِ[5]

وهو ينظر إلى المثل العربي القائل" ليس هذا بعشّك فادرجي"[6].

وقد تأثر العماد بالتاريخ الإسلامي، فربط بين معارك المسلمين الكبرى وفتوحاتهم، وبين المعارك التي خاضها أبطال الأمة ضد الصليبيين، ومن ذلك تشبيهه لفتح بيت المقدس وتطهيره على يد صلاح الدين، بفتح مكة في زمن النبي عليه الصلاة والسلام، وتطهيره للكعبة من الأصنام، وفي ذلك يقول العماد:

نفى من القدسِ صلباناً كما نُفيت   مـن بيـتِ مكـــةَ أزلامٌ وأنصـــابُ[7]

---

[1] المتنبي، الديوان، 17/4.

[2] عبد الجليل عبد المهدي، بيت المقدس في أدب الحروب الصليبية، ص291.

[3] العماد الأصفهاني، الديوان، ص79.

[4] أبو تمام،1951م، الديوان، شرح التبريزي، تحقيق محمد عزّام، دارالمعارف،مصر،ج1، ص51.

[5] العماد الأصفهاني، الديوان، ص103ــ104.

[6] يضرب هذا المثل لمن يرفع نفسَه فوق قدره. الميداني، أبو الفضل أحمد بن محمد (ت518هـ)، 1955م، مجمع الأمثال، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار المعارف ــ بيروت، ج2، ص181.

[7] العماد الأصفهاني، الديوان، ص 76.

ويشيد العماد بدور صلاح الدين في الدفاع عن مدينة الإسكندرية، عندما حاصرها الفرنجة، ويربط بين حصارها وحصار المدينة المنورة في زمن النبي عليه الصلاة والسلام، فيقول:

حاصَروها وما الذي بانَ من ذبِّـ ـكَ عنهـا وحفظهَـا محصورُ
كحصارِ الأحزابِ طيبــةَ قدمــاً وَبَنـي الهُـدى بهـــا منصورُ [1]

5.1.5 الصورة الشعرية

الصورة وليدة الخيال لدى الشاعر، فهي الأداة الأسلوبية التي تنفث السحر في الصورة الجمالية التي يبدعها الشعراء، وتتجلى فيما يبرزونه فيها من ضروب القول وأفانين الكلام[2]، وتنبع أهميتها من طريقتها في تقديم المعنى وتأثيرها في المتلقي[3].

وتشكل الصورة الشعرية ركيزة أساسية في بناء العمل الأدبي، لأنها أداة الشاعر في نقل أفكاره ومشاعره بشكل مؤثر، فهي تعبير عن الحالة النفسية التي يعاني منها الشاعر تجاه موقف من مواقفه مع الحياة[4]، ودونها يبقى العمل الأدبي جامداً، لا حياة فيه، فالتجربة الشعرية تُنقل من فكر إلى فكر بطريقة مباشرة، ولكنها تنتقل إلى الأذهان بطريق الخيال والتصوير[5].

وقد تنبه النقاد القدامى إلى القيمة الفنية للصورة الشعرية، متمثلة بأنواع علم البيان، التشبيه والاستعارة والكناية والمجاز، ورأوا أن أفضليتها تكمن فيما تحدثه من أثر في الأسماع والقلوب[6]، لذا فقد نوّع الشعراء في استخدام الصورة الشعرية، لتعبر عن أفكارهم وأحاسيسهم، ولتصل إلى المتلقي بأبهى حلة.

---

(1) العماد الأصفهاني، الديوان، ص 182.

(2) عمر موسى باشا، الأدب في بلاد الشام، ص658.

(3) عصفور، جابر، 1983م، الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب، دار التنوير ــ بيروت، ط3، ص328.

(4) الورقي، السعيد، 2003م، لغة الشعر العربي، دار المعارف ــ القاهرة، ص82.

(5) عبد الجليل عبد المهدي، بيت المقدس في أدب الحروب الصليبية، ص311.

(6) ابن رشيق، العمدة، 266/1.

والعماد كشعراء عصره، قد جعل البيان وسيلة لبناء صوره الشعرية، فكان يهتم بها أيما اهتمام، لتعبر عما يعتمل في نفسه من أحاسيس ومشاعر، ولتنقل للمتلقي صورة حية عن ميادين القتال، حتى غدا شعره الحربي حافلاً بالصور الشعرية.

وفي شعر العماد الذي يصور فيه الصراع المحتدم بين المسلمين وأعدائهم الصليبيين، يظهر اعتماده على البيان بصوره المختلفة، ليكوّن صورته الكلية لتجربته الشعرية، فنراه يصور مجريات المعركة ويصف أحداثها، ويصور القائد المسلم وجيشه وأسلحته، ويصور العدو والمصير الذي حلّ به، ووسيلته في هذا التصوير ضروب البيان من تشبيه وكناية واستعارة ومجاز، تأتلف هذه العناصر فيما بينها، لتشكل اللوحة الأم، وما يهمنا هنا صورة الحرب عند العماد الأصفهاني.

لقد استمد العماد صورة الحرب من عدة مصادر، أبرزها الجو العام للصراع الحربي بين الطرفين، إضافة إلى الموروث الديني والأدبي ومظاهر الطبيعة الحية.

وأول ما يستوقفنا في هذا المقام، صورة الجيش الإسلامي، وقد رسم العماد صورة توحي بكثرته وضخامته، فشبهه بالبحر والطوفان الذي أغرق الأعداء، يقول:

قدْ كانَ جيشكُمُ كبحرٍ زاخـــرٍ   واللابســـون جواشنـــــاً حيتانُهُ

فطَمى لهُلكهمُ عليهم بحركُـم   بأســاً وغــــرَّقَ فلكَهـــم طوفانُهُ[1]

وفي موضع آخر، يشبه هذا الجيش بالسيل المنحدر، الذي يأخذ كلَّ شيء في طريقه، وهذا الجيش يشوي لحوم فرائسه من الأعداء على نار السيوف، ويجعلها قرى للرماح، يقول:

ولــرُبَّ مَجْــرٍ رائـــعٍ حملاتُـهُ   وتخالُهُ في الزَّحفِ سيلَ مُدَهدهِ

يَقري العواسلَ من فرائسِ أُسدهِ   لحماً بنارِ البيضِ مُشعَلَـةً طُهِي[2]

وفي صورة أخرى للجيش الإسلامي، نجد العماد يستعين بمظاهر الطبيعة الجميلة، في رسم صورة حيّة لهذا الجيش، هذا الجيش المنتشر في المروج الخضراء على مدّ البصر، تتشابه فيه كثرة الألوان، من البنود الصفراء والحمراء، والأسلحة والدروع البيضاء، فكأنها روضة اشتملت على أنواع عدة من الأزهار، وهي منسقة

---

(1) العماد الأصفهاني، الديوان، ص436.

(2) العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، ص451.

ومنظمة فيما بينها، تعطي منظراً جميلاً لمن يراها، وهو ما ينطبق مع حال الجيش الإسلامي في تنظيمه وترتيب صفوفه، واستعداده الدائم للقتال، مما يوحي بالعظمة والعزة، وفي تصويره يقول:

لله جيــشٌ بالمـــــروجِ عرضتـهُ أُسدُ العريـــنِ رجالُــهُ ورماحُهُ
ومــن الحديــدِ سوابغــاً أبدانــــهُ ومــن المضاءِ عزائمــاً أرواحُهُ
روضٌ من الصّفرِ البنودُ وحُمرِها والبيضِ يُزهــى وردُهُ وأقــاحُهُ[1]

ومن الصور الأخرى التي رسمها العماد للجيش الإسلامي، صورة الجيش يرافقه جيش من الطيور، يقتات على جثث القتلى من الأعداء، ونتيجة لهذا الكثرة العددية يقع الصدام بين الفرسان وهذه الطيور، يقول

تزاحــمُ فرسانَــها الضَّاريــاتُ فتصدِمُ فيــها النُّســورَ النُّسورُ[2]

ويستمد العماد صورته أحيانا من واقع المعركة، فيصف غبار المعركة، وحركات الأسلحة من سيوف ورماح، فيقول:

وكـأنَّ بين النَّقـعِ لمـعُ حديدِها نارٌ تألَّقُ مـن خــلالِ دخـانِ
فـــي مأزقٍ وردُ الوريــدِ مكفَّلٌ فيـــه بريِّ الصَّــارمِ الظمــآنِ
غطّى العجاجُ بهِ نجومَ سمائهِ لتنوبَ عنها أنجُمُ الخرصــانِ[3]

ويبدو أن هذه الصورة تتشابه مع صورة بشار بن برد في وصفه للمعركة[4].

ولا يخفى أن هذا الوصف لا يختص بمعركة دون سواها، فهو ينطبق على كل المعارك، ولذلك كان العماد يميل إلى استخدام ألوان بيانية، تصور هول المعركة وشدتها، وتعظم النصر الذي تحقق على العدو، وتظهر الهزيمة النكراء التي تعرض لها، وفي ذلك يقول مصورا هروبهم من المعركة:

---

(1) العماد الأصفهاني، الديوان، ص111.

(2) العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، ص192.

(3) العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، ص412.

(4) يقول بشار: كأنَّ مثارَ النَّقعِ فوقَ رؤوسنا وأسيافنا ليلٌ تهاوى كواكِبه

بشار بن برد، 1954م، الديوان، بشرح محمد الطاهر بن عاشور، مطبعة لجنة التأليف والترجمة ــ القاهرة، ج1،ص318.

ولُّوا وقلبُ شجاعهمْ في صدرهِ   كالسَّيفِ يُرعدُ في يمينِ جبـــانِ

ولّى وجوهَهُم ســوادُ وجوهِهــمْ   نحــو السّــوادِ وآذنـــوا بهـــوانِ[1]

وفي تصويره لمجريات معركة حطين، يركز العماد أيضاً على تصوير ما آل إليه مصير الأعداء، فقد أثقلت الهزيمة كاهلهم، فرجّت الأرض من تحتهم، ورفضت الأرض أن تكون قبوراً لهم، وهل بعد ذلك هزيمة؟ يقول العماد:

بواقعــةٍ رجّــتْ بهــا الأرضُ جيشَهــم   دمــاراً كمــا بُسَّــتْ جبالهــمُ بسّـــــا

بطونُ ذئابِ الأرضِ صارتْ قبورَهــم   ولم ترضَ أرضٌ أنْ تكونَ لهم رَمسا[2]

ويعمد العماد في رسم صورته الشعرية إلى التشخيص والتجسيم، فيرسم المشهد رسماً تفصيلياً، ومن ذلك تصويره لقائد الفرنجة يوم حطين، وهو تصوير يمور بالسخرية والازدراء، يقول مصورا مقتله:

يا طهرَ سيفٍ برى رأسَ البرنسِ فقد   أصابَ أعظمَ من بالشِّرك قد نجَسا

وغاصَ إذْ طارَ ذاك الرأسُ في دمهِ   كأنـَّـه ضفدعٌ فــي الماءِ قد غطَسا

ما زالَ يعطسُ مزكومـــاً بغدرتــــهِ   والقتلُ تشميتُ من بالغدرِ قد عطَسا[3]

ومن صور التشخيص التي رسمها العماد، صورة الأسلحة تبكي حزناً على موت البطل صلاح الدين، فقد جعل منها العماد أشخاصاً يشاركون المسلمين أحزانهم لفقد بطلهم، يقول:

بكتِ الصَّوارمُ والصواهلُ إذ خلــتْ   مـــن سلِّهـــا وركوبِهـــا غزواتُـــــهُ[4]

ويميل العماد في صوره الشعرية إلى استخدام الصور الحسية، وهي صور يتخيلها الشاعر بطريقة تدرك من خلال الحواس، كالصور البصرية والسمعية، ومن هذه الصور تصويره لمصير الصليبيين بعد انهزامهم في حطين، فيصورهم كجماعات من الفراش تتهافت على نيران السيوف، وقد خشعت أصواتهم فلا تكاد تسمع، وهذا الوصف يحتاج إلى حواس في إدراكه وتخيله، يقول:

---

[1] العماد الأصفهاني، الديوان، ص413 ــ 414.

[2] العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، ص234.

[3] العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، ص229.

[4] العماد الأصفهاني، المرجع نفسه ، ص89.

وطارتْ على نارِ المواضي فراشُهُم صلاءً فزادتْ مــن خمودِهـــم قَبْسَـــا
وقدْ خشعتْ أصواتُ أبطالـــها فمـا يعي السَّمع إلّا من صليلِ الظُّبى هَمْسَا[1]

ومن هذه الصور أيضاً، قوله:

غرستَ في أرضِ مصرَ من جسومِهم أشجارَ خطٍّ لـها مــن هامِهم ثمرُ
وسالَ بحرُ نجيـعٍ فـي مقـــامِ وغـــى بـــهِ الحديـدُ غمـامٌ والـدّمُ المطـرُ[2]

ويدخل العماد في صورته عنصر الحركة، كي يتناسب وجو المعركة، ومن ذلك وصفه لجيش صلاح الدين، وما فعله بالأعداء، يقول:

كـــمْ جحفلٍ بالعراءِ ذي لجبٍ بالصّفِّ منه يضيفُ صَفْصَفُها
كالبحرِ طامي العُبابِ لاعبـةٌ بموجــهِ للرِّيـــاحِ أعصَفُـــها
كتيبــةٌ منتضـــىً مهنَّدُهـــا إلـى الـرَّدى مُشْــرعٌ مُثَقَّفُـــها
غادرتَهــا للنســورِ مأكلـــةً حيــثُ بأشلائِـــها تُضيِّفُـــها
منتصفاً من رؤوسِ طاعنــةٍ بباتـراتِ الظُّبـــى تُنصِّفُـــها[3]

ومن الصور التي تمور بالحركة، صورة اللقاء مع العدو، وفيها تظهر تحركات الأسلحة وتصادمها، وتكسرها، ورقصها، مما يوحي بصورة تشع حركة، يقول:

إذْ في السَّوابغِ تُحطم السّمر القَنا والبيضُ تُخضبُ بالنَّجيعِ القانـي
وعلى غِناءِ المشرفيَّةِ فــي الطُّلى والهـامِ رقـصُ عوامـلِ المُـرّانِ[4]

وقد يستغل العماد عنصر الحركة ليعطي بعداً توضيحياً عن طبيعة أرض المعركة، ونوع الخطة العسكرية المتبعة، ودور عنصر الخيّالة والفرسان فيها، كما حدث في معركة حطين، والتي كان للخيل فيها دور كبير، نظراً لطبيعة أرض المعركة، ومن ذلك تصوير العماد لفرسان المسلمين وحركتهم على ظهور جيادهم، وكأنهم أسود تبغي نهش رقاب الأعداء، يقول:

سحبتَ على الأردنِّ رُدناً من القنا رُدَينيّةً مُلداً وخَطِّيـــةً مُلْـســا

---

[1] العماد الأصفهاني، الديوان، ص235.

[2] العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، ص171.

[3] العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، ص309.

[4] العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، ص412.

ونعمَ مجالُ الخيلِ حطِّينُ لم تكنْ معاركُها للجُردِ ضرساً ولا دَهسا
غداةَ أسودُ الحربِ معتقلُو القنـا أساودُ تبغي من نُحورِ العِدا نَهسا[1]

ويشيع في صور العماد الشعرية استخدامه للألوان، وهي صورٌ مستمدة من واقعه الحربي، فالجيش يزخر بالألوان، من ألوان الرايات والأعلام، وألوان الأسلحة والمعدات، وألوان الملابس والدروع، تتحد هذه الألوان فيما بينها، لتشكل لوحة فنية، ومن ذلك قوله :

وكتيبةٍ مثل الرِّيـاضِ كأنَّمـا راياتُهـا منشـورةٌ أزهـارُ
وكأنَّما خُضرُ البيـارقِ للـقنـا وُرقٌ وهامـاتُ العُـداة ثمارُ
وكمائمُ الأغمادِ عن زهرِ الظُّبى فتقتْ فكـلُّ صقيلـةٍ نُـوَّارُ[2]

ويقول في وصف هزيمة الإفرنج:

بنو الأصفرِ الإفرنـج لاقوا ببيضـهِ وسمرِ عوالـيهِ منايـاهمُ حُـمـرا
وما ابيضَّ يومُ النَّصرِ واخضرَّ روضُهُ من الخصبِ حتى اسودَّ بالنَّقعِ واغْبَرا[3]

وينوع العماد في صوره الشعرية، ويحاول التجديد فيها، ومن ذلك تصويره لبطله يلعب بالصولجان، ويجعل من رؤوس الأعداء كرات يلعب بها، يقول:

صوارمـهُ صوالـجهُ إذا مـا رؤوسُ عداهُ كانتْ كالكُرينِ[4]

أو أن يجعل الرمح عاشقا متعطشاً لقتال الأعداء، يقول:

فالأسْمرُ العسَّالُ يحكي ناحِلاً متلوِّياً منْ سُـقمهِ لـم يَنْقَـهِ[5]

---

[1] العماد الأصفهاني، الديوان، ص234.
[2] العماد الأصفهاني، المرجع نفسه ، ص164.
[3] العماد الأصفهاني، المرجع نفسه ، ص160.
[4] العماد الأصفهاني، المرجع نفسه ، ص427.
[5] العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، ص452.

2.5 النثر

1.2.5 البناء الفني

تتوزع فنون العماد النثرية بين الرسائل بشقيها الديوانية والإخوانية، وبين نثره الأدبي والتاريخي، تحمل في ثناياها صوراً لأحداث الصراع بين المسلمين وعدوهم الصليبي.

وبحكم عمله في ديوان الإنشاء، ومرافقته لبطلين من أبطال الحروب الصليبية، فقد سطّر العماد بقلمه العديد من المكاتبات والرسائل، التي تحيط بجوانب الحرب الصليبية، كتلك الكتب التي دبجها في وصف ميادين القتال، والتغني بالانتصارات، ووصف الأحوال والمستجدات في حالتي الحرب والسلم، والاستنفار وطلب العون، والحث على الوحدة الإسلامية، والإخبار بوصول الجيوش والإمدادات الصليبية، كما ساهمت في إجلاء الصورة الحقيقية للحرب الدائرة آنذاك.

وقد حرص الكتّاب في ذلك العصر على الاهتمام ببناء رسائلهم، كي تنهض بالدور الذي اضطلعت به، خاصة إذا كان الموضوع صراعاً بين أمتين وعقيدتين مختلفتين، علاوة على إظهار مقدرتهم الفنية وبراعتهم في الكتابة.

كما كان للرسالة أصول وقواعد فنية، يأخذ بها الكاتب عند إنشائها ويلتزم بها، فلا بد من الافتتاح بألفاظ مخصوصة، تتناسب ومنزلة المخاطب، ومقدمة تنبئ عن الموضوع المراد تتصف ببراعة الاستهلال، ثم الدخول في الموضوع الرئيس مع مراعاة حسن التخلص، وفي النهاية تكون الخاتمة التي تتناسب والموضوع في الرسالة، والمقصود هنا الرسالة الديوانية التي تصدر من ديوان الإنشاء، لأنها تحمل الصبغة الرسمية.

وعند الحديث عن حيثيات البناء الفني للرسالة، نجد أن نقّاد ذلك العصر وما تلاه، قد حاولوا الإلمام بالقواعد والأسس لهذا الفن الأدبي، فتحدثوا عن صور البدء والختام وأساليب الكتابة، وأول هذه القواعد البدء أو الافتتاح.

والافتتاحات أصل من أصول المكاتبات، والحسن فيها يعود إلى الافتتاح بالتحميد، أو بالسلام، أو بما يوحي بتعظيم المكتوب إليه، أو إلى ما يوجب التحسين

من سهولة اللفظ ووضوح المعنى[1]، ليكون داعية لاستماع ما بعده، وتُجعل التحميدات في أوائل الكتب السلطانية مناسبة لمعاني تلك الكتب، فإنها تكون قد تضمنت أموراً لائقة بالتحميد، كفتح معقل، أو هزيمة جيش، أو ما جرى هذا المجرى[2].

وقد جرت عادة الكتّاب في ذلك الزمان، على افتتاح رسائلهم بالدعاء للديوان العزيز، أو الدعاء لما يعود عليه، أو الصلاة أو السلام، وربما افتتحت بآية من القرآن الكريم مناسبة للحال[3].

وتجدر الإشارة إلى أن ما وصلنا من رسائل العماد الأصفهاني، قد لا يعطينا صورة تفصيلية لقواعد هذا الفن الأدبي، إما لعبث النسّاخ والكتّاب وطلبهم للاختصار، أو اختصار العماد نفسه لافتتاحيات بعض رسائله، فقد عنْوَن بعض رسائله بِـ" مما كتبته إلى الديوان العزيز"[4] و" فصل مما كتبته في المعنى"[5] و" ذكر فصل إلى الديوان العزيز"[6] .

وبحكم عمله في ديوان الإنشاء، فقد كتب العماد كثيراً من الرسائل الديوانية، كان الخطاب فيها موجهاً إلى الخليفة العباسي في بغداد، أو أُمراء الجيوش وقادته، أو الولاة، أو أعيان الدولة ووزرائها.

وتنوعت افتتاحيات العماد في رسائله، فكان بعضها يبدأ بالدعاء كما في رسالته إلى الديوان العزيز في بغداد[7]، ورسالته إلى سيف الإسلام أخي السلطان صلاح الدين الأيوبي باليمن، وخاطبه بالمجلس السامي، يقول:" صدرت هذه المكاتبة إلى المجلس

---

(1) القلقشندي، صبح الأعشى، 6/ 274 ـ 275.

(2) ابن الأثير، المثل السائر، 3/ 108.

(3) القلقشندي، صبح الأعشى، 6/ 495.

(4) العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص147.

(5) العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، ص281.

(6) العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، ص337، 376.

(7) العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، ص651، وانظر: البرق الشامي، 5/ 42.

السامي ضاعف الله علاءه، وظاهر آلاءه، وضافر نعماءه وأظفر بالنجح رجاءه، وأضعف حسّاده وأعز أولياءه، وأذل أعداءه...." [1].

ويفتتح العماد بعض رسائله بآية من القرآن الكريم، كرسالته إلى الخليفة الناصر لدين الله بفتح بيت المقدس، فقد افتتحها بقوله تعالى:﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾[2]، ثم انتقل بعدها إلى حمد الله والثناء عليه، وكرر التحميد بما يتناسب وهذا الفتح العظيم[3].

وإذا كان افتتاح الرسالة مناسباً للموضوع الذي يتحدث عنه العماد، من حيث الابتداء بالدعاء والتحميد، والبداية بالقرآن الكريم، يكون قد نجح في براعة استهلاله، كما في التهنئة بالفتح القدسي، والبشارة في النصر، وتسجيل المعارك الكبرى.

أما مقدمات رسائل العماد، فتطول وتقصر بحسب غرض الرسالة، وتكون المقدمة مشتملة على ما بعدها من المقاصد والأغراض[4]، وعندما يكون الحديث عن تهنئة أو بشرى أو حث على الجهاد، نرى أن المقدمة تطول، لما في ذلك من شحذ للهمم، وإشادة بنصر الله لعباده، وهزيمته لأعدائه.

ويجب على الكاتب مراعاة الربط بين المقدمة والموضوع بما يسمى التخلص، ومن ذلك رسالته إلى الديوان العزيز بفتح بيت المقدس، فقد تحدث في مقدمتها عن نصر الله لعباده الصالحين وتأييده لهم، وتخلّص من هذه المقدمة بذكره لشرح هذا الفتح العظيم، والنصر الكريم، يقول:" والحمد لله الذي أعاد الإسلام جديداً ثوبه، بعد أن كان جديداً حبله، مبيضّاً نصره، مخضّراً نصله، متسعاً فضله، مجتمعاً شمله، والخادم يشرح من نبأ هذا الفتح العظيم، والنصر الكريم، ما يشرح صدور المؤمنين، ويمنح الحبور لكافة المسلمين، ويكرر البشرى بما أنعم الله به...." [5]، ثم يستمر في وصف أيام القتال التي تمخضت عن هذا النصر العظيم.

---

[1] العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص190، وانظر: البرق الشامي 171/5 .

[2] سورة الأنبياء، الآية 105.

[3] القلقشندي، صبح الأعشى، 517/6 ـ 518.

[4] العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، 279/6.

[5] العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، 6/ 518.

ولأن الخاتمة هي آخر ما يبقى في الأسماع، فقد اهتم العماد بخواتم رسائله، وجاءت متلائمة مع موضوع الرسالة، ويرى القلقشندي أن حسن الختام قد يكون راجعاً للمعنى المختتم به، وقد يكون راجعاً إلى ما يوجب التحسين من سهولة اللفظ وحُسن السبك ووضوح المعنى وتجنب الحشو[1].

ومن ذلك، مناسبة الخاتمة للموضوع الذي شغل الناس آنذاك، ألا وهو فتح بيت المقدس، يقول في رسالته إلى الديوان العزيز في بغداد:" ولو شرح ما لهذا الفتح من جلالة العظمة ودلالة المكرمة، لكبا قلم البليغ في مضمار البيان ولم يبلغ مدى ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾[2]، والقاضي ضياء الدين القاسم الشهرزوري، قد توجه لهذه النعمة واصفاً، وعندما يؤمر به من إنشاء البشر بها واقفاً، وأولى من وصف العرف من كان بأوصافه عارفاً، وأحق من شرح الحق والحقيقة من تفي بشرح الصدور مصادر شرحه، ويفتح على الإسلام أبواب الهناء بإنهاء ما تسنى من فتحه، ويحدث وهو الضياء بأسفار صبحه"[3].

وعندما تكون الرسالة تحمل خبراً سيئاً، كهزيمة أو سقوط معقل، نجد العماد يختم رسالته بالتهوين والتخفيف من هذا المصاب، ويتخذ ذلك وسيلة لاستنهاض الهمم ومواصلة القتال، ومن ذلك رسالته في سقوط مدينة عكا، فقد ختمها بقوله:" وعزّ أصحابنا بما بذلوه من الوسع وما هانوا، وما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا، ولا مردَّ لما فيه لله من المراد، ولا مدفع لحكمه في البلاد والعباد، وإن ذهبت مدينة فلم يذهب الدين، وإن غاض معين فما غاب المُعين، وإن ارتاب المبطلون فما فارق الحق اليقين، وإن فتح المرتج فما فات المرتجى، وإن ادلهمّ الديجور فلا بد أن يسفر عن الصبح الدجى، ولا يشمت عدو الإسلام بما جرى، فعند الصباح يحمد القوم السّرى"[4].

---

(1) القلقشندي، صبح الأعشى، 312/6 ـ 313.

(2) سورة الكهف، الآية 109.

(3) العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص148 ـ 149.

(4) العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، ص519.

وعند الوقوف على رسائل العماد واستعراضها، يمكن التعرف على كيفية بنائه للرسالة، ومن هذه الرسائل، رسالته التي بعث بها إلى الملك تقي الدين عمر، يستدعي فيها العساكر للجهاد، يقول:" ومن ذلك[1] في المعنى بإنشائي صدر مكاتبة إلى تقي الدين واستدعاء العساكر للجهاد"[2].

وقد افتتح العماد رسالته مخاطباً تقي الدين بمجلس الملك المظفر، والدعاء له، وحمد الله والثناء عليه، يقول:" قد تقدمت المكاتبة إلى مجلس الملك المظفر، لا زالت أيامه بالملك والظفر منعوتة، وصلاةُ صِلاته بالحمد والإخلاص موقوتة، وولاة ولائه مومِوقة، وعداةُ آلائه ممقوتة، ومنايا مناوئيه مكبوبة، وشُناةُ شأنِه مكبوتة، وعرَّفناه ما شمل من نعم الله وفاض، واستنار من لأْلاءِ آلائه واستفاض، وأن الله عجّل غياثه بغيوث رحمته، وبعوث نعمته، حتى سالت أوديتها، وسُفكت دماء المُحُول بسيوف البوارق فلا يقال قَوَدُها أو ديّتُها، فَدَمُ الجدْبِ مطلول، وروض الخصب مطلول"[3].

وبعد هذا الافتتاح، يحاول أن يربط العماد بين الخير العميم الذي حلَّ بنزول الأمطار والثلوج، وبين العزائم التي تقوّت واستعدت للجهاد، فهو يرمي من خلال هذه المقدمة إلى استغلال أجواء الخير والبركة لشحذ الهمم والاستعداد للجهاد، يقول:" وأنَّ العزائم قد قويت، والصرائم قد رَويت، وزناد الهمم وَرتْ، وآثار النصر قد رُويت، وهذه سنة قد هبّت حسنتها من سِنتِها، وأثنت فيها عهادها على محاسن الرياض بألسنتها....، فالعساكر تجتمع، والمعاذر ترتفع، والخيرات تتسع، والآمال تنتجع، والأعشاب تكثر وتكنف، والبركات تكمل وتكثف"[4] ،

وحين تخلّص العماد من المقدمة، انتقل إلى غرضه في الرسالة، وهو استدعاء العساكر، وعدم قبول العذر في ترك الجهاد، وبيّن أن نعم الله الكثيرة، أوجبت طاعاته فيما فرض على الأمة، يقول:" وقد أنهض الله إلينا أمداد آلائه، وأقدمها لينهض

---

(1) وقد صادف ذلك عيد والفطر، وكثرة الأمطار والثلوج وتعذر الحركة والخروج، انظر: البرق الشامي، 5/ 170 ــ 171.

(2) العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، 171/5 ــ 172.

(3) العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، 5/ 171 ــ 172.

(4) العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، 5/ 172.

بقوادمها إلى جهاد أعدائه، فلم يبق لنا عذر في ترك الجهاد يُقبل، ولا يقال بعد هذا من أمر الغزو ما لا يفعل"[1].

ويذكر العماد بعد ذلك مكاتبته لأمراء الأطراف لاستدعائهم، وتسابقهم إلى تلبية النداء، واستبشارهم بنعم الله وآلائه، يقول:" وقد كاتبنا أمراء الأطراف باستعدادهم لاستدعائهم، وأن يجزموا بجمع العساكر أوامرهم لأمرائهم، فما منهم إلا من يسابق إلى تلبية النداء، ويسارع إلى إجابة الدعاء، ويعشق ولا عشق لقاء الأحبة لقاء الأعداء....، والله عزّ وجل يمدُّ الإسلام بفتوح تفوح أرجاؤها بأَرج العز، ويسمي للمجاهدين في سبيله ما وعدهم به من دَرج الفوز"[2].

ويعين العماد في هذه الرسالة مكان اجتماع العساكر وزمانه، والسبب في ذلك، فيقول:" وقد عزمنا مع خروج شباط المسير إلى حلب، لأن هناك العساكر يقرب اجتماعها، والغنائم تتحقق اتساعها، والمشاورات الصائبة يتدانى استماعها، والهيبة في النفوس تُقحم، والصيت في الآفاق يعظُم، والهمم الساكنة تتحرك...." [3].

وختم العماد رسالته بقوله:" وقد جاء الغيوث دائمة ديمها، سابغة نعمها، وأصحت السماء ليلة العيد فضاهت نعمة الإصحاء لأصحّاء الدّين نعمة الدجون، وعرج النور في السماء ليبين الهلال الذي بدا كالعرجون، فيا لله من قطر وعيد، أنجز للأولياء كلّ وعدٍ وأعدَّ للأعداء كل وعيد، والحمد لله على ما منّ به من إحسان عتيد، وإفضال طارفٍ موصولٍ تليد"[4].

وجاءت هذه الخاتمة مناسبة لموضوع الرسالة، فقد حمد الله وشكره على ما أنجز لعباده وأعدّ لأعدائه، علاوة على المعاني الدينية التي ختم بها رسالته، والتي تعبر عن نعمه وآلائه، وأن يتم استغلالها لنيل مرضاته، والنهوض لجهاد الكفّار ومحاربتهم.

أما طول الرسالة عند العماد، فغير مقيد، ذلك أن طبيعة الموقف والموضوع هو من يحدد طول الرسالة أو قصرها، مع الإشارة إلى أن تصوير المعارك ونقل أخبار

---

[1] العماد الأصفهاني، البرق الشامي، 5/ 172.

[2] العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، 5/ 172.

[3] العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، 5/ 172.

[4] العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، 5/ 172.

الجهاد، والبشائر والتهاني بالفتوح، يحتاج إلى إسهاب، كي ينهض بالدور الإعلامي الذي أنيط به، فالإنسان يطرب ويفرح لأخبار الانتصارات والفتوح، خاصة إذا ما عرفنا أن الصراع في تلك الفترة كان على أشده، وهنا يأتي دور الكاتب في نقل الأحداث والوقائع.

2.2.5 اللغة والأسلوب

تنوعت الأساليب والقوالب اللغوية عند كتّاب القرن السادس الهجري، تبعاً لثقافتهم وقدراتهم، والموضوعات التي عالجوها في نثرهم، وقد أثرت روح العصر فيهم، حتى كادت لغة النثر أن تصبح مثل لغة الشعر[1]، وهو ما انعكس بشكل جلي على نثر العماد الأصفهاني.

ولأن اللغة هي وسيلة التعبير عن المعنى، فقد اتّبع العماد طرائق عدة للتعبير عن أفكاره، سواء أكان ذلك من أجل الاستثارة العاطفية وشحذ الهمم والنفوس، أم في إبرازه للمخاطر التي تتهدد الإنسان المسلم.

ويرى ابن الأثير أن الألفاظ في قسمين: جزلة ورقيقة، ولكل منهما موضع يحسُنُ استعماله فيه، فالجزل منها يُستعمل في وصف مواقف الحروب، وفي قوارع التهديد والتخويف وأشباه ذلك، وأما الرّقيق منها فإنه يستعمل في وصف الأشواق، وذكر أيام البعاد، وفي استجلاب المودات، وملاينات الاستعطاف، وأشباه ذلك[2]، وهل بعد الحرب ما يحتاج إلى الجزل والقوي من الألفاظ؟.

وعندما يصف العماد الحرب، نجده يختار ما يناسبها من الألفاظ، التي تعبر عن واقع الحال، وشدة الصراع بين الطرفين المتحاربين، ومن ذلك قوله يصف جيش صلاح الدين واستعداده لمعركة حطين:" ثم أصبح سائراً ونزل على الأردن بثغر الأقحوانة، بعزم الصّيال وعزّ الصِّيانة، وأحاط ببحيرة طبرية بحرُه المحيط، وضاق ببسائط خيامه ذلك البسيط، وبرزت الأرض في قشب أثوابها، وتفتحت السماء لتنزل

---

(1) عبد الجليل عبد المهدي، بيت المقدس في أدب الحروب الصليبية، ص346.

(2) ابن الأثير، المثل السائر، 1/ 158.

الملائكة من أبوابها، ورست سفن المضارب على تلك الأثباج، وطمّت الأطلاب أمواجاً على أمواج، وانعقدت سماء العجاج، وطلعت فيها أنجم الخرصان والزّجاج"[(1)].

ويميل العماد إلى استخدام ألفاظ تحمل في دلالاتها الإثارة والتهويل، خاصة في وصفه للمعارك، فينقل القارئ بأسلوب جميل إلى أجواء المعركة، فتكاد تسمع صليل السيوف، وصيحات الجنود، وصهيل الخيول، وأصوات الضرب والطعن، ومن ذلك قوله:" فضُرب الكوس وسمتْ النُّفوس، وأنارت في ظلام القتام من الترك والترائك الأقمار والشموس، واشتعلت من شيب البيارق في شعاع تلك البوارق الرؤوس....، وسالت الأودية بالسَّابحات العِتاق، وطالت على السَّير أعناق الإعناق، ومالت إلى الرقاب الغلاظ من أهل الكفر رقاب الرقاق....، وترنمت الصَّواهل، وترنَّحت الذّوابل، وساح السّاحل، وراح الرّاحل"[(2)].

وعندما يتعلق الحديث بتصوير هزيمة الأعداء، نجده يختار الألفاظ التي تدل على شدة هزيمتهم وهولها، فيرسم صورة معبرة عن المصير الذي حلَّ بهم، فيقول:"وعبرت بها فلقيت أشلاءَ المشلولين في الملتقى مُلقاة، بالعراء عراة، ممزَّقة بالمازق، مفصّلة المفاصل مفرّقة المرافق، مفلّقة المفالق، محذوفة الرقاب، مقصوفة الأصلاب، مقطّعة الهام، موزعة الأقدام، مجدوعة الآناف، منزوعة الأطراف"[(3)].

ويتضح من هذه الأمثلة القصيرة، أن أسلوب العماد يتسم بالقوة والجزالة في اختياره لألفاظه ومعانيه، ذلك أن الحرب تحتاج إلى هذا النوع من الألفاظ والمعاني.

ويبدو أن العماد قد اندفع طلباً للسجع إلى استخدام ألفاظ فيها نوع من الغرابة، ولعل مدرسة البديع في ذلك العصر، كانت تفرض سطوتها على الكتّاب بقوة، حتى دفعتهم إلى اصطناع السجع واقتناصه، كاستخدامه لكلمة الدردبيس بمعنى الداهية، يقول العماد في وصف الصليبيين وما حلَّ بهم في مدينة صور:" ونزلت النوازل

---

(1) العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص72.

(2) العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، ص99 ـ 100.

(3) العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، ص82.

المركّسة من نزوله ونزاله بالمركيس، فوقع في الدردبيس، والعذاب البئيس، فكأنما نُفخ في صور صور، فحُشر أهل جهنم وملأوا السور"[1].

ولما كان الصراع بين المسلمين وأعدائهم صراعاً بين عقيدتين، فقد ظهرت في نثر العماد ألفاظ ومصطلحات تحمل دلالات دينية، تصور الصراع العقائدي بين الطرفين، ومن ذلك استخدامه لألفاظ ومصطلحات إسلامية، يقول في وصف بيت المقدس:" وكيف لا يُهتم بافتتاح البيت المقدس الأقوى، والمسجد الأقصى المؤسس على التقوى، وهو مقام الأنبياء، وموقف الأولياء ومعبد الأتقياء، ومزار أبدال الأرض وملائكة السماء، ومنه المحشر والمنشر، ويتوافد إليه من أولياء الله بعد المعشر المعشر، وفيه الصخرة التي صينت جدة أبهاجها من الإنهاج، ومنها منهاج المعراج، ولها القبة الشمّاء التي على رأسها كالتاج، وفيه ومض البارق ومضى البُراق، وأضاءت ليلة الإسراء بحلول السراج المنير في الآفاق"[2].

كما استخدم العماد في نثره ألفاظاً ومصطلحات ترتبط بالديانة النصرانية، وبطقوسها الكنسية، ومن ذلك قوله في وصف كنيسة قمامة:" قالوا: وفيها صُلب المسيح، وقرب الذبيح، وتجسد اللاهوت، وتألّه النّاسوت، واستقام التركيب، وقام الصليب، ونزل النور، وزلّ الديجور، وازدوجت الطبيعة بالأقنوم، وامتزج الموجود بالمعدوم، وعمدت معمودية المعبود، ومخضت البتول بالمولود"[3].

وكثيراً ما كان العماد يقابل بين ألفاظ كلٍّ من الديانتين، في معرض حديثه عن الصراع القائم بينهما، ومن ذلك قوله:"وبات الإسلام للكفر مقابلاً، والتوحيد للتثليث مقاتلاً، والهدى للضّلال مراقباً، والإيمان للشرك محارباً، وهُيئت دركات النيران، وهنئت درجات الجنان، وانتظر مالك واستبشر رضوان"[4].

ويبدو أن طبيعة الصراع الحضاري بين الأمتين: الإسلامية والنصرانية، قد دفع العماد إلى استخدام ألفاظ غير عربية، خاصة عندما كان يصف المعركة وميادين

---

[1] العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص154.

[2] العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، ص122.

[3] العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، ص119.

[4] العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، ص78.

القتال، فنجده يذكر أسماءً وألقاباً لقادتهم وملوكهم، وفرقهم العسكرية المقاتلة، ومن الأسماء الأجنبية التي ذكرها،" فيليب"، " ليجرت "،" هرّي "، " أماري "[1].

وذكر من ألقابهم،" الكند"، " القومص"، " البرنس"، " المركيس"[2]، وفي وصفه لفرقهم العسكرية يقول:" فللدَّاوية دويّ، وللبارونيّة من البوار في الهاوية هوي، وللإسبتار تبار، وما للفريريّة من الموت من فرار"[3].

ونجده كذلك يستخدم ألفاظاً غير عربية، تستخدم في الحرب وما يتعلق بها من أدوات وآلات حربية، ومصطلحات وتسميات عسكرية، كالبيكار، والجاليش، والجاندارية، والزنبوركات والناكوت، وغيرها الكثير[4].

وقد تميز أسلوب العماد في نثره بالإطناب، ذلك أن ما يتعلق بالحرب يحتاج إلى تفصيل واستقصاء، فكان العماد يبسط الحديث في تصويره للمعارك، ويشيد بالأبطال ويفصل في هزيمة الأعداء، ذلك أن اتساع مجال الكلام في ذكر الواقعة ووصفها كان أحسن وأدل على البلاغة، وأدعى لسرور المكتوب إليه[5].

ومن ذلك وصف العماد للنزول على حصن بيت الأحزان وفتحه، فقد بدأ العماد حديثه عن عزم السلطان صلاح الدين على قصد الحصن، وكيفية استعداده لذلك، وخروج الجيش ووصف استعداده وتحركه، ووصف عناصره وأسلحته، وذكر الفترة الزمنية التي أمضاها حتى وصوله للحصن المذكور، وعند الوصول استكمل تجهيزاته العسكرية، ووضع الخطط الحربية، ووصف العماد هذا الحصن ومناعته، ثم يبدأ بوصف المعركة التي استمرت أياماً، ويذكر أحداث كل يوم بالتفصيل.

ففي وصفه لأحداث يوم الخميس، يقول:" فلما أصبحنا يوم الخميس الرابع والعشرين من شهر ربيع الأول، أصبح الخميس وقد حمي الوطيس، وغصّ بالأُسد الخيس، والدنيا تضطرب والبلوى تضطرم، والعدوى تحتد والعدو يحتدم، وللبأس اقتحام،

---

(1) انظر: الفتح القسي، ص474، 477، 413، 76، 80.

(2) انظر: العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، ص80، 67.

(3) العماد الأصفهاني، المرجع نفسه ، ص125.

(4) انظر: العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، ص70، 76، 199، 163، 223.

(5) ابن الأثير، المثل السائر، 2/ 355.

وللإسلام من الكفر انتقام، ونحن ننظر إلى السّور وقد طال الانتظار، ووقع في بطء وقوعه الاستشعار، ولما تعالى النهار وعيل الاصطبار، وزال القرار انقض الجدار، فأبرّت البشرى وتباشرت الأبرار، وتسابق الناس إلى الثلمة، واجتلوا لمع الرحمة من فرج الزحمة"[1].

ثم يمضي بعد ذلك إلى تصوير هزيمة الفرنجة وما حلَّ بهم من سوء المصير، وخروج المسلمين من الأسر، وجلوس السلطان للتهنئة، ووصفه للحصن وما حلَّ به من خراب ودمار، ثم ذكره ليوم الرحيل والعودة إلى دمشق بعد هذا النصر المؤزر[2].

ومن المظاهر الأسلوبية عند العماد التكرار، وخاصة حينما يتعلق الأمر بالدعاء للمرسل إليه، فنجده يطيل في الدعاء ويكرر عباراته كما في الكتاب الذي بعث به إلى أخي السلطان صلاح الدين في اليمن[3]، كذلك تكراره لعبارات حمد الله والثناء عليه، في الكتاب الذي أرسل إلى الخليفة العباسي في بغداد[4].

وعندما يتعلق الأمر بوصف الجيش الإسلامي، نجد العماد يلجأ إلى أسلوب المبالغة في تصويره لضخامة هذا الجيش وقوته، ومدى جاهزيته القتالية، وهو أمر من باب التعظيم، ومن ذلك قوله في وصف جيش صلاح الدين:" أصبح بالمخيم عارضاً من العسكر لعارض ثجاج، وبحر بالعجاج عجّاج، وخضمٍ بالصَّواهل السوابح والمناصل والصفائح ذي أمواج، وقد رتّب أبطاله وأطلابه، وسحب على وجه الأرض سحابه، ونقل به من الثرى إلى الثُّريا ترابه"[5].

وقد استخدم العماد أسلوب السخرية والاستهزاء، فنجده يصور العدو الصليبي بالقردة، إمعاناً في تحقيرهم والسخرية منهم، يقول في وصفهم:" ودام القتال أياماً، يتضاعف اصطلاءً واصطلاماً، ويتظاهر اضطراباً واضطراماً، وبنات الحنايا هائجة،

---

(1) العماد الأصفهاني، البرق الشامي، 3/ 179 ـ 180.

(2) العماد الأصفهاني، المرجع نفسه 3/ 175 ـ 181.

(3) العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص190 .

(4) القلقشندي، صبح الأعشى، 6/ 517 ـ 519.

(5) العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص69.

وأمات المنايا ناتجة، ورُجمت بشهب النفّاطات شياطين الدَّاوية المردة، وتعادت الأسود العادية على اولئك القردة"[1].

ويميل العماد في بعض رسائله إلى استعمال الأسلوب الخطابي، ويتجلى ذلك فيما كتبه في الحث على الجهاد والدعوة إلى الوحدة الإسلامية ومواجهة العدو المحتل، ومن أجل ذلك فقد أكثر من استعمال الجمل الإنشائية، ومنها أسلوب الأمر، ومن ذلك قوله في كتاب استنفار يدعو فيه إلى مواجهة العدو، يقول:" فلينهض نهوض الكريم إلى مساعدة الكرام، وليخطب اهتمام العظيم بملابسة الخطوب العظام، وليَثب وثوب الأُسد على الفريسة، ولينتخِ للإسلام انتخاء الأنفس الأبية والهمم العلية النفيسة، وليكن أول سابق في مضمار الجد، وأسعد طالع في أفق الجد"[2].

ويستخدم العماد الاستفهام في حثه على الجهاد واستثارة همم المسلمين، ومن ذلك قوله:" فأين المؤدون فرض الجهاد المتعين؟ وأين المهتدون في نهج الرشاد المتبين؟ وأين المسلمون؟ وحاشا أن يكونوا للإسلام مسلمين، وأين المقدمون في الدين؟ ومعاذ الله أن لا يكونوا في نصرته على الموت مقدمين"[3].

ويميل إلى استخدام الاستفهام أيضاً في معرض حديثه عن المتخاذلين عن الجهاد والمتقاعسين عنه، ويقارن بينهم وبين أبطال الجهاد، يقول:" فهؤلاء الذين ألفوا الراحة، واعتادوا في بحر الطرب السباحة، كيف يصح اعتزاء اعتزامهم؟ وتثبت إقدام أقدامهم، وكيف يطلبون متاع المتاعب؟ ويركبون مطا المطالب، وأنّى يهيجون إلى الهياج؟ ويتعرضون عن مدامة الزجاجة بمدمية الزجاج....، وأين ذوو الحُميا من ذوي الحميَّة؟ ولاثمو المراشف من ثالمي المشرفية، ومعتقلو القنا من معتقدي القينة...." [4].

كما ويستخدم العماد أسلوب التعجب، خاصة عندما يصف المكان الذي حرره المسلمون، ويتعجب من حاله كيف كان وكيف أصبح؟، ومن ذلك وصفه لقبة الصخرة بعد تحريرها، يقول:" فما أبهج ليلها وقد حضرت الجموع! وزهرت الشموع! ودان

---

(1) العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص105.

(2) العماد الأصفهاني، المرجع نفسه ، ص400.

(3) العماد الأصفهاني، المرجع نفسه ، ص401.

(4) العماد الأصفهاني، البرق الشامي، 5/ 90.

الخضوع! ودرّت من المتقين الدموع! واستعرت من العارفين الضلوع!....، وما أسعد نهارها حين تستقبل الملائكة زوارها! وتلحف الشمس أنوارها، وتحمل القلوب إليها أسرارها، وتضع الجناة عندها أوزارها، وتسهتدي صبيحة كل يوم منها أسفارها، وما أظهر من تولى إطهارها! وأطهر من باشر إظهارها!" [1].

وعندما يتعلق الأمر بذكر يوميات الحروب ومجريات المعارك، ورسم صورة تفصيلية لأحداث الصراع الدائر، نجده يلجأ إلى استخدام أسلوب الحوار، يقول:" فعقدَ السلطان محضراً للمشورة، وأحضر كبراء عساكره المنصورة، وشاورهم في الأمر، وحاورهم في السرّ والجهر....، وقال: إن الفرصة قد أمكنت فنحرص في انتهازها، وإن الحصة قد حصلت ونستخير الله في إحرازها، وإن فاتت لا تستدرك، وإن أفلتت لا تملك، فقالوا: قد خصّك الله بالسعادة، وأخلصك لهذه العبادة، ورأيك راشد، وعزمك لضالة النصر ناشد، وأمرك لأشتات المنائح وأسباب المناجح حاشد، وكلنا لك في اغتنام فتح هذا الموضع الشريف مناشد"[2].

ومن السمات الأسلوبية التي ظهرت في نثر العماد استخدامه المصطلحات، كاستخدامه للمصطلحات اللغوية، والتي يعبر بها عن صور طريفة، ومن ذلك وصفه لنصب المنجنيق وإعداده للرمي، يقول:" وعاد ظهراً على العدو ظاهراً، وللحصن حاصراً، حاملاً من تلك الغوارس لحشو المتارس، عاملاً لنصب المنجنيق عمل المقاسي المقايس، ثم رأى أن يقدم على رفعه ونصبه وجره للجند إلى القتال، وزحفا إلى اولئك الرجال المعدودة المحصورة بأولي العدة المصحرين من الرجال"[3]، وقوله أيضا في وصف المنجنيق:"وانتظمت سقوفها، وجزمت أفعالها حروفها"[4].

وقد أورد العماد كثيراً من المصطلحات في تصويره للصراع الحضاري بين المسلمين وأعدائهم من الصليبيين، كالمصطلحات التي تتعلق بالزراعة والتجارة وغيرها،

---

[1] العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص142.

[2] العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، ص127، وانظر: ص172 ـ 173.

[3] العماد الأصفهاني، البرق الشامي، 182/3.

[4] العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، 85/5.

كما أورد كثيراً من أسماء المدن والأماكن[1]، في تصويره للصراع على امتداد رقعة الدولة الإسلامية، وهذا ما منح نثره قيمة أدبية وتاريخية وحضارية، شملت العديد من العلوم والمعارف.

3.2.5 الصنعة الفنية والبديع

احتلَّ العماد مكانة مرموقة في مدرسة الصناعة اللفظية ـ التي كانت سائدة آنذاك ـ وعلى رأسها القاضي الفاضل، واعتبر العماد نفسه تلميذاً لشيخ هذه الصناعة، ومتأثراً به كما يبدو من قوله:" فأنا متمثلٌ لأمره المطاع، ملتزم له قانون الأتباع"[2].

ويظهر مدى اهتمام العماد بالسير على خطى أستاذه، في التزامه بالصنعة الفنية والزخرف البديعي في نثره، في رسالة بعث بها العماد إلى القاضي الفاضل، يقول فيها:" وهذه الرسالة قد وفَّيتها حقّها من التجنيس والتطبيق والترصيع، والمقابلة والموازنة والتوشيع"[3]، وهو ما يعكس واقع حال الكتابة في ذلك العصر.

وقد دفعه تتبع المحسنات البديعية واصطيادها إلى درجة الإسفاف والخروج عن موضوع الحديث أحياناً[4]، ولعله لا يُلام في ذلك، فهي صنعة تغلغلت في الأدب، وتحتاج من الأديب إلى إظهار الموهبة والبراعة في مقدرته على استخدامها وتوظيفها، فكان من العماد أن قبل التحدي، وأطلق فرسه في هذا الميدان.

ويشيع في نثر العماد استخدامه لهذه المحسنات، حتى أن كتابه الفتح القسي، قد التزم فيه البديع والصنعة، من بدايته إلى نهايته، وحوى بين دفتيه ضروباً عدة من ألوان الزخرف الفني.

وأول هذه الألوان هو السجع، وهو مظهر رئيس في نثر العماد، فقد استغل الألفاظ الموسيقية، وجعل نثره يسير في إيقاع موسيقي، من خلال السجعات المتتابعة الي يبثها في نثره ، فيشعر القارئ معها أن العماد يبحث على الدوام عن الألفاظ

---

(1) على سبيل المثال، انظر: الفتح القسي، ص199 ـ 200.

(2) العماد الأصفهاني، خريدة القصر، قسم شعراء مصر، 1/ 36.

(3) العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، 1/ 44.

(4) محمد زغلول سلام، تاريخ النقد العربي، ص77.

المسجوعة، لخصائصها الموسيقية التي تناسب ألفاظه، ويبني العماد مقطوعاته الموسيقية من السجعات المتلاحقة، من سجعتين أو ثلاث سجعات أو أكثر، بحسب طبيعة الموقف ومقتضى الحال المعبر عنه.

وأكثر العماد من السجع في نثره، حتى أنه قد أطال للوصول إليه، ففي وصفه لتحرير بيت المقدس، يذكر العماد استماتة الصليبيين ودفاعهم عن المدينة المقدسة، ويصف ذلك بلغة مسجوعة ظاهرة التكلف، يقول:" وكان في القدس حينئذ من الفرنج ستون ألف مقاتل، من سائف ونابل، وبطل للباطل، وعاسٍ عاسل بالعاسل، قد وقفوا دون البلد يبارزون ويحاجزون، ويعاجزون ويناجزون، ويرمون ويدمون، ويُحمون ويَحمون، ويحتدّون ويحتدمون، ويضطربون ويضطرمون، ويذودون ويذبون...." [1].

ويطلق العماد لنفسه العنان في سجعه، حينما يتعلق الأمر بتحقيق النصر على العدو، وهو ما ينطوي تحت باب الإعلام الحربي، فنجده يستخدم اللغة المسجوعة، لنقل أخبار الحرب وانتصارات المسلمين فيها، وفرحة أرجاء الدول الإسلامية بهذا النصر، ومن ذلك قوله في الرسالة التي بعث بها إلى الديوان العزيز في بغداد:" ونزل النصر، وفضُل العصر، ووجب الشكر، وشجب الكفر، ورحب الصدر، وأصحب الدهر، وسحّت سماء السماح، وصح إرواء الأرواح، وتضوّع نشر الانشراح، وتوضّح صباح الصلاح، وطال جناح النجاح، وطاب جنى الأفراح، وعظم القدر، ونظم الأمر، وحسن الذكر، وأمن الذعر، واهتزَّت أعطاف الإسلام، واعتزت أطراف الشام، وتبجلت أيامن الأيام، وتروَّجت أماني الأنام...." [2].

وللسجع أهمية بالغة في إبراز المعنى، من خلال الجرس الموسيقي المؤثر، وكأني بالحرب تحتاج إلى هذا النوع من الألفاظ الموسيقية، ومن ذلك وصفه لهزيمة الصليبيين في غزوة بيسان، يقول:" وحلّقت أجنحة الرايات فاقترنت بها في الجوِّ أجنحة أمثالها من العقبان الكواسر، ونزلت عساكر الملائكة منجدة لما استصحبناه من العساكر، وكثّر الله المؤمنين في أعين الكافرين فعادوا بعد الأُنس نافرين، فلما رأوا بأسنا أخلدوا إلى الأرض مهطعين، ووقعوا عليها للهلاك متوقعين، وخندقوا حولهم

---

[1] العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص124.

[2] العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، ص282 .

وأسندوا إلى الجبل بالذّل لائذين، وركزوا قنطارياتهم في مركز دائرة الخذلان، ورضوا بما كانوا يأبونه وهو أن عزّوا بالهوان، وطلبوا ربح سلامتهم من الخسران"[1].

ونتيجة لرغبة العماد في إدخال الإيقاع الموسيقي على بنائه الفني، فقد أكثر من استخدامه للجناس، مستغلاً تماثل الألفاظ وتقاربها، حتى بدا أنه مفتون بالجناس، يورده بكثرة، فعلى سبيل المثال، لا تكاد تفتح صفحة من كتابه "الفتح القسي"، إلّا وتقع عيناك على ضروب الجناس، المنثورة هنا وهناك، ومن ذلك وصفه لاستماتة المسلمين ودفاعهم عن مدينة عكا، يقول:" وما زالوا يَقتلون ويُقتلون، وينهلون من ورد النجيع وينهلون، ويصلون ويقطعون، ويشعبون ويصدعون، ويكيلون بصاع المصاع، ويجيبون للعمر الراحل داعي الوداع، ويتناجون بألسنة المناصل، ويتقابلون بوجوه الصواقل، ويتشاكون بكلام الكِلام، ويتلاقون بسلام السّلام، ويتساقون بصحاف الصفاح، ويتماشون بمراح الرماح، ويستحلون ضرب الضراب، ويستجلون صفحات الصفائح من قراب الرقاب، إلى أن انتقل القتال من السور إلى الدور، ومن الستائر إلى الستور، ومن الطوارق إلى الطرق والسطوح، ومن المضايق إلى الفساح ومن المراقب إلى السفوح"[2].

وكثيراً ما يلجأ العماد إلى الجناس في المواقف التي تحتاج إلى استثارة، كوصفه للجيوش، وللمعارك والهزائم التي تلحق بالعدو، وكأن الجناس إيقاعات موسيقية تشحن النص بطاقة وتعطيه قوة إضافية، ومن ذلك وصف العماد لجيش صلاح الدين وبيان مدى استعداده واستكمال عناصره للقتال، يقول:" والكتائب مكتّبة، والمقانب مقنّبة، والسماء بالنقع الثائر منقبة، والأرض بوقع الحافر مثقبة، والعساكر مترادفة مترافدة، متوافرة متوافدة، متتابعة متواردة، متسابقة متلاحقة، متناسبة متناسقة، متوالية متوافية، متجارية متبارية، منقضة كالبزاة، منفضة إلى العداة، داعية إلى الانتصار، عادية على الكفار"[3].

---

[1] العماد الأصفهاني، البرق الشامي، 5/ 148.

[2] العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص518.

[3] العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، ص364 .

وقد أُولع العماد باشتقاق الجناس، خاصة عندما يكون في معرض وصفه لفئات الأعداء، فنجده يشتق الجناس من أسمائهم وصفاتهم وفئاتهم العسكرية، مما يوحي بقدر من السخرية والاستهزاء، حول المصير الذي حلَّ بهم وصاروا إليه، ومن ذلك قوله:" واشتدوا بما استصحبوه من البلية، في كل ذئب أمعط، وسيّد قد تورط، وسرحان سرح، وأفعوان كلح، وجهنمي تجهم فهجم، وجحيمي أقدم وما أحجم، وسعيري ناري استعار حدمة النار، وسقري قسوري عاد بعادة الاقتسار، وباروني طالب للبوار، واسبتاري راغب في التّبار، وداويّ معضل الداء، وتركبولي غير تارك للبلاء، وسرجندي كرار، وفريري غير فرار، وفارس يفرس الرجال، وراجل يرجل الفرسان الأبطال، وأزرق زرقة الموت الأحمر، وأنمشي يمشي واليوم أغبر، وأشقر وهو أشقى ، وأبقع إذا غوى في الوغى ما ترك ولا أبقى"[1].

هذه حالهم قبل المعركة، وبعد احتدام القتال يصفهم بقوله مصوراً فداحة خسارتهم:" وما أحسن أجسام أهل الهاوية وهي هاوية، فكم جثة بلا رأس، وبنية بلا أساس، ونَحر قد نُحر، ودم قد أُنهر، ويد قد بُتّت، وكبد قد فتّت، وعنق قد قطع، وأنف قد جدع....،" [2].

ولا يخفى فيما سبق، أن الجناس قد منح النصين السابقين طاقة وقوة جعلت منه نصاً مشحوناً بالمؤثرات، وأتاح للعماد الخوض في التفاصيل الدقيقة لحال الفرنج قبل وبعد المعركة، فهم جاؤا ومن كافة الأجناس ، وتجمعوا على هدف قتال المسلمين، ولكن بعد المعركة تنوعت أشكال القتل فيهم، وحصل لهم ما لا يحمد عقباه.

وقد أكثر العماد في نثره من الجناس المعكوس، وهو ما يظهر براعة ومقدرة على التلاعب بالألفاظ، ومن ذلك قوله في وصف المسجد الأقصى بعد تحريره:" وتحدث الرواة وروى المحدثون، وتحنف الهداة وهدى المتحنفون، وأخلص الداعون ودعا المخلصون، وأخذ بالعزيمة المترخصون، ولخّص المفسرون وفسّر الملخصون"[3]، وبهذا

---

(1) العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص403 ــ 404.

(2) العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، ص404 ــ 405 .

(3) العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، ص138.

يكون العماد قد تفنن في ضروب الجناس، تامه وناقصه ومعكوسه، وأفاد منه في تلوين نثره بالإيقاعات الموسيقية.

وطلباً للتوضيح والاستقصاء وتأكيد المعنى المراد، فقد اتكأ العماد في نثره على الطباق والمقابلة، فكان يسعى إلى نقل صورة واضحة لمجريات الحرب الدائرة آنذاك، ولعل طبيعة الحروب تقتضي هذا اللون من ألوان البديع، فهو يظهر بجلاء مدى تغير الأحوال واختلافها، قبل وبعد المعارك والفتوحات، ومن ذلك قوله في وصف السبايا الصليبيات بعد فتح بيت المقدس:" فكم محجوبة هتكت، ومالكة مُلكت، وعزباء نكحت، وعزيزة منحت، وبخيلة تسمحت، وحيية توقحت، ومجدة مزحت، ومصونة ابتذلت، وفارغة شغلت، وعقيلة امتهنت، وجميلة امتحنت، وعذراء افترعت...." [1].

وفي معرض حديثه عن المتقاعسين عن الجهاد والمتخاذلين عنه، يقابل العماد بين حالهم وحال أبطال الجهاد، ويظهر التضاد والاختلاف بين الفريقين، يقول:" فإذا جبنوا شجعوهم، وإن جنَّبوا رجعوهم، وإن قعدوا أنهضوهم، وإن رقدوا أيقظوهم، وإن رهبوا رغّبوهم، وإن بعدوا قرّبوهم"[2].

ومن ظواهر الصنعة الأخرى التي امتاز بها نثر العماد ظاهرة الترصيع، وتشيع كثيراً لدى العماد، ومن ذلك قوله في وصف المنجنيق:" وتصدم وتهدم، وتصرع وتصدع، وتنهز بدلائها، وتجهز ببلائها، وتحلّ تركيب الجلاميد بأفراد جلاميدها، وتفلّ شمل المباني بتفريقها وتبديدها، وتقوّض القواعد بضربها من أساسها، وتنقض المعاقد بجذبها في أمراسها، وتشفه الموارد بشربها من كأسها"[3].

وهنالك صور أخرى للمحسنات البديعية، أتى بها العماد لتلوين أسلوبه وتوضيح معانيه، ومنها التورية، فكان يستعمل بعض الألفاظ للدلالة على مسميات أخرى، فالمسلمون أهل التوحيد وأهل الجمعة، والنصارى أهل التثليث وأهل الأحد، ومن ذلك قوله:"وبروز التوحيد إلى التثليث، وانتهاض الطيّب لإدحاض الخبيث" [4].

---

[1] العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص135 ـ 136.

[2] العماد الأصفهاني، البرق الشامي، 3/ 136.

[3] العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص126.

[4] العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، ص 64، وانظر: ص66، 135، 137.

ويبدو أن ما حققه العماد في مجال الصنعة الفنية. هو خير شاهد على ذلك العصر، الذي اتصف برواج الزخرف الفني في الكتابة، حتى وصلت إلى حد التكلف، في بعض الأحيان.

ولعل تصوير الحروب وما يتصل بها من عناصر الصراع، يحتاج إلى هذا النوع من الزخرف الفني، بما يمنح النصوص من إيقاعات موسيقية، ودقة وتفصيل في الوصف، وربما متعة القراءة، ولا أدل على ذلك من قول العماد نفسه، حين كتب البشائر بفتح القدس وتحريرها من العدو الغاصب، يقول:" وافتتحت في بشرى الفتح بكتاب الديوان العزيز، وأوردت المعنى البليغ في اللفظ الوجيز، ووشحت ووشعت، وشعبت وأشعبت، وأطلت وأطبت، وصبت وأصبت، وأعجزت وأعجبت، وأطريت وأطربت، وأبعدت وأبدعت، ورصعت وصرّعت، وطابقت وجانست"[1].

ويُستدل من قول العماد هذا، على طبيعة تأثير مدرسة الصناعة على أساليب الكتّاب آنذاك، والتزام العماد بقواعدها، والأدب الذي يصور مجريات الحروب، جزء لا يتجزأ من أدب تلك الفترة، وعليه فإن سمات الأدب بشكل عام في تلك الفترة، ستطغى على روح الكتّاب، وتظهر في إبداعاتهم، أضف إلى ذلك ما تحتاجه أجواء الحرب من استثارة عمادها اللفظ.

4.2.5 التناص

ذكرنا سابقاً أن مسألة التأثر بالنصوص الأخرى هي ظاهرة قديمة في الأدب العربي، وأنها دخلت في مسميات عدة كالاقتباس أو التضمين أو حل المنظوم، وقد ظهر التأثر بالموروث الديني والأدبي والتاريخي جلياً في أدب تلك الفترة، ولاسيما عند العماد الأصفهاني.

ويمثل القرآن الكريم المثل الأعلى للبلاغة والبيان، ولذا فقد أكثر الكتّاب ــ ومنهم العماد ــ من التأثر به، وبثه في ثنايا كتاباتهم ورسائلهم، فهو حجة لا تُدحض، وحقيقة لا تُرفض، وهو حلية الرسائل وزينة الإنشاءات، وهو الذي يَشدّ قُوى الكلام، ويثبت

---

[1] العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص133.

صحته في الإفهام، وإذا خلت الكتابة منه، نُسبت إلى العجز والإخلال[1]، ولذلك فقد أكثر العماد من تأثره بالقرآن الكريم، وورد بكثرة في تضاعيف نثره الفني ورسائله، وجمع العماد بين الاقتباس المباشر للآيات الكريمة تارة، وتوظيفها في نثره تارة أخرى.

وكان العماد يلجأ إلى الاقتباس من القرآن الكريم، بما يتناسب وموضوع المكاتبة، فعندما سطّر بقلمه رسائل التهاني والبشائر بالفتوح الإسلامية، نجده يقتبس من القرآن الكريم ما يتوافق وموضوع الحديث، ومن ذلك كتابه إلى الديوان العزيز في بغداد يبشره فيه بفتح القدس[2]، وقد استهله بقوله تعالى:﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴾[3]، ويشير هنا إلى عودة الأرض المقدسة إلى عباده الصالحين وطرد الغزاة منها.

وفي كتاب آخر بفتح القدس[4]، يصف عظمة هذه المناسبة، وعجز البليغ عن وصفها، ويستشهد بقوله تعالى:﴿ قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾[5]، وهو ما يدل على عظمة الفتح ومدى فرح المسلمين به.

وعندما ينتصر المسلمون على أعدائهم، يصور العماد عزيمة الجيش الإسلامي، التي تفوقت على العدد الكبير للأعداء، وفي ذلك يقول:" وكانت نصرة أثيلة، ونوبة أثيرة، وثورة من أعداء الله في تلك الفورة مستثيرة، وحالة صدّقت قول الله في محكم كتابه﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً﴾[6]، فما ولّوا مدبرين إلا والإدبار وليّهم"[7]، وهو ما يظهر التوظيف المناسب للآية الكريمة.

---

(1) القلقشندي، صبح الأعشى، 1/ 63.

(2) القلقشندي، المرجع نفسه، 517/6.

(3) سورة الأنبياء، الآية 105.

(4) العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص149.

(5) سورة الكهف، الآية 109.

(6) سورة البقرة، الآية 249.

(7) العماد الأصفهاني، البرق الشامي، ص151/3..

وفي حديثه عن الجيش المسلم، يصفه العماد بالكثرة والبركة، يقول:" وكان يوم عرضه مذكراً بيوم العرض، وما شاهده إلّا من تلا﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾[(1)]"[(2)]، وهو هنا يوظف جزءاً من الآية الكريمة في النص، يتوافق مع ضخامة الجيش المسلم المتوجه إلى طبرية.

وحينما يتحدث العماد عن هزائم الصليبيين، ويصور ما حلّ بهم من يأس وقنوط، يضمن عباراته آيات من القرآن الكريم، على اتصال بالموضوع الذي يتحدث عنه، ومن ذلك ما قاله في وصف هزيمتهم:" وانجلت المعركة عن مهلكة عشرة آلاف ﴿فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى﴾[(3)]، وطابت من نتن جيفهم ريح النصر"[(4)]، وهو ما يتناسب مع حالهم وانهزامهم، فكأن الله سلّط عليهم عذاباً، كعذاب قوم عاد فأهلكهم جميعاً.

ويميل العماد في نثره، إلى توظيف القصص القرآني، من خلال الربط بين قصصه وأحداث عصره ووقائعه، فعندما حرر صلاح الدين حلب ولّاها لأخيه العادل سيف الدين، ورأى العماد في ذلك تشابهاً مع قصة سيدنا موسى عليه السلام، عندما طلب منه الله عز وجل أن يشدَّ أزره بأخيه هارون، وعبر العماد عن شكره لله تعالى من خلال اقتباسه للآية الكريمة التي تتناسب والموضوع، وفي ذلك يقول:" وهو كما قال الله تعالى عن موسى عليه السلام :﴿وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي، هَارُونَ أَخِي، اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي، وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي﴾[(5)]، والحمد لله الذي سُعدنا بمساعدته، وأسعدنا بمعاضدته، وأظهرنا بنجدته، وأنجدنا بظاهرته...." [(6)].

ومن الملاحظ أن العماد قد افتنَّ في استخدامه القرآن الكريم في كتاباته، التي يصور فيها مجريات الحروب التي خاضها المسلمون مع أعدائهم، واعتمد في ذلك

---

(1) سورة الفتح، الآية 4.

(2) العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص64.

(3) سورة الحاقة، الآية 7.

(4) العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص78.

(5) سورة طه، الآية 29 ــ 32.

(6) العماد الأصفهاني، البرق الشامي، 5/ 161.

على إيراد الآية الكريمة بلفظها ومعناها، أو بتوظيف جزءٍ منها في نثره، وفقاً لما يقتضيه السياق، ودونما إكثار، مما منح نصوصه رونقاً وجمالاً.

ولم يكتف العماد بالاقتباس من آيات القرآن الكريم، وراح ينهل من مصادر أخرى كالحديث النبوي الشريف، ويبدو تأثره بالحديث الشريف جلياً في مكاتباته، ومن ذلك وصفه للمسلمين في المسجد الأقصى بعد تحريره، وفي ذلك يقول واصفاً العابدين والمصلين:" فهناك كل ولي يبعد ربه ويأمل بره، وكل أشعث أغبر لا يُوبه له لو أقسم على الله لأبرَّه، وهناك كلّ من يحيي الليل ويقومه، ويسمو بالحق ويسومه"[1].

وهو ينظر إلى الحديث الشريف:" ربَّ أشعث أغبر لا يُوبه له، لو أقسم على الله لأبره"[2]، في تصويره لحال المسلمين العابدين في المسجد الأقصى بعد تحريره.

وفي رسالته للديوان العزيز في فتح بين المقدس وتحريره، يصور المسجد الأقصى وقد عاد حراً كما كان، ويستشهد بالحديث النبوي الشريف عن بدء الخلق[3]، فيقول:" فهو قد أصبح حراً، فالزمان كهيئته استدار، والحق بمهجته استنار...." [4].

وكان الشعر العربي يشكل رافداً مهماً في ثقافة العماد، لذا فقد تأثر بأشعار سابقيه التي أمدته بالألفاظ والمعاني، ناهيك عن توظيف بعض منها في نثره، بما يخدم غرضه، ومن ذلك وصفه لفرسان المسلمين ومدى استعدادهم الدائم للقتال، فضمّن ذلك شطراً من بيت للمتنبي يتوافق مع حال المسلمين، وفي ذلك يقول:" وما نزلنا عن الخيل منذ خمسين يوماً، وما طعمنا في هذه الليالي نوماً، ولا سمنا لطارق طيف غمضاً، ولا شمنا إلّا لبارق سيف ومضاً، ولكم قذفتنا المنايا وقد دخلنا لهواتها، وكأن أبا الطيب عنانا بقوله:(وكأنَّما خُلقوا على صَهواتِها).[5]" [6]

---

(1) العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص142.

(2) البخاري، باب والجروح قصاص،حديث رقم4611.

(3) انظر الحديث في: صحيح البخاري، كتاب بدء الخلق، حديث رقم3197.

(4) القلقشندي، صبح الأعشى، 517/6.

(5) ورد بيت المتنبي في الديوان: فَكَأنَّما نُتجت قياماً تحتهم   وكأنَّهم وُلِدُوا على صَهواتِها، المتنبي، الديوان، 1/ 230.

(6) العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص322 ــ 323.

وهو توظيف موفق للتعبير عن حالهم، وطول محاربتهم للأعداء.

ومن مظاهر تأثر العماد بالشعراء السابقين، قوله في فتح قلعة طبرية:" وعدنا إلى طبرية فتسلمنا قلعتها، وحللنا عقدتها، وفرعنا ذروتها، وافترعنا عذرتها"[1]، ولعله في تصوير فتح طبرية، ينظر إلى بيت أبي تمام في فتح عمورية، الذي يقول فيه:

بكرٌ فما افترعها كفّ حادثــةٍ ولا ترقَّت إليها همّةُ النُّوبِ[2]

وفي تصويره لفتح بيت المقدس، يصور هذا الفتح الجليل، وقد عجز أن يحيط به وصف من شعر أو نثر، يقول:"وأعان الله بإنزال الملائكة والروح، وأتى بهذا النصر الممنوح، الذي هو فتح الفتوح، وقد تعالى أن يحيط به وصف البليغ نظماً ونثراً "[3]، ولعله في هذا ينظر إلى قول أبي تمام:

فتحُ الفتوحِ تَعالى أنْ يُحيطَ بــهِ نظمٌ من الشعرِ أو نثرٌ من الخطبِ[4]

ويضمن العماد نثره بعضاً من الأمثال، يخدم بها موضوعه الذي يتحدث عنه، ومن ذلك قوله في وصف حملة المسلمين على أعدائهم وقد أنزلت بهم الهزيمة، يقول:" فرمينا أهل التثليث فيها بثالثة الأثافي، وأوطأناهم بشفاه الشِّفار على حدود الأشافي"[5]، وهو ينظر إلى المثل العربي القائل:" رماه الله بثالثة الأثافي"[6].

ومن ذلك قوله أيضاً يصف الفرنجة وقد ساروا إلى حيفا بعد أن سقطت عكا في أيديهم، معتقدين أنها لقمة سائغة:" ولما فرغ العدو من شغل عكا حسب أن كل بيضة شحمة، وأن كل سوداء فحمة، فرحل على صوب حيفا واقفاً في حيفه...." [7]، وهو مأخوذ من المثل العربي" ما كلّ بيضاء شحمة، ولا كل سوداء تمرة "[8].

---

[1] العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص197.

[2] أبو تمام،الديوان،1/ 48.

[3] أبو شامة، الروضتين، 3/ 347.

[4] أبو تمام، الديوان، 1/ 45.

[5] العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص 100.

[6] يضرب لمن رُمي بداهية عظمية. الميداني، مجمع الأمثال، 1/ 287.

[7] العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص535.

[8] يضرب في موضع التهمة. الميداني، مجمع الأمثال، 2/ 281.

ويبدو أن العماد الأصفهاني كان يميل في نثره إلى التأثر بالموروث الديني والأدبي، بما يخدم غرضه الذي يريد، وساعده في ذلك ثقافته وسعة إطلاعه، مع الإشارة إلى أن موضوع الحرب يحتاج إلى مثل ذلك الاقتباس والتضمين، خاصة إذا ما عرفنا أن الصراع بين والمسلمين والصليبين هو صراع ديني في جوهره.

5.2.5 الصورة الأدبية

يلجأ الأدباء للخيال لتكوين صورهم الفنية، والتي تعطي تصوراً أشمل للفكرة المراد التعبير عنها، فالخيال هو الملكة التي يستطيع بها الأدباء أن يؤلفوا صورهم، وهم لا يؤلفونها من الهواء، إنما يؤلفونها من إحساسات سابقة لا حصر لها، تختزنها عقولهم، وتظل كامنة في مخيلتهم، حتى يحين الوقت، فيؤلفوا منها الصورة التي يريدونها(1)، وبالتالي فإن الصورة تطلق العنان للخيال كي يحول الجمادات إلى محسوسات تنبض بالحياة.

والصورة الفنية هي الوسيلة المعينة للأديب للتعبير عن تجربته، وحتى يتحقق ذلك، فإنها تتطلب تآلف الصور الجزئية في العمل الأدبي، لتكوّن الصورة الكلية التي هي التجربة، وتنقلها لنا نقلاً فنياً واقعياً صادقاً(2)، لذا فقد اهتم العماد في نثره بالصورة الفنية، والتي كانت سمة عامة من سمات العصر الأيوبي(3).

وقد برزت الصورة في نثر العماد بوضوح، فكان يلجأ إلى التصوير القائم على التشبيه والاستعارة والكناية والمجاز، ويركب منها صوراً كلية متناسقة، يتخذ منها وسيلة للتعبير عمّا يعتمل في نفسه من مشاعر، ويوصلها إلى المتلقي توصيلاً موحياً معبراً، حتى استمد العماد صوره من واقع عصره، ومن موروثه وبيئته وثقافته.

وانطلق قلم العماد يرسم صوراً فنية تنبئ عن الواقع الحربي الذي شهدته تلك الفترة، فقد كان الصراع مع الصليبيين على أشده، ومن خلال تصويره لمجريات

---

(1) ضيف، شوقي، 1962م، في النقد الأدبي، دار المعارف ــ القاهرة، ط2، ص167.

(2) خفاجي، محمد عبد المنعم، 1971م، النقد العربي الحديث ومذاهبه، مطبعة الفجالة ــ القاهرة، ص44.

(3) عبد الجليل عبد المهدي، بيت المقدس في أدب الحروب الصليبية، ص390.

الصراع ـ وهو الذي يمثل الجانب الإعلامي في الحرب ـ رسم صوراً للمعارك التي خاضها المسلمون، وصوراً للجيش الإسلامي وجيش العدو، وأبطال الجهاد وتضحياتهم، والأسلحة المستخدمة وأنواعها، ونتائج المعركة بالنسبة للطرفين، فكانت صوره معبرة عن مجريات الصراع الذي انتهى بطرد العدو الغاشم من البلاد الإسلامية.

وتطالعنا في هذا المقام صورة الجيش الإسلامي بعناصره البشرية وأسلحته ومعداته الحربية، وهو جيش كثير العدد والسلاح، يمتاز بقوة عزيمته وحبه للجهاد والتضحية في سبيل الله، وفي ذلك يقول العماد مصوراً جيش صلاح الدين المتوجه إلى حطين:" أصبح بالمخيم عارضاً من العسكر لعارض ثجاج، وبحر بالعجاج عجّاج، وخضم بالصواهل السوابح والمناصل والصفائح ذي أمواج، وقد رتّب أبطاله وأطلابه، وسحب على وجه الأرض سحابه، ونقل به من الثرى إلى الثريا ترابه، وأطار إلى النسر الواقع من الغبار غرابه، وقد فضّ الفضاء ختام القتام، وشُدت للشدائد كتب الكبت على حَمام الحِمام، وحنت ضلوع الحنايا على أجنة السهام، وتكفلت العوجاء بالمعتدلة، وضمت المنفلتة إلى المنفتلة، ووفَّت الأوتار بالأوتار، وثار كل طُلب لطلب الثار، ووقف السلطان يوم العرض يرتب العسكر ترتيباً، ويبوبه تبويباً، ويعبيه بعيداً وقريباً، وقرر لكل أمير أمراً، ولكل مقدام مقاماً، ولكل موفق موقفاً، ولكل كمين مكاناً، ولكل قرن قراناً، ولكل جمر مطفئاً، ولكل جمع مكفئاً، ولكل زند مورياً...." [1].

وتظهر هنا عناصر صورة الجيش الإسلامي، التي تصور كثرته وضخامته، كصورة المطر الغزير والبحر، وغباره الذي وصل حد السماء وشكل سحابة غطت وجه الأرض، وهي صور جزئية مستمدة من الطبيعة، تلتحم فيما بينها لتكون صورة الجيش الإسلامي بجنوده وأسلحته، كما تظهر في هذا النص صورة استعداد هذا الجيش وتعبئته العسكرية، وأبرز الصفات المعبرة عن قوة أفراده وعناصره، واعتمد العماد في إبراز ضخامته على عناصر اللون والحركة عندما وصف زحف هذا الجيش وحركته، وتعدد أسلحته وألوانها، واعتمد أيضاً على التشخيص والتجسيم عندما صور القائد البطل ينظّم الصفوف ويعين القادة، ويستعير لهم الصفات التي تدل على شجاعتهم.

---

[1] العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص69.

كما أبرز العماد صورة الجيش الصليبي، وصور قادته وجنوده وأسلحته وحركته، وفي ذلك يقول:" وخرجوا يوماً قبل العصر، في عدة كالليل خارجة عن الحصر، قد التأموا واستلأموا، وانضموا وانتظموا وتقدموا وأقدموا للطوارق حاملين، وللجمالات مطرقين، وعلى الفرق مجتمعين وللجماعات مفرقين، وبالرهق جادين وبالجد مرهقين، وللعقود حالين، ومن الغمود سالين، وللمناصل منتضين، وللطوائل مقتضين، وللسيوف مجردين، وللسيول مجرين، وبالزغف ملتثمين، وفي الحتف مقتحمين، وبالقنطاريات طائرين، وبالزّيّارات زائرين، من كل مغوار وار، ومحضار ضار، وفجّار جار، وجبّار بار، وعدو عنود، وكند كنود، وداويّ ذي دويّ، وبارونب غويّ، ومن كل مصمِّمٍ إذا وتر، مُصْمٍ إذا أوتر، مصمّ إذا نعر، مصرّ إذا ذعر، هائج إذا استعر، مائج إذا ذخر، متنمر إذا زأر، متذمر إذا زحر، فتناوبوا وتواثبوا، وتجاولوا وتجاوبوا"[1].

وتظهر صورة الجيش الصليبي كما صوره العماد، وقد خرج عن الإحصاء لكثرته، قد استعد للمعركة بمختلف أنواع الأسلحة، وفيه خليط من الجنسيات المتعددة، واستخدم لذلك الألفاظ التي تدل على كثرتهم وقلة بركتهم في نفس الوقت، فجيشهم يشتمل على الفجّار والغواة، وهم في الشجاعة هائجين مائجين، يتواثبون كالنمور المفترسة، فهو جيش يمتاز بكثرته وشراسته، وقد اعتمد الاستعارة وكنّى عن شجاعتهم وكثرتهم، كما استغل عناصر الحركة وعناصر الصوت التي تدل على جيش عظيم يتحرك ضمن خطة عسكرية محكمة.

وينقل العماد في جوٍّ مشحون بالمؤثرات، صورة المعركة والاحتدام بين الجيشين، فيقول:" فلم يسمع إلا أنين الحنية، لحنين المنية، ورنين الأوتار من كنين الأوتار، وهفيف السهام لذفيف اللهام، وصليل بنات الغمود، من غليل أبناء الحقود، وهمهمة الأبطال، وغمغمة الأقتال، وزئير الضرغام، وزفير الضرام، وقرع الظبا بالظبا، ووقع الشبا على الشبا، وضجة الحديد من الحديد، وعجة الشديد من الشديد، وجعجعة رحى الحرب، وقعقعة أداة الطعن والضرب، وجرجرة الفحول، وزمجرة الذحول، وهديل حمام الحمام، وهدير قروم الإقدام، ووعوعة ذئاب الوغى ومعمعة التهاب اللظى، ودعدعة صاع المصاع، وجلجلة سباع القراع، وصلصلة الزبر، وولوعة الزمر، وحيعلة دعاة

---

(1) العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص164 ـ 165.

النصر، وهيضلة رعاة الكفر، ورفرفة المريشات الراشقة، وهسهسة الطعنات الفاهقة، وهزهزة أعطاف المران، وزهزهة أصوات الشجعان، ونعير الغالبين، وصخب السالبين، ولجب الجالبين، وزجير الطالبين، ونهيت الأسود، وقصيف الرعود...." [1].

ولا يخفى أن العماد اعتمد في إبراز صورة المعركة على صور جزئية، كصورة الأسلحة وصورة اللقاء بين الطرفين، واستخدم لذلك التشبيهات والاستعارات والكنايات، في وصفه للجنود وأسلحتهم، كما استخدم عناصر اللون والحركة، وأكثر من الصور السمعية والبصرية، ولا ننسى اعتماده على التشخيص والتجسيم، فكل هذه العناصر ساهمت في رفد صورة المعركة، فكأننا نستمع ونشاهد بل ونتفاعل بجميع حواسنا مع المعركة، وهذا ما أراده العماد.

وبعد انتهاء المعركة يصور العماد ما آلت إليه، فقد انتصر المسلمون وهُزم الكافرون، يقول:"وصارت تلك المعركة بالدماء دأماء، وعادت الغبراء حمراء، وجرت أنهار الدم المنهمر، وسفر بتلك الخبائث المظلمة وجه الدين المطهر....، وهنالك العتاة عُناه، والعداة عراه، وذوو الأسرة أسرى، وأولوا الأثرة عثرى، والقوامص قنائص، والفوارس فرائس، وغوالي الأرواح رخائص، ووجوه الداويّة الداوِية عوابس، والرؤوس تحت الأخامص، ومطالع الأجسام ذوات المقاطع والمخالص، فكم أصيد صيد، وقائد قيدّ وقيد، ومشرك مكشر، وكافر مكفر، ومثلث منصف، ومكيف مكتف، وجارح مجروح، وقارح مقروح، وملك مملوك، وهاتك مهتوك...." [2].

من الملاحظ أن العماد في تصويره لنهاية المعركة، قد صوّر المصير الذي حلّ بالعدو، فقد لحق به أشد الأذى، وتحولت الأرض إلى بحر من دمائهم، وتبدلت أحوال قادتهم وملوكهم، وعساكرهم وجنودهم، واعتمد العماد في تصويره لمصيرهم على التشبيه والاستعارة لتعبر عن ذلهم وانكسارهم وتقلب أحوالهم، وهذه نتيجة كل معتدٍ وباغٍ.

وهكذا رسم العماد الخطوط العريضة في تصويره للحرب، فصور الجيش الإسلامي والجيش الصليبي، وصور المعركة بينهما، وكذلك النتيجة التي أفضت إليها،

---

[1] العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص165 ـ 166.

[2] العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، ص82 ـ 83.

ولكي تكتمل الصورة عند العماد، فقد حاول إبراز جوانب أخرى للحرب وللصراع بين الطرفين .

ومن هذه الجوانب دعوته إلى الوحدة الإسلامية وحثه على الجهاد، وقد اتخذ من تصويره للخطر الصليبي المحدق بالأمة وسيلة لذلك، ومن ذلك تصويره لكثرة الإمدادات الصليبية والتي تشبه في كثرتها زبد البحر، ويختار لهذا العدو ألفاظاً يكني فيها عن الخطر الشديد على الأمة الإسلامية، فهو شرٌّ وجمرٌ، ومن ذلك تصويره لوصول ملك الألمان:" فقد قذف البحر من الفرنج بزبده، والبر أتى أتيّه من كل بلد للكفر بسبده ولبده، ووصل الألماني المخذول بعدده وعُدده، وهذا خطب قد دهم، وعدو قد هجم، وشرٍّ قد نجم، وجمر داهية قد وقَد، وجمع طاغية قد وفد، في جيوش جائشة، وجموع طائشة، وجنود محشورة، وبنود منشورة"[1] .

ومن ذلك أيضاً تصويره لضرورة المسارعة في تحرير البلاد واستنهاض همم المسلمين، فقد شبّه ما أصاب الإسلام بالكسر الذي يحتاج جبر، وشبه توقف الانتصارات وما أصابها من ضعف، بالعُقدة التي تحتاج إلى حلٍّ، واستئناف مسيرة النصر، يقول:" ووجب على كل مسلم أن ينهض لنصرة الإسلام، ويتدارك ما حدث من الكسر والوهن بالجبر والإحكام، ويعيد ما وهى من عقدة الفتوح إلى النظام "[2] .

وعندما كان المسلمون يحققون الانتصارات، كان العماد يبادر إلى نقل التهاني والبشائر إلى كافة أقطار العالم الإسلامي، ويصور مشاعر الفرح والسرور، التي انتابت الناس والأماكن المحررة، وكان العماد في تصويره للأماكن المقدسة بعد تحريرها، وكي يظهر فرحتها، يشخّصها ويجعلها تنطق لتعبر عن فرحتها، ومن ذلك قوله في تحرير بيت المقدس:" وقال المحراب لأهله مرحباً وأهلاً ....، وغسلت الصخرة المباركة بدموع المتّقين من دنس المشركين "[3] .

ولم تكن التهاني والبشائر تدبج بالفتوح والانتصارات فقط، بل في مناسبات أخرى، كوصول الأسطول المصري، وقد صور العماد وصول سفن الأسطول

---

[1] العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص401.

[2] أبو شامة المقدسي، الروضتين، 4/ 270.

[3] العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص147 ــ 148.

المصري، واختار لهذه السفن ما يدل على ضخامتها وقوتها، مستغلاً عناصر الصورة من صور حركية وصور بصرية، وفي ذلك يقول:" وجاءت سواريها كالرواسي، وجواريها محكمة المراسي....، ومن كل جبل يمرّ مرّ السحاب، وضامر يشد شد العراب، وعقاب محلق على الشرك في مطار العقاب، وغراب ناعب في أعداء الله ببين الأحباب، وهضبة موفية على الهضاب، وقطعة وافية من الكافرين بقطع الرقاب، وما أحسنها وقد زفتْ عرائس، وجليت أوانس...." [1].

وللبطل دور مهم في هذا الصراع، فهو القائد الأعلى للجيوش، وهو المخلّص والمنقذ للأمة، وعندما يدخل مدينة نجدها تفرح بدخوله وتعمّ الفرحة أركانها، ومن ذلك تصوير العماد لمدينة دمشق وقد كانت جثة هامدة، عادت إليها الروح بدخول البطل المظفر صلاح الدين، يقول:" ودخل المدينة، وأدخل إليها السكينة، فوجدت الروح بسلطانها، وعادت الروح إلى جثمانها، وقرّت به عيون أعيانها، وأقرت له بحسنها وإحسانها"[2] .

ولأن الأسلحة تشكل عاملاً مهما في حسم الصراع، فقد حاول العماد أن يبرز دورها في المعارك، وأثرها في الأعداء، من خلال رسم صورة معبرة عن حالها في الحرب، فجعلها ترقص على أجسادهم، وتقف خاطبة على أعناقهم، وترعى في أجسادهم، وفي ذلك يقول:" وهناك عرف أهل الثبات وثبت أهل العرفان، ورقصت المرّان على أشاجع الشجعان، والتفت العنان بالعنان، والتقى السِّنان بالسِّنان، وخطبت الصوارم على منابر الطلى، ورتعت اللهاذم في كلأ الكُلى "[3] .

وتتجلى براعة العماد في الوصف والتصوير، في وصفه الدقيق للحصون والقلاع، فكان حريصاً على إبراز الجزئيات والتفصيلات، ويظهر ذلك حينما يصور لنا حصناً من حصون الأعداء، فنجده ينقلنا بخياله إلى ذلك الحصن أو تلك القلعة، ويجعلنا نحس أننا أمام ما يصف، بل ويجعلنا نتعجب من روعة البناء وشدة الحصانة.

---

[1] العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص388.

[2] العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، ص214.

[3] العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، ص314.

ومن ذلك وصفه لحصن صهيون، يقول:" وأخذنا على سمت صهيون، وهو حصن يفوق الحصون، ويفوت العيون، وطلبناه كما يطلب الدائن المديون....، وكان الطريق إليه في أودية وشعاب، ومنافذ صعاب، ومضايق غير رحاب، وأوعاث وأوعار، وأنجاد وأغوار....، وهي قلعة على ذروة جبل مجتمع في واديين، بها محيطين من جانبين، والجانب الجبلي قد قطع بخندق عميق، وسور وثيق، والقلعة ذات أسوار خمسة كأنها خمس هضاب، ممتلئة بذئاب سغاب، وأُسد غضاب...." [1].

وينوع العماد في صوره الفنية، ويحاول التجديد فيها، ومن ذلك تصويره للمنجنيق بالإنسان الذي يقيم الشرع على من خالفه، فجعل منه إنساناً يرجم الزاني المحصن وقد أقام عليه الحد، يقول في وصف عمل المنجنيق في أسوار حصن الكرك:"وقامت الحرب من المنجنيق على ساق، وأقمنا من نصر الله على أوكد ميثاق....، ولم يزل يُرجم الحصن الزاني وتُهدم المباني"[2].

وبالنسبة لمصادر الصورة عند العماد الأصفهاني، فقد تنوعت بتنوع موضوعاته الخاصة بالحرب، فكان يستمد بعض صوره من واقعه الحربي ومشاهد الحروب التي شهدها، وكان يستمد بعضها الآخر من موروثه الديني أو الأدبي، وبعضها الآخر من الطبيعة بعناصرها المختلفة، أو من مخزون ثقافته وإلمامه بأدوات الكتابة في عصره.

ويشكل القرآن الكريم مصدراً مهماً عند العماد، استلهم منه كثيراً من صوره، ومن هذه الصور المقتبسة من القرآن الكريم، صورة الأسرى وقد شبههم بالسكارى نتيجة انهزامهم وانكسارهم[3]، وصورة النجوم وهي ترجم الشياطين تتشابه مع سيوف المسلمين التي تنقض على رقاب شياطين الكفر[4].

ومن الصور التي استمدها العماد من الطبيعة صورة الأسلحة وتأثيرها على العدو، فقد اختار لها أوصافاً منتزعة من الطبيعة، من خلال التشخيص والتجسيم، يقول:" وتيقظت الأقدار للإقدار على إيقاظ عيون البيض لإجراء دم الشرك المطلول،

---

(1) العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص241.

(2) العماد الأصفهاني، البرق الشامي، ص 5 / 154.

(3) العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص449.

(4) العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، ص148.

وتنزل البركات في انتجاع المراق من نجيع المارقين لإنزال نص النصر على النصل المسلول، وقد آن أن ترعى الحشاشات منهم على رعي الحشيش، ويطير إلى أوكار المقل طير السهم المريش، وترتع ثعالب العوامل في عشب الكُلى، ويطن ذباب المناصل في لوح الطلى، وترن رقاق المرهفات في الرقاب رنين الخطب على الأعواد، وتذوب قلوب علوج الكفر من نار الرعب ذوب الثلوج على رؤوس الأطواد، وتحمل أشجار القنا بثمر الهام، ويجيش الفضاء المعشب بزهر الجيش اللّهام، ويقطف ورد الموت الأحمر من ورق الحديد الأخضر، ويوقف حدّ الهندي الأبيض على قصر بني الأصفر، ويجري في ورد الوريد جداول البواتر، وترمي من الحصن العاديات إلى حصون العدا جنادل الحوافر...." [1].

ومن المصادر الأخرى التي ترفد الصورة عند العماد، ثقافة الكاتب وأدواته، ومن ذلك تصوير العماد لرؤوس الأعداء بالثمار التي قد حان وقت حصادها، يقول:" ولقد أينع زرعها وثمرها من رؤوس المشركين، وهذا أوان حصادها وقطافها"[2]، وهو ينظر إلى قول الحجاج في خطبته المشهورة:" إني أرى رؤوساً قد أينعت، وحان قطافها، وإني لصاحبها"، وهو قول مشهور.

ويبدو أن العماد قد أظهر مقدرة فنية عالية في نقله لمجريات الصراع في عصره، ليس كشاهد عيان فقط، بل كمصور بارع اعتمد على نقل الصور الجزئية والكلية، واستمد من خياله الخصب بتشبيهاته وكناياته واستعاراته ومجازاته، أجمل الصور وأبدعها، مطعِّماً إيّاها بعناصر الصورة من لون وحركة وصور حسيّة، إضافة إلى اعتماده التشخيص والتجسيم في نقل التفاصيل والحيثيات، تعداها أحياناً إلى الابتداع والتجديد في صورته الفنية.

---

[1] العماد الأصفهاني، الفتح القسي، ص283.

[2] العماد الأصفهاني، المرجع نفسه، ص148.

الخاتمة

تناولت هذه الدراسة أدب الحرب عند العماد الأصفهاني، ودوره في البناء الفكري والحضاري، لعصر كثرت فيه الحروب والمعارك، بين المسلمين المدافعين عن أرضهم ومقدساتهم، وبين الصليبيين القادمين للاستيلاء على الأرض الإسلامية ونهب خيراتها.

وقد بدأتْ هذه الدراسة بسيرة العماد، فكشفت عن أهم مراحل حياته، وعصره الذي عاش فيه، ومصادر ثقافته، وأعماله ومناصبه، ومصنفاته؛ وذلك لبيان تفاعله مع أحداث عصره، وتأثيرها في أدبه وشخصيته.

وبيّنت الدراسة الدور الذي اضطلع به أدب العماد، في مواجهة الغزو الصليبي للبلاد الإسلامية، والذي تمثل في الدعوة إلى الوحدة بين الأقطار الإسلامية، والحثِّ على الجهاد واستنهاض همم المسلمين.

وضمن الدور الذي أدّاه أدب العماد، في تصويره لأحداث الصراع القائم بين المسلمين وأعدائهم، فقد رسم العماد صوراً للمعارك والحروب بين الطرفين المتحاربين، وخاض في تفاصيلها الدقيقة، من لحظة تحرك الجيوش، وحتى وصولها أرض المعركة، وصور كذلك الاحتدام والقتال، والخطط العسكرية المتبعة، وما أسفرت عنه نتيجة المعركة، وأثر ذلك على الطرفين المتحاربين.

وقد عبَّر العماد عن إعجابه الشديد بالجيش الإسلامي، فوصف شجاعة جنوده واستبسالهم في ميادين القتال، وتحدث عن أسلحة الجيش الإسلامي وفتكها بالأعداء، وعن مدى جاهزيَّته واستعداده الدائم للقتال، وتضحيته في استعادة مقدساته والدفاع عنها، وراح يمجِّد بطولاته وانتصاراته على أعدائه، ويدبِّج في ذلك التهاني والبشائر التي تتغنى بهذه الانتصارات العظيمة.

وبيَّنت الدراسة كذلك، جوانب شخصية البطل المسلم، والتي تمثلت فيها الصورة المثلى للبطل المسلم، بما يتحلى به من صفات وفضائل، أهَّلته لقيادة الأمة الإسلامية، والإشادة بدوره في توحيد الأمة ولمِّ شملها، ودوره في قيادة المعارك والتخطيط لها، وتحقيق الانتصارات على العدو الغاشم.

وكان العماد في تمجيده لشخصية البطل المسلم، يوازن بين أبطال الجهاد، وبين المتقاعسين والمتخاذلين عن أداء دورهم الجهادي ضد الأعداء، كما بكى العماد أبطال الجهاد، ورثاهم وعدد مناقبهم الحميدة، ودعا لهم بالرحمة والمغفرة، وبيَّن أن خسارة المسلمين عظيمة ، وأن مصابهم جلل.

وفيما يتعلق بصورة الصليبيين، فقد ركَّز العماد على إبراز الخطر الصليبي الذي يتهدد الأمة الإسلامية، وبيَّن أن الصراع بين الأمتين هو صراع ديني في جوهره، وإن حمل في الظاهر أبعاداً حضارية، ومن أجل ذلك نجده يصور جيوشهم الغازية، وما تحويه من أجناس وعرقيَّات مختلفة، اجتمعت على حرب الإسلام.

ولذلك كان العماد يركز على تصوير هزائمهم، ويظهرهم في حالة من الذُّل والهوان، فيصورهم قتلى وجرحى وأسرى، بل يتعدى ذلك إلى وصف حصونهم ومعاقلهم، ويصور حجم الدمار والخراب الذي لحق بها، لأنهم طغاة معتدون، وليسوا أصحاب حق.

وكثيرا ما نجد العماد، يسخر منهم ويستهزئ بهم، عندما يكون الحديث عن هزائمهم وفرارهم أمام الجحافل الإسلامية، وكذلك عند الحديث عن معتقداتهم الدينية، وعاداتهم وتقاليدهم التي جلبوها معهم، ويحاول أن يظهر الفجوة الواسعة بينهم وبين المسلمين.

وقد اهتمت الدراسة بالجانب الفني للشعر والنثر، ففي الشعر كان العماد حريصاً على التزامه بالعناصر الرئيسة في بنائه للقصيدة، من ابتداء وحسن تخلص وخاتمة، مع اهتمام بوحدة الموضوع، كما أنه كان يميل إلى استخدام لغة قوية وجزلة، تتناسب مع الحرب، وكان ينوع في أساليبه، بما يخدم غرضه المراد ومقتضى الحال، إضافة إلى تنويعه في استخدام المحسنات البديعية.

أما صورته الشعرية، فقد اتكأ في رسمها على موروثه الديني والأدبي، واستمدها كذلك من واقعه الحربي ومن عناصر الطبيعة الحية، واعتمد في إظهارها على ضروب البيان المختلفة، من تشبيه واستعارة وكناية ومجاز، واستخدامه لعناصر الصورة الحركية والحسِّية.

وبالنسبة لنثره، فلم يخرج العماد عن القواعد الفنية المتبعة في عصره، فكان يهتمُّ بالبناء الفني لرسائله، من حسن استهلال ومقدمة وخاتمة ووحدة الموضوع، وقد اختار لها ألفاظاً تتناسب ودورها الإعلامي الذي نهضت به، كما أنه نوَّع في أساليبه بما يتناسب مع الحرب، ويعبر عن واقع الصراع، ولا يخفى أنه قد أكثر من استخدامه للبديع في نثره، حتى غدا الوصول إلى الحقيقة أمراً يحتاج إلى جهد إضافي، من قبل القارئ.

وأظهرت الدراسة تأثر العماد بالموروث الديني والأدبي، وشيوع بعض الأسماء غير العربية، والمصطلحات الدينية والعسكرية، وقد رسم العماد في نثره صوراً أدبية مختلفة، انتزعها من واقعه، ومن موروثه، ومن ثقافة عصره، وأظهرها في ضروب البيان المختلفة، وطعَّمها بعناصر الصورة المتعدّدة.

وأخيراً، فقد كشفت الدراسة عن الجانب الإعلامي الذي مثَّله العماد، في تصويره لأحداث الصراع الدائر آنذاك، وأظهرت مقدرته الفنية في تغطيته للأحداث السياسية والحربية، وسلَّطت الضوء على جوانب مهمة من الحياة السياسية والفكرية والاجتماعية وحتى الاقتصادية، في ذلك العصر.

المراجع

إبراهيم، محمود،(1988م)، **صدى الغزو الصليبي في شعر ابن القيسراني**، دار البشير ـ عمّان، ط2.

ابن الأثير، علي بن محمد الجزري (ت 630 هـ)، (د.ت) **الكامل في التاريخ**، راجعه محمد يوسف الدقاق، دار الكتب العلمية ـ بيروت، ط2.

البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل، (د.ت) **صحيح البخاري**.

بدوي، أحمد أحمد،(1994م)، **أسس النقد الأدبي عند العرب**، دار نهضة مصر ـ القاهرة.

بدوي ، أحمد أحمد، (1979م)، **الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية**، دار نهضة مصر للطباعة والنشر ـ القاهرة، ط2.

بدوي، عبد الرحمن، (1972م)، **مؤلفات الغزالي**، وكالة المطبوعات ــ الكويت، ط2.

بركات، وفيق، (1955م)، **فن الحرب البحرية**، معهد التراث العلمي ــ جامعة حلب.

بروكلمان، كارل، (د.ت) **تاريخ الأدب العربي**، دار المعارف ــ الاسكندرية، ط2.

بشار بن برد، (1954م)، **ديوان بشار**، بشرح محمد الطاهر بن عاشور، مطبعة لجنة التأليف والترجمة ــ القاهرة.

البصري، صدر الدين علي بن الحسين،(د.ت) **الحماسة البصرية**، تحقيق مختار الدين أحمد، عالم الكتب ــ بيروت، ط3.

بكّار، يوسف، (1979م)، **بناء القصيدة العربية**، دار الثقافة ــ القاهرة.

البنداري، الفتح بن علي (623هـ)، (1979م)، **سنا البرق الشامي**، تحقيق فتحية النبراوي، مكتبة الخانجي.

ابن تغري بردي، جمال الدين أبو المحاسن يوسف، (ت 874هـ)، (1992م) ،**النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**، قدمه وعلق عليه محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية ـ بيروت، ط1.

أبو تمام،(1951م)، **الديوان**، بشرح الخطيب التبريزي، تحقيق محمد عبده عزّام، دار المعارف ــ مصر.

جب، هاملتون. آ. ر، (1996م)، **دراسات في التاريخ الإسلامي**، صلاح الدين الأيوبي، حرّرها يوسف ايبش، بيسان للنشر والتوزيع ــ بيروت، ط2.

ابن جبير،(د.ت) **رحلة ابن جبير**، دار صادرــ بيروت.

الجرجاني، علي بن عبد العزيز(ت 392هـ)، (د.ت) **الوساطة بين المتنبي وخصومه**، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم وعلي محمد البجاوي، دار القلم ــ بيروت.

ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي، (ت597هـ)، (1992م)، **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم**، دراسة وتحقيق محمد عبد القادر عطا ومصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية ــ بيروت، ط1.

الحسو، أحمد عبد الله، (2005م)، **الكرك عبر العصور**، منشورات وزارة الثقافة، عمان ــ الأردن.

حسين، محسن محمد، (1986م)، **الجيش الأيوبي في عهد صلاح الدين**، مؤسسة الرسالة ـ بيروت، ط1.

الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت ، (ت826هـ)، (1993م)، **معجم الأدباء**، تحقيق إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي ـ بيروت، ط1.

الحموي ، ياقوت (ت862 هـ)، (1977م)، **معجم البلدان** ، دار صادرــ بيروت.

خفاجي، محمد عبد المنعم،(1971م)، **النقد العربي الحديث ومذاهبه**، مطبعة الفجّالة ــ القاهرة.

ابن خلكان ، أحمد بن محمد(ت681 هـ)،(1977م)، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، تحقيق إحسان عباس، دار صادر ــ بيروت.

خليفة، حاجي، (1947م)، **كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون**، المكتبة الجعفرية ــ طهران.

دوزي، رينهارت،(1980م)، **تكملة المعاجم العربية**، نقله إلى العربية محمد سليم النعيمي، دار الرشيد للنشرــ العراق.

الذهبي، محمد بن أحمد، (ت748هـ)، (1996م)، **سير أعلام النبلاء**، تحقيق بشار عوّاد معروف ومحيي هلال السرحان، مؤسسة الرسالة ـ بيروت، ط11.

الرقب، شفيق محمد، (1993م)، **الشعر العربي في بلاد الشام في القرن السادس الهجري**، دار صفاء للطباعة والنشر والتوزيع ــ عمان.

الزركلي، خير الدين، (1980م)، **الأعلام**، دار العلم للملايين ــ بيروت، ط5.

الزعبي، أحمد، (1995م)، **التناص نظرياً وتطبيقياً**، مكتبة الكتّاني، إربد - الأردن، ط1.

زكي، عبدالرحمن،(1951م)، **السلاح في الإسلام**، دار المعارف ــ القاهرة.

زيان، حامد زيان غانم، (1983م)، **الصراع السياسي والعسكري بين القوى الإسلامية زمن الحروب الصليبية**، دار الثقافة للنشر والتوزيع ـ القاهرة.

الساريسي، عمر عبد الرحمن، (1985م)، **نصوص من أدب الحروب الصليبية**، دار المنارة ــ جدة، ط1.

سبط ابن الجوزي، يوسف بن قزاوغلي (ت 654هـ)،(1951م)، **مرآة الزمان في تاريخ الأعيان**، مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر أباد الدكن - الهند، ط1 .

السبكي، عبد الوهاب بن علي (ت 771هـ)، (1968م)، **طبقات الشافعية الكبرى**، تحقيق عبد الفتاح الحلو ومحمود الطناحي ، دار إحياء الكتب العربية - القاهرة.

سلّام ، محمد زغلول،(1967م)، **الأدب في العصر الأيوبي**، دار المعارف ــ القاهرة.

سلّام، محمد زغلول،(1964م)، **تاريخ النقد العربي**، دار المعارف ـــ مصر.

سميل، ر. سي، (1985م)، **فن الحرب عند الصليبيين**، ترجمة محمد وليد الجلاد، مركز الدراسات العسكرية ــ دمشق، ط1.

السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن(ت911هـ)، (1967م)، **حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة**، تحقيق أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية ــ القاهرة، ط1.

أبو شامة المقدسي (ت665هـ)، (1997م)، **الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية**، تحقيق إبراهيم الزيبق، مؤسسة الرسالة ـــ بيروت، ط1.

الشيبي، كامل،(1972م)، **ديوان الدوبيت في الشعر العربي**، منشورات الجامعة الليبية ـ ليبيا.

الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك(ت 764هـ)، (1975م)، **الغيث المنسجم في شرح لامية العجم**، دار الكتب العلمية ــ بيروت.
الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك(ت764هـ)، (1931م)، **الوافي بالوفيات**، باعتناء :هـ. ريتر، مطبعة الدولة لجمعية المستشرقين الألمانية ــ استانبول .
ضيف، شوقي، (1970م)، **البطولة في الشعر العربي**، دار المعارف ــ القاهرة، ط2.
ضيف، شوقي، (1962م)، **في النقد الأدبي**، دار المعارف ــ القاهرة، ط2.
ابن ظافر، الأزدي (ت613هـ)، (1970م)، **بدائع البدائه**، تحقيق أبو الفضل إبراهيم، مكتبة الأنجلو المصرية ــ القاهرة.
عاشور، سعيد عبد الفتاح، (1978م)، **الحركة الصليبية**، مكتبة الأنجلو المصرية ــ القاهرة، ط 3.
عبد المهدي، عبد الجليل حسن، (1989م)، **بيت المقدس في أدب الحروب الصليبية**، دار البشير ــ عمان، ط1.
العريني، السيد الباز،(1967م)، **الشرق الأدنى في العصور الوسطى(الأيوبيون)**، دار النهضة العربية للطباعة والنشر ــ بيروت.
العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله(ت 395هـ)، (1952م)، **الصناعتين**، تحقيق علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية ــ القاهرة، ط1.
عصفور، جابر، (1983م)، **الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب**، دار التنوير ــ بيروت، ط3.
العماد الأصفهاني، محمد بن محمد، (1987م)، **البرق الشامي**،ج3، تحقيق فالح حسين، مؤسسة عبد الحميد شومان ــ عمان، ط1.
العماد الأصفهاني، محمد بن محمد، (1987م)، **البرق الشامي**، ج5، تحقيق مصطفى الحياري، مؤسسة عبد الحميد شومان ــ عمان، ط1.
العماد الأصفهاني، محمد بن محمد،(1955م)، **خريدة القصر وجريدة العصر**، قسم العراق، بتحقيق محمد بهجة الأثري وجميل سعيد، مطبوعات المجمع العلمي العراقي.

العماد الأصفهاني، محمد بن محمد،(1951م)، **خريدة القصر وجريدة العصر**، قسم شعراء مصر، تحقيق أحمد أمين وشوقي ضيف وإحسان عباس، لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ القاهرة.

العماد الأصفهاني، محمد بن محمد،(1983م)، **الديوان**، جمع وتحقيق ناظم رشيد، كلية الآداب ـ جامعة الموصل.

العماد الأصفهاني، محمد بن محمد،(1900م)، زبدة النصرة ونخبة العصرة " **تاريخ دولة آل سلجوق** " اختصار الفتح بن علي البنداري، مطبعة الموسوعات بشارع باب الحلق ــ مصر.

العماد الأصفهاني، محمد بن محمد،(1965م)، **الفتح القسي في الفتح القدسي**، تحقيق محمد محمود صبح، الدار القومية للطباعة والنشر ـ القاهرة.

ابن العماد الحنبلي، عبد الحي بن أحمد، (ت1089هـ)، (د.ت) **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**، دار إحياء التراث العربي ـ بيروت.

عوض، محمد مؤنس، (2004م)، **التنظيمات الدينية الحربية في مملكة بيت المقدس اللاتينية**، دار الشروق للنشر والتوزيع ــ عمّان، ط1.

الغامدي، مسفر بن سالم، (1986م)، **الجهاد ضد الصليبيين في الشرق الإسلامي**، دار المطبوعات الحديثة ــ جدة، ط1.

ابن الفوطي، عبد الرزاق أحمد، (ت723هـ)، (د.ت) **تلخيص معجم الآداب في معجم الألقاب**، تحقيق مصطفى جواد ، دار المكتبة الوطنية الظاهرية ــ دمشق، ط2.

القلقشندي، أحمد ابن علي(ت821هـ)، (1913م)، **صبح الأعشى في صناعة الإنشا**، مطبعة دار الكتب المصرية.

القيرواني، أبو الحسن بن رشيق(ت 456هـ)، (1972م)، **العمدة في محاسن الشعر**، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل ـ بيروت، ط4.

ابن كثير، عماد الدين أبو الفداء، (ت774هـ)، (د.ت) **البداية والنهاية**، تحقيق أحمد أبو ملحم ورفاقه، دار الكتب العلمية ــ بيروت، ط3.

كيلاني، سيد محمد،(1949م)، **الحروب الصليبية وأثرها في الأدب العربي في بلاد الشام ومصر**، دار الكتاب العربي ـ مصر.

المتنبي، أبو الطيب أحمد بن الحسن(ت 354هـ)، (د.ت) **الديوان**، تحقيق عبد المجيد دياب، دار المعارف ـ القاهرة.

المطوي، محمد العروسي، (1982م)، **الحروب الصليبية في المشرق والمغرب**، دار الغرب الإسلامي ـ تونس، ط2.

مقامي، نبيلة إبراهيم،(1994م)، **فرق الفرسان الرهبان في بلاد الشام**، مطبعة جامعة القاهرة.

ابن مماتي، الأسعد (ت606هـ)، (1991م)، **قوانين الدواوين**، تحقيق عزيز عطية، مكتبة مدبولي ـ القاهرة، ط1.

موسى باشا، عمر، (1989م)، **الأدب في بلاد الشام**، دار الفكر ـ بيروت، ط1.

موسى، تيسير،(د.ت) **نظرة عربية على غزوات الإفرنج من بداية الحروب الصليبية وحتى وفاة نور الدين**، الدار العربية للكتاب.

مؤلف مجهول، (2010م)، **المختار من ذيل الخريدة وسيل الجريدة للعماد الأصفهاني**، تحقيق محمد عايش، دار الكتب العلمية ـ بيروت، ط1.

الميداني، أبو الفضل أحمد بن محمد (ت518هـ)، (1955م)، **مجمع الأمثال**، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار المعرفة ـ بيروت.

النعيمي، عبد القادر بن محمد (ت 978 هـ)، (1990م)، **الدارس في تاريخ المدارس**، أعدّ فهارسه إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية ـ بيروت، ط1.

النقاش، زكي، (1958م)، **العلاقات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية بين العرب والإفرنج خلال الحروب الصليبية**، دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر.

الهرفي، محمد علي، (1979م)، **شعر الجهاد في الحروب الصليبية في بلاد الشام**، دار النصر للطباعة الإسلامية ـ القاهرة.

هندي، إحسان، (1964م)، **الحياة العسكرية عند العرب**، مطبعة الجمهورية ـ دمشق.

ابن واصل، جمال الدين محمد بن سالم (ت 697هـ)، (د.ت) **مفرج الكروب في أخبار بني أيوب**، تحقيق جمال الدين الشيال، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، الجمهورية العربية المتحدة.

الورقي، السعيد، (2003م)، **لغة الشعر العربي**، دار المعارف ـ القاهرة.

يوسف، جوزيف نسيم، (1981م)، **الوحدة وحركة اليقظة العربية إبان العدوان الصليبي**، دار النهضة العربية ـــ بيروت، ط2.